بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلّمه البيانَ. والصلاة والسلام على إمام البلغاء سيدنا محمّد، من آتاه ربه الإصابة في القول، وجوامع الكلم، حتى جرَتْ ينابيع الحكمة على لسانه، وتفتقت أكمامُ الفصاحة من بستانه. أما بعد:

فإنّ حبّ العربيّة وبغية الارتقاء فيها يدفع طالب العلم إلى احتمال المصاعب، وبَذل النفيسين –وقته وراحته– من أجل اكتساب عُدة تعينه على معرفة أسرارها ومراميها البيانية، ولا سبيل إلى غرضه ذاك إلا بالاطلاع الواسع على علوم اللسان العربي، وعلى رأسها علم البيان، والتمرس –مدة طويلة– بما أودعه الله في لغة الضاد من أساليب البلاغة والبيان، إذ الفائدة المرجوة من ذلك –في نهاية المطاف– هي الوقوف على أسرار كلام العرب منثوره ومنظومه، ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة والبلاغة. ويحصل ذلك أولا بامتلاك مفاتيح اللغة العربية، وثانيا بضبط مصادر هذا العلم وأعمدته الثلاثة والتمكن منها، وهي: القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب العربي الرفيع.

– فكتاب الله عز وجل ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾، نَزل بِهِ جبريلُ عَليه السلامُ عَلَىٰ قَلبِ رَسُولنا الكَريمِ بِلِسَانٍ عَرَبي مبِين، وهو معدن البيان ومنبع الفصاحة. و"البلاغة –كما يقول أبو الحسن الرماني (ت ٣٨٤هـ) – على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو

في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس . . . وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم . . . ". [1]

– وحديث رسوله الكريم ﷺ – أفصح من نطق بالضاد– رتبته في البلاغة دون كلام الله عز وجل، وفوق بلاغة البلغاء، "وهو الكلام الذي قلّ عددُ حروفه وكثُر عدد معانيه، وجلّ عن الصَّنعة، ونُزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ . . . فلم ينطق ﷺ إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. . " [2].

– والأدب العربي الفصيح: لأن الاطلاع الواسع الواعي على نصوص أئمة الفصاحة من الشعراء والكتّاب، يكسب الطالب مَلَكَة يهتدي بها الى معرفة أسرار البيان العربي. أما الشعر فلأنه –كما قَالَ عمر بن الْخطاب ﷺ – كَانَ علمَ قوم لم يكن لَهم علمٌ أصحَّ

---

[1] "النكت في إعجاز القرآن"، ص/76، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
المحققان: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، سنة ١٩٧٦م.

[2] "البيان والتبيين" للجاحظ 13/2، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٤٢٣ هـ.

مِنْهُ" [3] ، والجيد منه هو السحر الحلال، والعذب الزلال. وكان يقال: "لا تدع العربُ الشعر حتى تدعَ الإبلُ الحنين". وعن ابْنَ عَبَّاسٍ ﵁ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُونِي عَنْ عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ، فَالْتَمِسُوهُ بِالشِّعْرِ فَإِنَّ الشِّعْرَ دِيوَانُ الْعَرَبِ». [4] وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً» [5] .

والنبي ﷺ وإن قال في حقه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ، غير أنه كان يحب سماع الشعر الرصين ويستنشده بعض الصحابة أحيانا، وقد يرتجز البيت أو البيتين، من غير قصد .

فعَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ فَقَالَ: "هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ" [6]

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أنا النَّبِيُّ لا كَذِب أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب" [7]

[3] "طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلّام الجمحي، المحقق: محمود شاكر، الناشر: دار المدني – جدة.

[4] "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" 198/2، للخطيب البغدادي، د .محمود الطحان. .

[5] "مسند الإمام أحمد بن حنبل" 14/35، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

[6] حديث متفق عليه. وهو في كتب الحديث لا يكتب بطريقة الشعر، ولكني أثبته كذلك حتى تظهر صورته العروضية، لأنه من الرجز المشطور، وهو الذي ذهبت تفعيلات الثلاثة، (وهو في الأصل مستفعلن ست مرات) . وقوله ﷺ : "أنا النبي لا كذب. . ." من منهوك الرجز أي ذهبت أربع تفعيلات منه.

[7] جاء في صحيح البخاري: عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: «سَأَلَ رَجُلٌ الْبَرَاءَ [بن عازب] ﵁ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَوَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ الْبَرَاءُ، وَأَنَا أَسْمَعُ: أَمَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُوَلِّ يَوْمَئِذٍ، كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذًا بِعِنَانِ بَغْلَتِهِ، فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمُشْرِكُونَ نَزَلَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: "أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ . . أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ" . قَالَ: فَمَا رُئِيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ».

وكان الممتنع عليه ﷺ إنشاء الشعر لا إنشاده. وعند البخاري أن النبي ﷺ قال: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ"، وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ». [حديث/ 3841].

وعند الترمذي: «عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ: قِيلَ لَهَا: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَوَاحَةَ ويقول "وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ»".[8]

وكان عليه الصلاة والسلم يتمثل ببعض كلام العرب في حديثه. فمن ذلك ما قاله لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه يوم الحديبية: «إِنَّكَ كَالَّذِي قال الأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هو أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفْسِي».[9]

وبغية الوصول إلى بعض هذا الغرض وضعتُ لطلبتنا الأعزاء بحثا عن التشبيه وأهميته في البيان العربي، أما السبب في اختيار هذا اللون البلاغي فلأنه من أقدم صور البيان، إن لم يكن أقدمها؛ فهو مَبني على ما تلمحه النفس من اشتراك بعض

[8] "سنن الترمذي"، 139/5، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر. والبيت لطَرَفَة بنِ العَبدِ وهو بتمامه:

سَتُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهِلًا ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ

[9] من حديث طويل عند مسلم (بَابُ غَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ وَغَيْرِهَا، رقم الحديث 1807) وفيه: «... وَرَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَزِلًا، يَعْنِي ليسَ معهُ سِلَاحٌ، قال: فأَعْطَانِي رَسولُ اللهِ ﷺ حَجَفَةً -أَوْ دَرَقَةً- (شبيهان بالترس) ثُمَّ بَايَعَ، حتَّى إذَا كانَ في آخِرِ النَّاسِ، قالَ: أَلَا تُبَايِعُنِي يا سَلَمَةُ؟ قالَ: قُلتُ: قدْ بَايَعْتُكَ يا رَسولَ اللهِ، في أَوَّلِ النَّاسِ، وفي أَوْسَطِ النَّاسِ، قالَ: وَأَيْضًا، قالَ: فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ قالَ لِي: يا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَفَتُكَ -أَوْ دَرَقَتُكَ- الَّتي أَعْطَيْتُكَ؟ قالَ: قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلًا، فأعْطَيْتُهُ إيَّاهَا، قالَ: فَضَحِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَقالَ: إنَّكَ كَالَّذِي قال الأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هو أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفْسِي..».

الأشياء في وصف خاص يجمعهما؛ فتعمد إليه بالبديهة أو الغريزة حين يسوقها الباعث عليه؛ حتى أصبح التشبيه من الصور البيانية الفطرية، والخصائص الفنية التي لا تختص بجنس ولا لغة. وقد عرفه العرب الأقدمون منذ لهجت ألسنتهم بفنون القول؛ فكان للتشبيه الصدارة بين الأساليب التي يستخدمها الفصحاء في كل زمان، وفي هذا يقول أبو العباس المبرد (ت/285هـ): "والتشبيه جارٍ كثيراً في كلام العرب؛ حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد". ويقول: "والتشبيه من أكثر كلام الناس"، "والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له".[10]

ومن أجل ذلك جعله علماء البلاغة أول أبواب علم البيان، ومن استوعب ما أصَّلوه عن هذا الفن من القول البليغ، واطلع على أسراره البيانية سَهل عليه الوقوف على خبايا لون بلاغي آخر هو الاستعارة لبنائها عليه، حيث إنها تشبيه بليغ حُذف أحد طرفيه وهو المشبه، لكنها تدخل حينئذ في باب المجاز اللغوي. كما سنرى بعد حين.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة ان أجعلها فصلين: أحدهما نظري، ليكون بمثابة الأساس للدراسة، بينت فيه باختصار مفهوم البيان والبلاغة، ومنزلتهما في الثقافة العربية، ومدى ارتباطهما ببعضهما، ومراحل تطورهما، وشفعت كل ذلك بنصوص مختارة لعلماء لهم القِدْح المُعَلَّى في هذا المضمار. والثاني تطبيقي، كان له النصيب الأوفر من البحث، لأن تدريسي مادة البلاغة بشعبة الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بتطوان، لأزيد من ثلاثة عقود، وبمعهد الإمام مالك للتعليم الأصيل بطنجة،

---

10 "الكامل في اللغة والأدب"، 70/3، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الثالثة 1417 هـ.

أوقفتني على أهمية النصوص التطبيقية في معرفة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، مع التوسع في الشرح والتحليل، وعدم الاقتصار على القاعدة مع شاهدها –كما هو الحال في أغلب الأحيان! حتى يتسنى لطلبتنا تذوق الكلام العربي الرفيع. ومن أجل ذلك تحاشيت الخوض في القواعد النظرية –الجافة أحيانا –كما هو السائد في كتب الأقدمين وبعض المعاصرين، لأنها لا تخدم الغرض المنشود من دراسة علوم البلاغة كلها، فهي تعتمد في مناسبات كثيرة –بعد ضبط قواعد اللغة– على الذوق الرفيع، ومراعاة مقتضى حال الكلام البليغ، وحال المخاطبين به، كما سنبين قريبا بعون الله وتوفيقه.

وكان اعتمادي في غالب مباحث هذه الدراسة على شواهد منتقاة من كلام الله جل جلاله وحديث النبي ﷺ ومن الأدب العربي الرفيع شعره ونثره. وقد رأيت كتب البلاغة تميل الى الشواهد الشعرية كثيرا، وربما أغفلت أمثلة بليغة من القرآن أو من الحديث الشريف وهو أكثر صنيعهم، مع أن البلاغة النبوية –كما ذكرنا– نهر زخار من الفصاحة لا ينضب، وفاقهم في هذا المجال بعض شراح الحديث. وهذا يذكرنا بصنيع النحاة الذين كانوا يستشهدون –من أجل تقرير قواعدهم– على شواهد شعرية أصحابها مجهولون أحيانا، أو على قراءات شاذة، كما رفضوا الاستشهاد ببعض نصوص الحديث النبوي المروية بالمعنى لعلل واهية، حتى خَرق هذه القاعدة جمال الدين محمد بن مالك (ت/672 هج) صاحب الألفية المشهورة، رحمه الله وسائر علماء المسلمين الذين أفنوا أعمارهم في خدمة لغة القران الكريم.

وقد بذلت قصارى جهدي في شرح وتحليل هذه الشواهد -كما كان دأبي في فصول الدراسة- مستعينا بما تركه لنا أئمة هذا الشأن من ثروة هائلة في مجال البلاغة واللغة والأدب والتفسير والحديث، ومستفيدا من خبرتي في تدريس هذه المادة زمنا طويلا.

وحاولت قدر المستطاع أن أعرف بجملة من المصطلحات البلاغية الواردة في البحث، وأن أترجم لبعض الأعلام، مع التركيز على ذكر تواريخ وفاتهم. وكان اعتمادي -في غالب الأحيان- على موسوعة "الأعلام" لخير الدين الزركلي (ت/ ١٣٩٦ هـ).

ولكن بالرغم من ذلك كله فإن ما دونته في هذه الصفحات قد لا يؤتي أكله كاملا، أو تحصل فائدته المرجوة تامة، ما لم تُدرس أبواب البيان على يد متخصص، يجلي مضامينها مستخدما اللوح -ما استطاع الى ذلك سبيلا- ومطالبا المتعلمين بكثرة التطبيقات، حتى يكتسبوا ملكة بيانية تعينهم على تذوق النصوص البلاغية والوقوف على أسرارها البيانية، وذلك يحتاج إلى مجاهدة ومثابرة كبيرين.

ولنستمع الى الأديب مصطفى صادق الرافعي (ت/1937) – نابغةُ الأدب وحُجّة العرب – يخبر صديقه "أبا ريّة" عن أفضل السبل لاكتساب ملكة الإنشاء. قال: [11] الإنشاء لا تكون القوة فيه إلا عن تعب طويل في الدرس، وممارسة الكتابة، والتقلب في مناحيها، والبصر بأوضاع اللغة. وهذا عمل كان المرحوم "الشيخ عبده" يقدر أنه لا يتم للإنسان في أقل من عشرين سنة. فالكاتب لا يبلغ أن يكون كاتبا حتى يقطع هذا العمر في الدرس وطلب الكتابة.

[11] بتصرف من كتاب: "من رسائل الرافعي"، وهي التي بعث بها الرافعي الى صديقه محمود أبو ريّة، بين سنة 1912 الى 1934م. ص/ 52 وما بعدها. دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية.

فإني أوصيك أن تكثر من قراءة القرآن ومراجعة الكشاف للزمخشري، ثم إدمان النظر في كتاب من كتب الحديث كالبخاري أو غيره، ثم قطع النفَس في قراءة آثار ابن المقفع، ثم كتب الجاحظ، ثم نهج البلاغة، ثم إطالة النظر في كتاب الصناعتين للعسكري، والمثل السائر لابن الأثير، ثم الإكثار من مراجعة أساس البلاغة للزمخشري. . .

وقبل أن أختم مقدمتي هاته، أرى من الواجب علي أن أزجي الثناء العاطر، والشكر الوافر لأساتذتي الكرام الذين حببوا إلي دراسة علوم اللسان العربي، حتى يسر لي المولى جلت حكمته وعظمت منته التخصص في مادة البلاغة والنقد . وأخص بالذكر هنا الأستاذ الدكتور الشاعر عز الدين علي السيد –رحمه الله– الذي تلقيت على يديه دروس البلاغة في مرحلتي الاجازة والدراسات العليا، في رحاب كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم أشرف على رسالتي في الماجستير. [12]

والله تعالى أسأل أن يرزقني السدادَ في القول والإخلاصَ في العمل، فهو سبحانه بكل جميل كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

[12] كان رحمه الله تعالى نعم المدرس والمربي والمرشد، ترى فيه سمت الصالحين حِلما وتواضعا وخلقا رفيعا، مع علم وفير وفهم غزير، وكان يخصني بفضل عنايته وتوجيهه. أكرمه الله تعالى بالوفاة بالمدينة المنورة في حادث، سنة 1405 هج، ودفن في البقيع. وترك دووابن شعرية كثيرة، جمعت في مجلد واحد ضخم، ومن مؤلفاته: "التكرير بين المثير والتأثير" دراسة بلاغية، و "التوجيه البلاغي للحديث النبوي الشريف"، و "تعبير الحق عن ذاته". وملحمة بعنوان: «ربيع بين عهدين»، ومسرحية شعرية بعنوان: «الحق الأبلج». .

الفصل الأول

البيان والبلاغة

المبحث الأول
البيَانُ ومَراحلُ تَطَوّره

أولا: مَفهومُ البَيان وأثره في الكلام

البيان كل ما كشف قِناع المعنى الخفيَّ حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل، فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، ومنَّ به على عباده، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ . ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعثَ الله تعالى أفضلَ أنبيائه وأكرم رسله من العرب، وجعل لسانه عربياً، وأنزل عليه قرآنه عربياً، كما قال عزَّ وجل: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ . وقال: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر/28)، فلم يُخَصّ اللسانُ بالبيان، ولم يُحمد بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللفظ عند السّمع.

جاء في صحيح البخاري:

«أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ» . [13]

يعني أن بعض البيان يعمل في النفوس عمل السحر؛ ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق. والبيان اجتماعُ الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللَّسَن، وإنما شُبه بالسحر لحدة عمله في سامعيه وسرعة قبول القلب له، حتى صار هذا الحديث مثلا يضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة. وسئل أحد البلغاء: فيم الجمال؟ فقال: في اللسان، يريد البيان. [14]

---

[13] باب: "مِن البيان سِحرا" . وفي الموطأ" باب "ما يكره من الكلام بغير ذكر الله" . و في المستدرك على الصحيحين للحاكم- باب ذكر عمرو بن الأهتم المنقري رضي الله عنه – عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله ، أنا سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب فيهم ، أمنعهم من الظلم فآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذاك، يعني عمرو بن الأهتم ، فقال : عمرو بن الأهتم : والله يا رسول الله ، إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في ناديه، قال الزبرقان : والله يا رسول الله ، لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم به إلا الحسد، قال عمرو : أنا أحسدك، فوالله إنك لئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيع في العشيرة. والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا، وما كذبت فيما قلت آخرا، لكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت، ووالله لقد صدقت في الأمرين جميعا، فقال النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرا، إن من البيان لسحرا» .

[14] انظر العقد الفريد، لأحمد بن عبد ربه، ج1، ص 131 وما بعدها .

يقول أبو عمر بن عبد البر (٣٦٨ – ٤٦٣ هـ) معلقا على الحديث الشريف: [15]
"وفي هذا دليلٌ على مدح البيانِ، وفَضْلِ البلاغةِ، والتَّعَجُّبِ بما يُسْمَعُ من فصاحةِ أهْلِها. وفيه المجاز والاستعارة الحسنة، لأن البيان ليس بسحر على الحقيقة. وفيه الإفراطُ في المدحِ؛ لأنَّه لا شيءَ في الإعْجاب والأخْذِ بالقُلوبِ يبلُغُ مَبْلَغَ السِّحْرِ. وأصلُ لفظَةِ السِّحْرِ عندَ العرب: الاسْتِمالَةُ، وكلُّ مَنِ اسْتَمالك فقد سحَرَك. وقد ذهَبَ هذا القولُ منه –صلى الله عليه وسلم– مثَلًا سائرًا في الناس إذا سمِعُوا كلامًا يُعْجبُهم قالوا: "إن من البيانِ لَسِحْرًا". ويقولون في مثْلِ هذا أيضًا: "هذا السحرُ الحلالُ". ورُوِي أن سائلًا سأَل عمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ حاجةً بكلام أعْجَبَه، فقال عمرُ: "هذا واللّه السّحرُ الحلال". ومن هنا أخذ ابنُ الرُّوميّ، هذا المعنى، فأحْسَنَ:

وحديثُها السّحْرُ الحَلالُ لو أنَّها		لم تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إن طالَ لم يُمْلَلْ وإنْ هِيَ أوْجَزَتْ		وَدَّ المُحَدّثُ أنَّها لم توجِزِ
شَرَكُ العقولِ ونُزْهَةٌ ما مثلُها		للسَّامِعين وعُقْلَةُ المسْتَوفِزِ [16]

[15] "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم"، 583/3 حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف وآخرون، الناشر: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ.

[16] "شَرَكُ العُقول" الشَّرَك: حبائل الصيد، والمعنى أن حديثها يصيد العقول قَنصًا من شدَّة ميل النفوس إليه. وقوله: "وعُقْلَة المُستَوفِز" العُقْلة: الحَبْسُ والإمساك، والمُستَوفِز: المُستَعجل. وقال ابن أبي الإصبع العدواني في كتابه "تحرير التحبير، [ص 541] في شرحه لهذه الأبيات: وليس للمختار حالةٌ زائدة على هاتين الحالتين: إمّا أن يكون مطمئنًا، أو مُستَوفِزًا، فإن كان مطمئنًا كان هذا الحديث نزهته، وإن كان مستوفِزًا كان عُقلتَه، فلم يُبْقِ في هذا المعنى مقالًا لمَن بعده.

ومن هذا أيضاً ما أَنْشَدني يوسفُ بنُ هارونَ في قصيدةٍ له:

نَطقْتُ بسِحْرٍ بعدها غيرَ أنَّه من السّحْرِ ما لم يُخْتَلَفْ في حَلالِه

كذاكَ ابنُ سِيرِينَ بنَفْثَةِ يُوسُفٍ تكَلَّمَ في الرُّؤيا بمِثْلِ مَقالِه

وفي هذا الحديثِ ما يَدُلُّ على أن التعجُّبَ مِن الإحْسَانِ في البيانِ والبلاغةِ مَوْجُودٌ في طِبَاعِ ذَوي العُقُولِ والفصاحةِ، وكان رسولُ الله –صلي الله عليه وسلم– قد أُوتيَ جَوامِعَ الكَلِمِ، إلَّا أنَّه بإنْصَافِه كان يَعْرِفُ لكُلِّ ذي فَضْلٍ فَضْلَه. وفي هذا ما يَدُلُّ على أن أبصرَ الناسِ بالشيءِ أشَدُّهم فرَحًا بالجيِّدِ منه، ما لم يكنْ حَسُودًا.

وإنَّما يَحْمَدُ العلماءُ البلاغةَ واللَّسانَةَ، ما لم تَخْرُجْ إلى حدّ الإسْهَابِ والإطْنابِ والتَّفَيْهُقِ؛ فقد رُوِي في الثَّرْثارِينَ المتَفَيْهِقِينَ أنَّهم أبغَضُ الناسِ إلى الله ورسولِه. وهذا، واللهُ أعلمُ، إذا كان ممَّن يُحاوِلُ تزْيِينَ الباطلِ وتَحْسِينَه بلَفْظِه، ويريدُ إقامتَه في صورِ الحقّ، فهذا هو المكروهُ الذي ورَد فيه التَّغْلِيظُ. وأمَّا قولُ الحقّ، فحسنٌ جميلٌ على كلّ حالٍ، كان فيه إطنابٌ أو لم يكنْ، إذا لم يتجاوزِ الحقَّ، وإن كنتُ أُحِبُّ أوْسَاطَ الأُمورِ، فإن ذلك أعْدَلُها، والذي اتَّفقَ العلماءُ باللغةِ في مَدْحِه من البلاغةِ الإيجازُ والاخْتِصارُ، وإدْرَاكُ المعاني الجَسِيمَةِ بالألفاظِ اليَسِيرة".

وجاء في آخر حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ

اللَّهِ: وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نتكلم بِهِ؟ فَقَالَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟». [17]

والحصائد: جمعُ حصيدة، فعيلة بمعنى مفعولة، وهذا من إضافة اسم المفعول إلى فاعله، أي: محصود اللسان، يعني ما ينطق به، فشبَّه ما تكلم به اللسان بالزرع المحصود بالمنجل أو غيره، فكما أن المنجل يقطع الحشيش ولا يميز بين الرطب واليابس، والجيد والرديء، فكذلك لسانُ بعض الناس يتكلّم بكلِّ نوعٍ من الكلام –القبيح والحسن على حد سواء– لا يلقي له بالا، ولا يفكر في عاقبة ذلك.

وهذه استعارة مكنية، حيث شُبه اللِّسَان وَمَا يقتطع بِهِ من القَوْل بأرض محصودة قطع زرعها أو نباتها بجد المنجل. ثم حذف المنجل أو آلة الحصد، وبقي بعض ما يدل عليه وهو الحصد، والجامع بين الطرفين القطع في كل منهما. وفي ذلك تجسيد للمعنى وكأنه يرى. وأصل الحصد في اللغة قطع الزرع وما شابهه، ثم استعير في الاستئصال والإهلاك مطلقا؛ يقال حصدهم السيف، وحصدهم الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾. [الأنبياء: 15]

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) في شرح بعض هذا المعنى: [18]

"وأكثر المعاصي إنما تولّدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملآن ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه

17 أخرجه الترمذي رقم (2619) في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ورواه أيضاً أحمد في "المسند" وابن ماجة في "سننه"، وهو حديث صحيح بطرقه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

18 "بدائع الفوائد" 173/2، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

إرادة للطعام. وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات. وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، ويقولون: ما شيء أحْوجُ إلى طول السّجن من اللسان".

وقال أيضا عندما ذكر آفات اللسان: [19]

"وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَهُونُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَازُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ وَالظُّلْمِ وَالزِّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَمِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ التَّحَفُّظُ مِنْ حَرَكَةِ لِسَانِهِ، حَتَّى تَرَى الرَّجُلَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالدِّينِ وَالزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَاتِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَنْزِلُ بِالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَكَمْ تَرَى مِنْ رَجُلٍ مُتَوَرِّعٍ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ، وَلِسَانُهُ يَفْرِي فِي أَعْرَاضِ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَقُولُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ فَانْظُرْ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». فَهَذَا الْعَابِدُ الَّذِي قَدْ عَبَدَ اللَّهَ مَا شَاءَ أَنْ يَعْبُدَهُ، أَحْبَطَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ عَمَلَهُ كُلَّهُ".

وقالت العرب: أَنفذُ من الرّميَة كلمةٌ فصيحة. وقال يعقوب الحمدوني:

وقد يُرجى لجرح السيف بُرءٌ ولا بـرءٌ لـما جَـرح اللّســانُ

19 "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي" أو الداء والدواء، ص/159، الناشر: دار المعرفة – المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م

جِراحَاتُ السُّيوف لَهَا التِئَامُ وَلَا يَلتَـام مَا جَـرح اللِّـسَـان
وجُرحُ السيف تُدمّله فيَبرى ويبقى الدهرَ ما جَرح اللسانُ

ثانيا: نشأة البيان العربي [20]

كان للعرب في حياتهم الأولى ذوقٌ وفيهم فصاحة فطرية، كانوا بهما في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير.

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت عناصر البشر، وتمازجت الثقافات، فلقحت العقول، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللّحن في الكلام، وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي وجمع مواد اللغة. وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي، وظل النضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة. وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات:

– الأولى: طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين، من أمثال: خَلف الأحمر (115– 180 هـ) وعبد الملك بن قُريب الأصمعي (123 هـ)، وأبي زيد الأنصاري البصري (122–215 هـ)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى (110–209

20 ملخصة من كتاب: "البلاغة تطور وتاريخ" لشوقي ضيف. و"كتاب البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية" لبدوي طبانه. ومن مقدمة كتاب الخطيب القزويني "الايضاح في علوم البلاغة" لمحمد عبد المنعم خفاجي. وكتاب " البيان في ضوء أساليب القرآن" لعبد الفتاح لاشين. . .

هـ)، وأستاذهم أبي عمرو بن العلاء التميمي البصري (70– 154 هـ) أعلم الناس بالعرب والعربية، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب –كما يقول الجاحظ– دون النحويين واللغويين والإخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه.

وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء والخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية.

– والثانية: طبقة الكتّاب الذين لم ير الجاحظ قومًا أمثل طريقة في البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيًّا ولا سوقيًّا، ورأى البَصرَ بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعمّ، وحكم مذهبهم في النقد، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية، مما كان له أثره في فهم أصول البيان، وفي توجيه دراسته، وفي الدعوة إلى آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم. وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام.

– وأما الطبقة الثالثة: فهي طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية، أو ألفوا كتبًا تبحث في هذه الاتجاهات، وهؤلاء عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيرًا واضحًا كبيرًا.

وسنقف قليلا مع ثلاثة من جهابذة الفكر والأدب العربيين –وهم كثيرون جدا– ممن أغنوا المكتبة العربية بعطائهم المتميز عن البيان ومذاهبه:

– الجاحظ (ت/ 255هـ) وأثره في البيان العربي:[21]

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب، ويدوي في كل أفق، وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالًا عليه في البلاغة والفصاحة واللّسن والعارضة، كما يقول "ابن العميد" . . ألف عشرات الكتب والرسائل أغلبها فريد في نمطه مفيد . وكانت مسائل هذا العلم مفرّقة مستقرية في أبوابها من علوم أخرى كالنحو واللغة والشعر، فجمع منها الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" مسائل كثيرة، تنبّه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم، فكتبت في ذلك تآليفهم المشهورة، وصارت أصولا لفنّ البيان، ولقنها المتأخّرون فأربوا فيها على كلّ متقدّم كما ذكر ابن خلدون (ت/808 هـ) في تاريخه وهو يتحدث عن علم الأدب [22]. وعن أصول هذا العلم يقول: "سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: "أدب الكتّاب" لابن قتيبة، وكتاب "الكامل" للمبرد، وكتاب "البيان والتبيين"

---

[21] الجاحِظ (163 – 255 هـ) هو عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، وهو من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة جدا، منها" الحيوان" و"البيان والتبيين " و"أخلاق الملوك" و"البخلاء" و"المحاسن والأضداد" و"مجموع رسائل" و"الربيع والخريف" و"الحنين إلى الأوطان" و"النبيّ والمتنبي" و"مسائل القرآن" و"صياغة الكلام " و" كتاب المعلمين " . . . الخ

[22] "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، 732/1، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

للجاحظ، و"كتاب النوادر" لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروعٌ عنها".[23]

والحق أن الكتب الثلاثة راجعة في كثيرٍ من فصولها إلى كتاب الجاحظ البيان والتبيين.

والبيان عند الجاحظ "اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع، إنّما هو الفَهْمُ والإفهام...".[24]

والعرب -كما يقول الجاحظ في موضع آخر- وإن كانوا "يحبُّون، البيان والطَّلاقة، والتَّحبير والبلاغة، والتخلُّص والرَّشاقة، فإنّهم كانوا يكرهون السَّلاطة والهذَر، والتكلُّف، والإسهاب والإكثار؛ لما في ذلك من التزُّيد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلوّ، وكانوا يكرهون الفُضولَ في البلاغة، لأنّ ذلك يدعُو إلى السَّلاطة، والسَّلاطة تدعو إلى البَذاء. وكلُّ مِراءٍ في الأرض فإنَّما هو من نِتاج الفُضول، ومَن حَصَّل كلامَه وميَّزَه، وحاسب نفسَه، وخاف الإثم والذمّ، أشفق من الضراوة وسوء العادة، وخاف ثمرةَ العُجْبِ وهُجْنة التَّفْج، وما في حبِّ السُّمعة من الفِتنة، وما في الرّياء من مجانبة الإخلاص...

وروى حمّاد بن سَلمة، عن أبي حمزة، عن إبراهيم قال: «إنما يهلك الناس في فضول الكلام، وفضول المال». وقال: دَع المَعاذر، فإن أكثرها مَفاجر». وإنما صارت المعاذر

---

[23] المرجع السابق، 763/1.

[24] "البيان والتبيين"، 82/1، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

كذلك لأنها داعية إلى التخلص بكلّ شيء. قالوا: ونظر شاب وهو في دار ابن سيرين إلى فَرش في داره، فقال: ما بال تلك الآجرة أرفع من الآجرة الأخرى؟ فقال ابن سيرين: «يا ابن أخي إن فضول النظر تدعو إلى فضول القول». وزعم إبراهيم بن السندي قال: أخبرني من سمع عيسى بن علي يقول: «فضول النظر من فضول الخواطر، وفضول النظر تدعو إلى فضول القول، وفضول القول تدعو إلى فضول العمل، ومن تعوّد فضول الكلام ثم تدارك استصلاح لسانه، خرج إلى استكراه القول، وإن أبطأ أخرجه إبطاؤه إلى أقبح من الفضول...". [25]

2- البيان عند المبرد (ت/ 285هـ) [26]

أهم مؤلفات المبرد كتابه "الكامل في اللغة والأدب"، حيث يعده المهتمون من أهم مصادر الأدب العربي إذ ضمنه آراءه المختلفة في الأدب والنقد والبيان.

ويكفي ان "باب التشبيه" من الكتاب –الذي استغرق حيزا كبيرا– أفاض فيه المبرد ذكر ما يستجاد من التشبيه في شعر القدامى والمحدثين، وحلل ما أتوا به، مبينا كثيرًا من أصول التشبيه، فتكلم على وجه الشبه وأنه إنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع،

---

25 المرجع السابق، 168/1.

26 المبرد (210 – 286 هـ) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. تلميذ المازني والجاحظ، وأبي حاتم السجستاني. ونهل من علمه كبار علماء النحو واللغة والأدب، أمثال الزجاج والصولي ونفطويه وابن السراج والأخفش الأصغر وأبي الطيب الوشاء وابن المعتز العباسي وغيرهم.
من كتبه المطبوعة: (الكامل في اللغة والادب) و (المقتضب) و (التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا) و (شرح لامية العرب) مع شرح الزمخشريّ، و (إعراب القرآن) و (طبقات النحاة البصريين) و (نسب عدنان وقحطان) رسالة. قال الزبيدي (شارح القاموس): المبرّد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم يكسر.

ويذكر كثرة التشبيه في الكلام وأنه من سمات العرب المميزة في كلامهم "حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد"، ويشرح التشبيه في الآية الكريمة: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ شرحًا فريدا [27].

ويذكر من أقسام التشبيه: التشبيه المصيب والقريب والبعيد، والتشبيه المتجاوز المفرط، ومنه قول الخنساء في أخيها صخر وكان أثيراً عندها:

وإن صَخراً لتأتمّ الهُداةُ به　　كأنه عَلَمٌ في رأسه نـارُ

فجعلت المهتدي يأتم به، وجعلته كنار في رأس جبل عظيم دلالة على شهرته.

ومن أقسامه كذلك تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين كقول امرئ القيس:

كأن قلوبَ الطير رَطبًا ويابسًا　　لدى وكرها العُنَّاب والحَشف البالي

فهذا مفهوم المعنى، فإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل فقال: كأنه رطباً العناب، وكأنه يابساً الحشف! قيل له: العربي الفصيح الفطن اللقِن يرمي بالقول مفهوماً، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عِيا، قال الله جل وعز: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص/73]، علماً بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون ووقت الاكتساب. ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله:

كأن عيونَ الوَحْش حول خِبائنا　　وأَرحُلنا الجَزعُ الذي لم يُثَقّب [28]

---

[27] "الكامل"، 70/3 بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ط 3، ١٤١٧ هج. والحشف البالي: رديء التمر، قال شارح الديوان: "وإنما خص قلوب الطير جاءت بقلوبها إلى أفراخها".

[28] المصدر نفسه 25/3.

شبه عيون الظباء –وهي تتجول حوالي خيمتهم، تلمع عيونها– بالجزع ، وهو خَرَز فيه بياض وسواد، وجعله غير مُثقَّب لأن ذلك أصفى له وأتم لحسنه، وأوقع في تشبيه العيون به.

إلى ما سوى ذلك من بحوث قيمة في باب التشبيه شرح فيها المبرد أسراره، وبين ألوانه، وفصّل القول في كثير من مناحيه. والباب حافل بالعديد من ألوان النقد الأدبي، حتى يمكن اعتباره أصلا عظيما لدراسة التشبيه عند البيانيين الذين جاؤوا من بعده.

3– البيان عند عبد القاهر الجرجاني (ت/471 هج)[29]

الجرجاني شيخ البلاغة ومطور البحث فيها، وواضع أصولها في كتابين جليلين هما:

– أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع كالجناس.

– دلائل الإعجاز، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني، كما تحدث فيه عن الكناية والتمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات وغير ذلك..

ونقتطف هنا بعض حديثه عن البيان ومنزلته في العربية. قال في الدلائل: "إنك لا ترَى عِلْماً هو أرسَخُ أصلاً، وأبسَق فَرعاً، وأَحلى جَنىً، وأَعذبُ وِرْداً، وأكرمُ نِتاجاً،

29 عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر. من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) تشعّبت جهود عبد القاهر العلمية وتنوعّت، وأبدع في كل مجال خاضه وصنّف فيه، فهو إمام في اللغة، كما هو إمام في الدراسات النقدية والبلاغية، والأدبية والأسلوبية، والدراسات القرآنية وإعجاز القرآن، والعروض. وله من الكتب غير "الاسرار" و"الدلائل": " الجمل" في النحو، و "المغني" في شرح الإيضاح للفارسي"، ثلاثون جزءا، اختصره في شرح آخر سماه " المقتصد" في المكتبة الظاهرية، و "رسالة في إعجاز القرآن " و " العمدة في تصريف الأفعال، و " العوامل المئة"...

وأنْورُ سراجاً، مِن عِلْم البَيان، الذي لولاه لم تر لساناً يَحُوك الوشيَ، ويصَوغ الحَلْيَ، وَيلفِظ الدُرَّ، وينفثُ السّحرَ، ويَقْري الشّهْدَ، ويُريكَ بدائعَ منَ الزهر، ويجنيك الحلو اليانِع من الثّمر، والذي لولا تَحفيه بالعلوم، وعنايتِهِ بها، وتصويرُهُ إياها، لبقيتْ كامنةً مستورة، ولمَا استبَنْتَ لها يدَ الدهرِ صورةً، ولاستمرَّ السّرارُ بأهلّتها، واسْتَولى الخَفَاءُ على جُملِتها، إلى فوائدَ لا يُدركها الإحصاءُ، ومحاسنَ لا يَحْصرُها الاستقصاء".[30]

ثم يبين الجرجاني ما لحق علم البيان من الظلم والخطأ فيقول:

"إلاّ أنك لن ترَى على ذلك نوعاً من العلم قد لقيَ من الضَّيْم ما لَقِيَهُ، ومُنِيَ مِنَ الحَيْف بِما مُنِيَ به، ودَخل على الناسِ منَ الغلَط في مَعْناهُ ما دخَلَ عليهم فيه، فقد سبقتْ إلى نُفوسهم اعتقاداتٌ فاسِدةٌ وظنونٌ رديَّةٌ، وركِبهُم فيه جهلٌ عظيمٌ وخطأٌ فاحشٌ، ترى كثيراً منهم لا يَرى له معنىً أكثرَ مِمَّا يرَى للإشارةِ بالرأس والعين، وما يَجدُهُ لِلخط والعَقْد، يقول: إنَّما هو خبرٌ واستخبارٌ، وأمْر ونهيٌ، ولكلٍ مِن ذلك لفظٌ قد وُضع له، وجُعل دليلاً عليه، فكلُّ مَنْ عَرفَ أوضاعَ لغةٍ منَ اللغات، عربيةً كانت أو فارسية، وعرَفَ المغْزى من كلّ لفظةٍ، ثم ساعدَه اللسانُ على النُّطق بها، وعلى تأديةِ أجراسِها وحُروفِها، فهو بيّن في تلك اللّغةِ، كاملُ الأداةِ، بالغٌ منَ البيانِ المبلغَ الذي لا مزيدَ عليه، يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة، فلا يَعرف لها معنىً سوى الإطْنابِ في القول، وأنْ

[30] "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، المحقق: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة. الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

و"يقريه" في النص، يجمعه. ويقولون: "لا أفعله يد الدهر"، أي لا أفعله أبدًا. و"السرار"، اختفاء القمر في آخر ليلة في الشهر. و"مُني"، ابتلي وأصيب. ويريد الكاتب ب"العقد" التفاهم بعقد الأصابع. و"اللكنة": ثِقَل اللّسَانِ، والألْكن من يَلْفِظُ الكَلِمَاتِ بِصُعُوبَةٍ، بِهِ عُجْمَةٌ. و"الحُبْسَةُ": ثِقَلٌ في اللسانِ يَمْنَع من الإبانة.

يكونَ المتكلمُ في ذلك جهيرَ الصَّوْت، جاريَ اللسان، لا تَعترضه لُكْنة، ولا تقفُ بهِ حُبْسة، وأنْ يَستعمل اللفظَ الغريبَ، والكلمةَ الوَحشيَّةَ، فإن اسْتظهرَ للأَمر وبالغَ في النظر، فأَنْ لا يلحنَ فيرفع في موضع النصب، أو يُخطئَ فيَجيء باللفظةِ على غيرِ ما هيَ عليه في الوَضْعِ اللغويِّ، وعلى خلافِ ما ثَبتتْ به الروايةُ عنِ العرب.

وجملةُ الأمر أنَّه لا يَرى النقصَ يَدْخلُ على صاحبهِ في ذلك إلا من جهةِ نقصِه في علم اللغة، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مُسْتقاها العَقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِف لهم عنها، ورُفعتِ الحُجُب بينَهُم وبينَها، وأنها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزِّيَةُ في الكلامِ، ووجبَ أن يفضُلَ بعضُه بعضاً، وأن يبعدَ الشأْوُ في ذلك، وتمتدَّ الغايةُ، وَيعلوَ المُرتقَى، ويعزَّ المطلبُ، حتى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ، وإلى أن يخرج من طوق البشر. . . ".

ويحسن أن أختم هذا الفقرة من المبحث بما قاله مصطفى صادق الرافعي (1881–1937 م) – وهو أحد أمراء البيان العربي في هذا العصر– يتحدث عن منزلة البيان وحقيقته في الكتابة فيقول:

"لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها، يقيمها الكاتب على حدود، ويديرها على طريقة، مصيبًا بألفاظه مواقع الشعور، منيرًا بها مكامن الخيال، آخذاً بوزن، تاركًا بوزن؛ لتأخذ النفس كما يشاء وتترك. ونقل حقائق الدنيا نقلًا صحيحًا إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة في أسلوب، وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل، لوضعه. . .

فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب؛ ولكنه أداة في يد القوة المصورة لهذا الوجود، تُصوِّر به شيئًا من أعمالها فنًّا من التصوير. الحكمة الغامضة تريده على التفسير، تفسيرِ الحقيقة؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين، تبيين الصواب؛ والفوضى المائجة تسأله الإقرار، إقرار التناسب؛ وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلة بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل. ومن ذلك لا يخلق الملهم أبدًا إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية، وتتساقط منها بالمعاني. . ." . [31]

فصاحب المقالة البيانية لابد أن تكون له بصيرة نافذة يزيح بها الأستار عن حقائق الدنيا الخارجية، وبذلك ينكشف له عالمها الداخلي وما يموج به من أسرار ويلمع فيه من أفكار، فيعيش فيه هذه المعيشة التي تجعله يحمله إلينا بكل ما فيه من جمال.

ثالثا: البيانُ عند متأخري علماء البلاغة

ظل علم البيان عند البلاغيين السابقين يدل على الفصاحة والبراعة والبلاغة والبديع، ويكادون يُجمعون على أن "البيان هو الإفصاح عما في النفس من المعنى والأحاسيس". وبعد عصر الجرجاني بحث جمع من العلماء أمر البيان –بالتصنيف فيه أو تطبيق قواعده – وكان منهم محمود بن عمرو الزمخشري (ت/ 538هـ) في تفسيره "الكشاف"، وفخر الدين الرازي (ت/ 606 هـ) في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الاعجاز"، ونصر الله بن محمد ضياء الدين بن الأثير (ت/ ٦٣٧هـ) من أئمة البيان العربي، في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وأبي هلال العسكري

---

[31] "وحي القلم"، 13/1، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 2000 م.

(ت 395 هـ) صاحب كتاب "الصناعتين" (الشعر والنثر)، جمع فيه صاحبه واستوعب، ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره، وبدر الدين بن مالك (ت/ 686هـ)مؤلف "المصباح في اختصار المفتاح في المعاني والبيان" وهو ابن العلامة جمال الدين محمد بن مالك (600 هـ–672 هـ) صاحب الألفية المشهورة، ومحمد بن محمد التنوخي (من علماء القرن السابع) صاحب كتاب: "الأقصى القريب في علم البيان"، وكثير من علماء البلاغة والفصاحة غيرهم. ولعل من أشهرهم في هذا الطور أبا يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت/ 626 هج)، الذي ألف كتابه "مفتاح العلوم"، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه، وجعلها ثلاثة أقسام: المعاني –البيان– البديع.

وجاء جلال الدين الخطيب القزويني (ت/739هج)، فألف في البلاغة كتابيه: "تلخيص المفتاح" ثم "الإيضاح" ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح، وجمع فيه كثيرًا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح. وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها "الأطول" لعصام الدين ابراهيم بن عربشاه الحنفي (ت: ٩٤٣ هـ) "، و"المطول" لسعد الدين التَّفْتَازَانِي (ت/722هـ)، وشروح التلخيص وسواها . .

وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل. وكانت الفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر الجرجاني. وانتهت مراحل التأليف والابتكار في البلاغة وتدوينها تدوينًا كاملاً .

وتعريف علم البيان عند السكاكي هو:

"معرفة إيراد المعنى الواحد في طرائق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه"، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطإ في مطابقة الكلام لتمام المراد".[32]

وتقييد الاختلاف بالوضوح لتخرج الألفاظ المترادفة كليث وأسد وغضنفر، فإنها وإن كانت طرقا مختلفة لإيراد المعنى الواحد، فاختلافهما إنما هو في اللفظ والعبارة، لا في الوضوح والخفاء..

فالمعنى الواحد "كالجود" مثلًا، يمكنك إذا كنت ملمًّا بمسائل هذا الفن، عالمًا بأصوله وقواعده أن تؤديه بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

فتارة من طريق التشبيه، فتقول: "محمد كالبحر في جوده" فتلحقه به في هذا المعنى، مع ذكر كل أركان التشبيه، من مشبه ومشبه به وأداة تشبيه ووجه شبه.

وقد يتصرف الشاعر في معنى الجود مثلا، ويضمن كلامه زيادة وتفصيلا على وجه الشبه، تخرجه من الابتذال كما في المثال الأول. ومثل ذلك قول المتنبي مادحا:

كالبَحْرِ يَقذِفُ للقَريبِ جَواهِـراً   جُوداً ويَبْعَثُ للبَعيدِ سَحائِبَا

كالشّمسِ في كَبِدِ السّماءِ وضَوْؤها   يَغْشَى البِلادَ مَشارِقاً ومَغارِبَا

فيشبّهُ الممدوحَ بالبحر، ويدفعُ بخيالكَ إلى أن يضاهيَ بين الممدوحِ والبحرِ الذي يقذفُ الدرر للقريبِ، ويرسلُ السحائبَ للبعيد. وفي البيت الثاني يشبهه بالشمس بعيدة في كبد السماء ولكن ضوؤها يملأ مشارق البلاد ومغاربها. وهو يريدُ عمومَ نفعهِ للبعيدِ والقريب على حد سواء.

أو قول أَبي تمام في المعتصم بالله:

---

[32] مفتاح العلوم"، 329/1، تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407 هـ.

هو البحرُ منْ أيِّ النواحي أتيتَهُ فلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحلهُ

فيدَّعي أنه البحرُ نفسه، وينكرُ التشبيهَ نكراناً يدلُّ على المبالغةِ، وادعاءِ المماثلة الكاملة. واسمع الى قول الآخر:

علا فلا يستقرُّ المالُ في يده وكيفُ تمسكُ ماءً قنةُ الجبلِ

فيرسلُ إليكَ التشبيه: من طريقٍ خفيٍّ، ليرتفعَ الكلامُ إلى مرتبةٍ أعلى في البلاغة وليجعلَ لك من التشبيهِ الضمنيّ دليلاً على دعواهُ، فإنه زعم أنه لعلوّ منزلته ينحدرُ المالُ من يديه، وأقام على ذلك برهاناً فقال: وكيف تمسكُ قمة الجبلِ ماءً لارتفاعها ؟ و"السيل حرب للمكان العالي" كما قال أبو تمام.

– وتارة تعبر عن معنى الجود بطريق الاستعارة، فتقول: "رأيت بحرًا يداعب أقرانه" فتشبهه بالبحر في عموم خيره، ثم تستعير له لفظ البحر على سبيل الاستعارة التصريحية الاصلية.[33]

---

33 المجاز في البلاغة قسمان: عقلي ويكون في الإسناد. ولغوي ويكون في اللفظ. وعرفوا هذا الأخير بأنه: "استعمال كلمة في غير ما وُضعت له، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي". وهذا النوع من المجاز قسمان، تبعا للعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي.

1– فان كانت العلاقة هي المشابهة سميت استعارة، وهي أقسام نكتفي بنوعين كبيرين: المفردة والمركبة.

– المفردة هي ما كان المستعار فيها لفظا مفردا، ومنها التصريحية الأصلية (يصرح فيها بالمشبه به او المستعار منه اسما جامدا غير مشتق)، كقوله تعالى "اهدنا الصراط المستقيم" أي الدين القويم. (واعتصموا بحبل الله) أي بدينه. والتصريحية التبعية (يذكر المستعار منه فعلا) كقوله تعالى: "ولما سكتَ عن موسى الغضبُ"، شبه انتهاء الغضب عن موسى «بالسكوت» بجامع الهدوء في كل، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به وهو «السكوت» للمشبه وهو «انتهاء الغضب»، ثم اشتق من «السكوت» بمعنى انتهاء الغضب «سكت» الفعل بمعنى انتهى. وهذا الشاهد يصلح أيضا مثالا للاستعارة المكنية، وهي النوع الثاني من

وتارة عن طريق الكناية، وهي كل لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي. وتنقسم باعتبار المكني على الى أنواع ثلاثة: كناية عن صفة وكناية عن موصوف وكناية عن نسبة. ومثال الكناية عن صفة قول إحدى النسوة في حديث أم زرع المشهور: «زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ طَوِيلُ النِجَادِ عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ

أنواع الاستعارة المفردة إذا أجريت في قرينته المشبه به المحذوف. ومثله قوله تعالى: ﴿إنا لما طغى الماءُ حملناكم في الجارية﴾" بمعنى تجاوز حده، والطغيان من خصائص الانسان وليس المعاني المجردة. . .

– الاستعارة المركبة او التمثيلية، وهي: "تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" . كقول المتنبي يهجو من عاب شعره:

ومَن يك ذا فم مُرّ مريض يجدْ مرّا به الماء الزُّلالا

فهذا البيت يدل وضعه الأصلي أو الحقيقي على أنّ المصاب بمرارة في فمه إذا شرب الماء العذب وجده مرا . ولكن المتنبي استعمله فيمن يعيبون شعره لضعف ادراكهم. فهذا التركيب مجاز قرينته حالية، وعلاقته المشابهة، والمشبه هنا حال المولعين بذمه، والمشبه به حال المريض الذي يجد الماء الزلال مرا في فمه.

2– وإذا خلا المجاز اللغوي من علاقة المشابهة سمي مجازا مرسلا، وله علاقات كثيرة، من أشهرها:

– السَّبَبِيَّة: إذا ذكر لفظ السبب، وأريد المُسَبَّب. نحو: «لفلان عليَّ يدٌ» تريد النّعمة؛ لأنها سبب فيها .

– المسببية: إذا ذُكِرَ لفظ المسبب، وأريد السَّبب، نحو: "وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا"؛ أي: مطرًا . . .

– الكلّيّة: إذا ذُكر لفظ الكل وأريد منه الجزء، نحو: "يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ"؛ أي أناملهم. . .

– الجزئية: إذا ذُكر لفظ الجزء وأريد منه الكل، مثل قوله تعالى: "فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ" .

– الآليّة: إذا ذُكر اسم الآلة، وأريد الأثر الذي ينتج عنه، نحو: "وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"

– اعتبار ما كان: نحو: "وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ"؛ أي الذين كانوا يتامى، ثم بلغوا .

– واعتبار ما يكون: كقوله تعالى: "إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا"؛ أي عصيرًا يئول أمره إلى خمر.

–الحالية: ذكر الحال ويراد المحل، نحو: "فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" أي الجنة التي تحل فيها الرحمة.

–المحلية: إذا ذكر لفظ المحل وأريد به الحال فيه، كقوله تعالى: "فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ" والمراد من يحل في النادي.

التَّادِ». [34] معنى "رفيع العماد" كناية عن الشرف وسناء الذكر، أي بيته في الحسب رفيع في قومه، وكذلك "قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ" فالضيوف لا يجدون مشقة في العثور عليه حيث إنه أقرب البيوت الى نادي القوم الذي يجتمعون اليه. و"طويل النجاد" كناية عن طول القامة، لان الطويل يحتاج إلى طول النجاد وهي حمالة السيف، و"عظيم الرماد" كناية عن الجود وكثرة الضيافة، فإن كثرة الرماد تدل على كثرة إحراق الحطب الدالة على كثرة الطبخ، وهذه تدل على كثرة الأكلة، وهو دليل الكرم. [35]

ومثل الجود: "الشجاعة". فتارة يعبر عنها من طريق التشبيه باستعمال أدوات التشبيه كلها، فيقال: "محمد كالأسد في الشجاعة". أو تحذف أداة التشبيه ووجه الشبه (التشبيه البليغ) على حد قول المتنبي مادحا:

أسدٌ، دمُ الأسد الهِزبر خضابُه   موتٌ، فريص الموت منه يُرعد

[34] والحديث بطوله رواه الامام مسلم بعنوان "بَابُ ذِكْرِ حَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ" رقم (2448) بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. . ولغرابة ألفاظ الحديث ومعانيه شرحه جمهرة من العلماء، وعلى رأسهم القاضي عياض اليحصبي بكتابه القيم "بغية الرائد فيما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد".

35 – ومثال الكناية عن موصوف قول الشاعرِ في فضل دار العلوم في إحياءِ لغة العربِ:

وجدتُ فيكِ بنتُ عدنانَ داراً   ذكَّرتها بداوةَ الأعرابِ

يقول: اللغة العربية وجدت فيكِ أيتها المدرسة مكاناً يذكرها بعهد بدواتها، فعدل عن التصريح باسم اللغة العربية إلى تركيب يشير إليها ويعدُّ كناية عنها وهو بنت عدنان.

– ومثال الكناية عن نسبة قولك: "المجدُ بين ثوبيكَ والكرمُ ملءَ بُرديكَ". أردت أن تنسب المجد والكرم إلى من تخاطبه، فعدلت عن نسبتهما إلى ما له اتصال به، وهو الثوبان والبردانِ ٬وأظهر علامة لهذه الكناية أنْ يصرحَ فيها بالصفة كما رأيت، أو بما يستلزم الصفة، نحو: في ثوبيه أسدٌ، فإن هذا المثال كناية عن نسبة الشجاعة.

يقول: هو شجاع يتلطخ بدم الأسد الهزبر (من صفات الأسد، ويريد به المبالغة في الشدة) حتى يصير كالخضاب له. وهو موت لأعدائه فيخافه الموت وترتعد فرائصه، وهي لحمات عند الكتف تضطرب عند الخوف.

وتارة عن طريق الاستعارة، فيقال: "رأيت أسدًا يخطب القوم".

وتارة عن طريق الكناية، فيقال: "زارنا أبو الحرب" فإن أبوته لها كناية عن ملازمته إياها كما يلزم الأب ابنه، وهذا كناية عن شجاعته.[36]

وتقرأُ في بيانِ فضلِ العلمِ – مثلًا – قولَ الشَّاعر:

العلمُ يَنْهَضُ بالخَسِيسِ إلى العُلَا   والجَهْلُ يَقْعدُ بالفَتَى المَنْسُوبِ

وتقرأ للإمام الشافعي قوله في المعنى نفسه:

تَعَلَّمْ، فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عالِمًا   ولَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كمَنْ هو جاهِلُ

وهذا أحمد شوقي يقول:

قُمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيلا   كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي   يَبني وينشئُ أنفساً وعقولا

علة انحصار علم البيان في ثلاثة أقسام:

اللفظ المراد به لازم ما وُضع له: إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له مجاز، وإلا فهو كناية. ثم المجاز منه الاستعارة، وهي تبنى على التشبيه. فانحصر المقصود من علم البيان في أمور ثلاثة هي أبوابه او أقسامه: التشبيه، والمجاز، والكناية. وقُدم

---

36 "المنهاج الواضح للبلاغة"، 2/1 حامد عوني، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث. ب ت ط

التشبيه على المجاز؛ لابتناء الاستعارة – التي هي مجاز– على التشبيه، وقُدِّم المجاز على الكناية؛ لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل.

فأقسامُ علمِ البلاغةِ عند المتأخرين ثلاثة وهي:

علمُ البيان: وهو كما رأينا "علمٌ يُعرَف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفةٍ في وضوحِ الدّلالة عليه"، وأقسامه ثلاثة: التشبيه والاستعارة والكناية.

علمُ المعاني: وعرفه جلال الدين الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) بأنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال". وذلك احتراز من الأحوال التي ليست بهذه الصفة، مثل الإعلال والإدغام في علم الصرف، والرفع والنصب في علم النحو، وما أشبه ذلك مما لابد منه في تأدية أصل المعنى، وكذا المحسنات البديعية من التجنيس والترصيع ونحوهما، مما يكون بعد رعاية المطابقة. والمراد بأحوال اللفظ الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والنفي والحذف والذكر، وغير ذلك. ثم المقصود من علم المعاني منحصر في ثمانية أبواب:

أحوال الإسناد الخبري. وثانيها: أحوال المسند إليه. وثالثها: أحوال المسند. ورابعها: أحوال متعلقات الفعل. وخامسها: القصر. وسادسها: الإنشاء. وسابعها: الفصل والوصل. وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة.

علمُ البديع: وهو علمٌ يُعرَف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعايةِ تطبيقه على مقتضَى الحال ووضوحِ الدّلالة. وهذه المحسنات نوعان: نوع يرجع إلى اللفظ، ومنه: الجناس، والسجع والاقتباس والتضمين ورد العجز على الصدر... ونوع يرجع إلى

المعنى، ومنه: الطباق والمقابلة والتورية والمبالغة والغلو وحسن التعليل والمذهب الكلامي. . .الخ

رابعا: عِلمُ البَيان وعُلوم اللِّسَان

والبيان قسم واسع من علوم اللسان العربي الذي هو لسان الإسلام، وهو من العلوم المستحدثة التي استُفيدَت من استِقصاء العلماء، وتَتبُّعَهم أحوال كلام العرب، وما يكون في عُرفهم فصيحاً بليغا يوافق طِباعهم السليمة ويؤدي إلى أرَقّ المعاني وأجمعها.

ولا شك أن البلاغة ذات علاقة وثيقة بعلوم اللسان العربية الأخرى – فقه اللغة وغريبها والنحو والصرف – ولكن علم البلاغة اختص بأمر آخر هو: بيان مزية كلام على كلام وفضل أسلوب على أسلوب، وهذا شأن فوق اللغة والنحو، وقد بين ذلك بجلاء ابن الأثير (558 – 637 هـ) في كتابه القيم "المثل السائر" في الفصل الأول وعنوانه: "موضوع علم البيان" فقال: [37]

". . .وكذلك يجري الحُكم في كل علم من العلوم، وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ولم يختلط بغيره، وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه

[37] "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، القسم الأول، ص/37، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة.

وابن الأثير هو نصر الله بن محمد الشيبانيّ، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، الكاتب: وزير، من العلماء الكتّاب المترسلين. ولد في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه المؤرخ (علي) والمحدث (المبارك)، وتوفي ببغداد. كان قويّ الحافظة، من محفوظاته شعر أبي تمام والمتنبي والبحتري. ومن تآليفه المطبوعة –عدا المثل السائر– "الوشي المرقوم في حل المنظوم" و "الجامع الكبير" في صناعة المنظوم والمنثور و"البرهان في علم البيان " و"ديوان رسائل". .

يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، و هو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من حيثُ الوضعُ اللغوي، و تلك دلالةٌ عامةٌ، و صاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، و هي دلالة خاصة، و المراد بها: أن يكون على هيئة مخصومة من الحُسن، وذلك أمر وراء النحو و الإعراب، ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة، ومن ههنا غلط مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية، وتبيين مواضع الإعراب منها، دون شرح ما تضمنه من أسرار الفصاحة والبلاغة " .

ثم يتحدث ابن الأثير في "الفصل الثاني" عن "آلات علم البيان وأدواته" فيقول: "اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل: ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن يَنسُب نفسه إليه فيقول: فلان النحوي وفلان الفقيه وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول: فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن. وملاك هذا كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثَمّ طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً؛ ومثل ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يُقْدح (يشعل) بها؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً؟ وكثيراً ما رأينا وسمعنا من غرائب الطباع في تعلّم العلوم، حتى إن بعض الناس يكون له نفاذ في تعلم علمٍ مُشكل المَسلك صَعْب المأخذ، فإذا كلف تعلّمَ ما هو دونه من سَهل العلوم نَكَص (رجع) على عَقِبيه، ولم يكن له فيه نفاذ. وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون

الهجاء، أو في الهجاء دون المديح، أو يجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي، وكذلك صاحب الطبع في المنثور؛ هذا ابن الحريري صاحب المقامات (ت/510)؛ قد كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحدًا في فنه، فلما حضر بغداد ووقف على مقاماته، قيل: هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويحسن أثره فيه، فأحضر، وكلِّف كتابة كتاب، فأفحم، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة، فقال فيه بعضهم:

شيخٌ لنا من ربيعة الفَرس   ينتف عُثنونه من الهوَس

أنطَقهُ الله بالمَشان وقد   ألجمهُ في بغداد بالخَرس [38]

وهذا مما يعجب منه. وسئلت عن ذلك فقلت: لا عجب؛ لأن المقامات مدراها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص. وبلغني عن الشيخ أبي محمد [عبد الله بن] أحمد بن الخشاب النحوي رحمه الله، أنه كان يقول: ابن الحريري رجل مقامات، أي: إنه لم يحسن من الكلام المنثور سواها، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئًا.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور، ولهذا فإذا ركَّب الله تعالى في الإنسان طبعًا قابلًا لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات.. ". [39]

---

[38] ربيعة الفرس: هو ابن نزار بن معد بن عدنان، أبو قبيلة، سمي بذلك؛ وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس. والعثنون: اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين، وكان الحريري مولعًا ينتف لحيته عند الفكرة. والمشان: بليدة بعد البصرة كثيرة النخل، موصوفة بشدة الوخم، وكان أهل الحريري منها..

[39] وهذه الأنواع هي:

وعن النوع الأول من الآلات التي يفتقر اليها البليغ يقول ابن الأثير:

" أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي، ليأمن معرّة اللحن (الخطأ)، ومع هذا فإنه، وإن احتيج إليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام، فإن الواضع لم يخص منه شيئًا بالوضع، بل جعل الوضع عاما، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدوّنة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه في إفهام المعاني. ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له: قوم، بإثبات الواو ولم تجزم، لما اختل من فهم ذلك شيء، وكذلك الشرط لو قلت: إن تقوم أقوم، ولم تجزم، لكان المعنى مفهوما، والفضلات كلها تجري هذا المجرى، كالحال والتمييز والاستثناء. . . ".

الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف. الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكرهة المعيب. الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً. الرابع: الاطّلاع على تأليفات من تقدَّمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحفظ للكثير منه. الخامس: معرفة الأحكام السلطانية الإمامة، والإمارة والقضاء، والحسبة وغير ذلك. السادس: حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه. السابع: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي –صلى الله عليه وسلم، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال.

المبحث الثاني
البيَانُ والإعْجَاز

أولا: معنى الإعجاز وأنواعه

الإعجاز لفظٌ مأخوذٌ في اللغة من العجزَ؛ أي عَدم القدرة والاستطاعة، والمعجزة: سميت بذلك لأنها فعل يعجز البشر عن مثله، وليست من جنس مقدورهم. . والإعجاز القرآني معناه تفرّد القرآن الكريم وتميّزه بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة والبيان، بحيث يعجز البشر جميعهم عن الإتيان بحرفٍ من حروفه. يقول عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) مبينا سبب ذلك، وموضحا بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم: [40]

"اعْلَمْ أَنَّ الْمُعْجزَةَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مقرون بالتحدي سالم عن الْمُعَارَضَةِ، وَهِيَ إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ. وَأَكْثَرُ مُعْجزَاتِ بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ حِسِّيَّةً لِبَلَادَتِهِمْ وَقِلَّةِ بَصِيرَتِهِمْ، وَأَكْثَرُ مُعْجزَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَقْلِيَّةٌ لِفَرْطِ ذَكَائِهِمْ وَكَمَالِ أَفْهَامِهِمْ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ لَمَّا كَانَتْ بَاقِيَةً عَلَى صَفَحَاتِ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ خُصَّتْ بِالْمُعْجِزَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْبَاقِيَةِ لِيَرَاهَا ذَوُو البصائر كما قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[40] "الإتقان في علوم القرآن" 3/4–7، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: ١٩٧٤ م.

«مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا». [أخرجه البخاري]

قِيلَ إِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ انْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِ أَعْصَارِهِمْ، فَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا، وَمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَخَرْقُهُ الْعَادَةَ فِي أُسْلُوبِهِ وَبَلَاغَتِهِ، وَإِخْبَارِهِ بِالْمُغَيَّبَاتِ، فَلَا يَمُرُّ عَصْرٌ مِنَ الْأَعْصَارِ إِلَّا وَيَظْهَرُ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ سَيَكُونُ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ. وَقِيلَ الْمَعْنَى أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ الْوَاضِحَةَ الْمَاضِيَةَ كَانَتْ حِسِّيَّةً تُشَاهَدُ بِالْأَبْصَارِ: كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَعَصَا مُوسَى، وَمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ تُشَاهَدُ بِالْبَصِيرَةِ، فَيَكُونُ مَنْ يَتْبَعُهُ لِأَجْلِهَا أَكْثَرَ لِأَنَّ الَّذِي

يُشَاهَدُ بِعَيْنِ الرَّأْسِ يَنْقَرِضُ بِانْقِرَاضِ مُشَاهِدِهِ، وَالَّذِي يُشَاهَدُ بِعَيْنِ الْعَقْلِ بَاقٍ يُشَاهِدُهُ كُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الْأَوَّلِ مُسْتَمِرًّا . . .

وَلَمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ [العرب] وَكَانُوا أَفْصَحَ الْفُصَحَاءِ ومصاقع الْخُطَبَاءِ وَتَحَدَّاهُمْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَأَمْهَلَهُمْ طُولَ السِّنِينَ فَلَمْ يَقْدِرُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الْآيَةَ. ثُمَّ كَرَّرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ الْآيَةَ. فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَالْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ تشبهه على كثرة الخطباء فيهم وَالْبُلَغَاءِ نَادَى عَلَيْهِمْ بِإِظْهَارِ

الْعَجْز وَإِعْجَاز الْقُرْآن فَقَالَ: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ .

هَذَا وَهُمُ الْفُصَحَاءُ اللُّدُّ وَقَدْ كَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْفَاءِ أَمْرِهِ، فَلَوْ كَانَ فِي مَقْدِرَتِهِمْ مُعَارَضَتُهُ لَعَدَلُوا إِلَيْهَا قَطْعًا لِلْحُجَّةِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا رَامَهُ بَلْ عَدَلُوا إِلَى الْعِنَادِ تَارَةً وَإِلَى الِاسْتِهْزَاءِ أُخْرَى فَتَارَةً قَالُوا: "سِحْرٌ" وَتَارَةً قَالُوا: "شِعْرٌ" وَتَارَةً قَالُوا: "أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ التَّحَيُّرِ وَالِانْقِطَاعِ، ثُمَّ رَضُوا بِتَحْكِيمِ السَّيْفِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَسَبْيِ ذراريهم وَحَرَمِهِمْ، وَاسْتِبَاحَةِ أَمْوَالِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا آنَفَ شَيْءٍ وَأَشَدَّهُ حَمِيَّةً فَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ فِي قُدْرَتِهِمْ لَبَادَرُوا إِلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ. . .

وعن أوجه بلاغة القرآن وإعجازه البياني يقول الخطابي (319هـ – 388 هـ) [41]

"فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاءَ بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعًا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مَثُلات الله بمن

---

41 "بيان إعجاز القرآن"، ص/68، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

عصى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأَعصار الباقية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قُوى البشر، ولا تبلغه قدَرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله. ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأوه كلامًا منظومًا، ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه، غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعًا في القلوب وقرعًا في النفوس يُريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف..." .

إنّ القرآن الكريم إذن معجز من عدة وجوه: البياني والعلمي والتشريعي والإخبار بالمغيبات والمستقبليات، كما هو مبثوث في كتب علوم القرآن، ولكن الإعجاز البياني هو أبرز هذه الوجوه لأنه متحقق في كل آيات القرآن الكريم. ويُقصد به: إعجازه بكلماته وبألفاظه، وجمال أسلوبه ونظمه، وبلاغة تراكيبه، وترابط آياته، وتنوع أساليبه ما بين التقديم والتأخير، والنفي والإثبات، والحذف والذكر، والإيجاز الاطناب، والالتفات، والحقيقة والمجاز، والتخصيص والتعميم.. وغير ذلك من أوجه البيان كما هو مبسوط في كتب البلاغة وعلوم القرآن وكتب التفسير والأدب واللغة، مما جعله كتاباً خالداً لا يتّسم بِسِمات كلام البشر أبداً.

وقد أعجز الكتّاب والأدباء وشعراء العصر الجاهلي ومَن بعدهم إلى زماننا هذا وحتى قيام الساعة، وخير شهادة على بلاغة القرآن الكريم تلك التي تصدر من عدوّ.

فعن ابْنِ عَبّاس «أَنَّ الوَلِيدَ بْنَ المُغِيرَةِ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذلِكَ أَبا جَهْلٍ فأَتاهُ فقالَ: يا عَمّ إنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مالًا لِيُعْطُوكَهُ فَإنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لتَعرضَ لما قبلَهُ، قالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِن أَكْثَرِها مالًا، قالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كارِهٌ لَهُ. قالَ: وماذا أَقُولُ؟ فواللَّهِ ما فِيكم رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالشِّعْرِ مِنّي ولا بِرَجْزِهِ ولا بِقَصِيدِهِ مِنّي ولا بِأَشْعارِ الجِنِّ، واللَّهِ ما يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِن هَذا وواللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً وإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً وإنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ وإنَّهُ لَيَعْلُو وما يَعْلى وإنَّهُ لَيَحْطِمُ ما تَحْتَهُ، قالَ: لا يَرْضى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتّى تَقُولَ فِيهِ، قالَ: فَدَعْنِي حَتّى أُفَكِّرَ فَلَمّا فَكَّرَ قالَ: هَذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي ومَن خَلَقْتُ وحِيدًا﴾ [المدثر/ ١١] ».[42]

ثانيا: نظم القرآن العجيب وبيانه الفريد

قال السكاكي: "واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان)، نعم للبلاغة وجوه ملتثمة (مستترة) ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلي عليك. أما نفس وجه الإعجاز فلا. . . ".[43]

ولهذا الغرض أفاض علماء الإسلام في بيان خصائص القرآن الكريم البيانية على مر الأزمان، ونقتطف في الصفحات القليلة التالية بعضا مما سطره عَلَمان من أئمة العربية

---

42 "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" للسيوطي، 329/8، الناشر: دار الفكر – بيروت.

43 "مفتاح العلوم"، ص/416.

عن نظم القرآن العزيز، أحدهما قديم هو عبد القاهر الجرجاني والآخر معاصر هو مصطفى صادق الرافعي، والرجلان من خيرة من درس الإعجاز البياني تنظيرا وتطبيقا في نظري. . .[44]

أ– عبد القاهر الجرجاني (ت/471 هج) ونظرية النظم:

استطاع عبد القاهر الجرجاني –في عصر مبكر– أن يبرز كثيرا من صور الإعجاز البلاغي من خلال "نظرية النظم" التي خصص لها كتابه القيم "دلائل الإعجاز". ولا يفهم ذلك في نظره الا من كان مطلعا على خبايا النظم اللغوي في العربية والنحو منه خاصة، لذلك نجده يقول: [45]

"اعلم أنْ ليسَ "النظمُ" إلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ "علمُ النحو"، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه، وتعرفَ مناهجَه التي نُهجتْ فلا تزيغَ عنها، وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسمتْ لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها .

وذلك أَنَّا لا نَعلم شيئًا يبتغيهِ الناظمُ بنَظْمه غيرَ أنَ ينظرَ في وُجوهِ كلِّ بابٍ وفُروقِهِ، فينظرَ في "الخبرِ" إلى الوجوهِ التي تَراها في قولك: "زيدٌ منطلقٌ" و "زيدٌ يَنطلِقُ"، و "ينطلِقُ زيدٌ" و "منطلِقٌ زيدٌ"، و "زيدٌ المُنطلِقُ" و "المنطلِقُ زيدٌ" و "زيدٌ هوَ المنطلقُ"،

---

44 بعض الدارسين المعاصرين –سوى– الرافعي لهم جهد مشكور في ابراز جونب كثيرة من الإعجاز البياني القرآني نذكر منهم على سبيل المثال: أحمد بدوي في كتابه «من بلاغة القرآن»، وسيّد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»، وكتابيه: «التصوير الفني في القرآن» و «مشاهد القيامة في القرآن»، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «من روائع القرآن»، وعائشة عبد الرحمن في "التفسير البياني للقران" في جزأين، وغيرهم. .

45 "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، ص/ 81

وزيدٌ هو منطلِقٌ". وفي "الشرطِ والجزاء" إلى الوجوه التي تَراها في قولك: "إنْ تَخْرُجْ أَخرجْ" و "إنْ خرجْتَ خرجْتُ" و"إن تخرَجْ فأنا خارجٌ" و"أنا خارجٌ إن خرجتَ" و"أنا إنْ خرجْتَ خارجٌ" . . .

لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس".

ومن أجل ذلك يرفض الجرجاني أن تكون للكلمة المفردة مزية في نفسها، دون سلكها في نظم معين كما تنظم الخرزات او اللآلئ في سلك أو عِقد، فالتركيب وحده هو الذي يحدد جمال الكلام، وليس الألفاظ معزولة عن سياقها، كما كان شائعا بين الكتّاب قبل عصر الجرجاني، ولبيان صحة فكرته يقول:

"وهل قالوا: "لفظةٌ متمكِّنةٌ، ومقبولةٌ"، وفي خلافهِ: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسنِ الاتفاقِ بينَ هذه وتلك مِن جهةِ معناهُما، وبالقَلَق والنُّبوّ عن سوء التَلاؤم، وأنَّ الأُولى لم تَلقْ بالثانية في مَعناها، وأن السابقَةَ لم تصلُحْ أَن تكونَ لِفْقاً (قرينة) للتالية في مؤدِاها؟ وهل تشكُّ إذا فكَّرْت في قولِه تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: 44]، فتَجلَّى لك منها الإعجاز، وبَهرك الذي ترى وتَسْمَعُ أَنك لم تَجد ما وَجَدْتَ منَ المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لمر يَرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِم بعضِها ببعضٍ، وأن لم يَعرِضْ لها الحُسْنُ والشرفُ إلاّ مِنْ حيثُ لاقَتْ الأُولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريَها إلى آخِرِها وأنَّ الفضل تَناتَجَ ما بينها، وحصَل من مجموعها؟

إن شكَكْتَ، فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت منَ الفصاحة ما تُودِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟ قُل: "ابلَعي"، واعتبرْها وحْدَها من غيرِ أن تَنْظُرَ إلى ما قَبْلَها وما بعدَها، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها.

وكيفَ بالشكِّ في ذلك، ومعلومٌ أنَّ مبْدأَ العظمةِ في أن نُوديت الأرضُ، ثم أُمرَتْ، ثم في أن كان النداء "بيا" دُوْنَ "أيّ"، نحوُ "يا أيتها الأرضُ"، ثم إضافةِ "الماءِ" إلى "الكافِ"، دونَ أن يقالَ: "ابلعي الماء"، ثم أنْ أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرَها كذلك، بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: ﴿وَغِيضَ الْمَاء﴾، فجاء الفعلُ على صيغة "فُعِل" الدالَّةِ على أنَّه لم يَغِضْ إلاّ بأَمر آمرٍ وقُدرةِ قادر، ثم تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولِهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ثم ذكْرُ ما هو فائدةُ هذه الأُمور، وهو: ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، ثم إضمارُ "السفينةِ" قَبْل الذكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفَتَرى لِشيءٍ من هذه الخصائصِ التي تملكك بالإعجاز روعةً، وتحضُرُك عندَ تصورِها هيبةٌ تُحيطُ بالنفس من أقطارِها تعلّقاً باللفظ، من حيثُ هو صوتٌ مسموعٌ، وحروفٌ تَتوالى في النُّطق؟ أم كلُّ ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتّساقِ العجيب؟

فقد اتّضحَ إذن اتّضاحاً لا يَدَعُ لِلشكِ مجالاً، أنَّ الألفاظَ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كَلِمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ."

ويزيد هذا المعنى وضوحا بأمثلة من بيان القرآن الكريم فيقول في موضع آخر: [46]

[46] "دلائل الإعجاز"، ص/ 402 وما بعدها.

"وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿واشْتَعَل الرأسُ شَيْبًا﴾ (مريم/4) أنها في أعلى مرتبة من الفصاحة، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها "الرأس" معرفا بالألف واللام، ومقرونا إليهما "الشيب" منكّرا منصوبا . . . أفلا تَرَى أنه لا يقَعُ في نفسِ مَن يَعْقِلُ أُدنى شيءٍ، إذا هو نظَرَ إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون/ 4]، وإلى إكبارِ الناس شأْنَ هذه الآيةِ في الفصاحة، أن يضَعَ يدَهُ على كلمةٍ كلمةٍ منها فيقول: "إنها فصيحة؟ "كيفَ؟ وسبَبُ الفصاحةِ فيها أمور لا شك عاقلٌ في أنها معنويَّةٌ:

أوَّلُها: أنْ كانت "على" [الحرف] فيها متعلقةً بمحذوفٍ في موضِع المفعولِ الثاني.

والثاني: أنْ كانت الجملةُ التي هي "هُم العدوُّ" بعْدَها عاريةً من حرفِ عطفٍ.

والثالث: التعريفُ في "العدوّ" وأنْ لم يقل: "هُمْ عدوٌّ".

ولو أنك علَّقْتَ "على" بظاهرٍ، وأدخلْتَ على الجملة التي هيَ "همِ العدوُّ" حرف عطف، وأسقطت "الألف واللام" من "العدو" فقُلْتَ: "يحسَبُون كلَّ صيحةٍ واقعة عليهم، وهُمْ عدوٌّ"، لرأيتَ الفصاحةَ قد ذهبتْ عنها بأَسْرِها، ولو أنك أَخْطَرْتَ ببالِكَ أنْ يكونَ "عليهم" متعلّقاً بنَفْس "الصَّيحة"، ويكونَ حالُه معها كحالِه إذا قلتَ: "صِحْتُ عليه". لأخرجْتَه على أنْ يكونَ كلاماً، فضْلاً عن أن يكونَ فصيحًا . . ".

ب: الرافعي وبيان إعجاز القرآن

في بداية حديثه عن القرآن الكريم وإعجازه يمهد الرافعي [47] بمقدمة بليغة –عهدناها في أسلوب هذا الكاتب البارع– عن الكتاب الشريف، نقتطف منها ما يلي:[48]

" آيات مُنزَلَة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب، بل الجند الإلهي قد نُشر له من الفضيلة علم، وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليه "أعراف" الضمائر فابتز "أنفالها". وكم صدوا عن سبيله صدا، ومن ذا يدافع السيل إذا هدر؟ واعترضوه بالألسنة ردا، ولعمري من يرد على الله القدر؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب، وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب، فما كان إلا نور الشمس: لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يضع منه قطرة في سقائه، ويلقي الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ثم لا يزال النور يتبسط على غطائه. . .

---

47 مُصْطَفى صادق الرَّافِعِي (1881 – 1937 م): عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب على مر العصور. أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقيّ الديباجة، على جفاف في بعض جوانبه. ونثره من الطراز الأول. له (ديوان شعر) ثلاثة أجزاء، و (تاريخ آداب العرب) ثلاثة أجزاء، الجزء الثاني طبع منفردا باسم "اعجاز القرآن والبلاغة النبوية" و (رسائل الأحزان في فلسفة الحب والجمال) و (على السفود) رد على العقاد، و (وحي القلم)، و (ديوان النظرات) و (السحاب الأحمر) و (حديث القمر) و (تحت راية القرآن) في الرد على كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي"، و (المساكين) و (أوراق الورد) . . . وقد عشت مع هذا الكاتب العظيم سنوات، حينما ألفت عن أدبه دكتوراه دولة في الأدب عنوانها: "شاعرية مصطفى صادق الرافعي: دراسة في مقوماتها وبعض مظاهرها".

47 "تاريخ آداب العرب" 21/2، دار الكتاب العربي.

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها وتصف الآخرة فمنها جنتها وصرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب. ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان. . .

توهموا السحر ما توهموه، فلما أنزل الله كتابه قالوا: هذا هو السحر المبين، وكانوا يأخذون في ذلك بباطل الظن فأخذوا هذا بحق اليقين ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ومن الشعر ما تسمعونه أم أنتم لا تسمعون؟ بل إنه لسحر يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته، وينفذ حتى ينصرف بين القلب وإرادته، ويجري في الخواطر كما تصعد في الشجر قطرات الماء، ويتصل بالروح فإنما يمد لها بسبب إلى السماء، وإنه لسحر، إذ هو ألحاظ لم تعهد كلم أحداقها، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها، ونور عليه رونق الماء فكأنما اشتعلت به الغيوم، وماء يتلألأ كالنور فكأنما عصر من النجوم1، وبلى إنه لشعر ولكن زنة مبانيه في معانيه، وزينة معانيه في مبانيه، فكل معنى ولا جرم من بحر، وكل لفظ كلؤلؤة في النحر، وإنه لشعر، إذ هو آيات لا يجانس كلامها البديع غير كمالها، وحقيقة في الوجود لم يكن يعرف غير خيالها، ومرآة في يد الله تقابل كل روح بمثالها . . . ".

وأسلوب القرآن –باعتباره من أوجه الإعجاز بالغة الخطورة– يرى الرافعي بأنه: [49]

[49] "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، ص: 188، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م. وانثلم السيف وتثلم: فُلّ، وانتضي: أُخرج من غمده.

«مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا هو معجز وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزا، وهو الذي قطع العربَ دون المعارضة فيه و اعتقلهم عن الكلام فيها و ضربهم بالحجة من أنفسهم و تركهم على ذلك يتلكأون، ثم هو الذي مثّل لهم اليأس قائما لا يتصل به الطمع و صور لهم العجز غالبا لا تنال منه القدرة فأحرز طباعهم في ناحية من الضعف و الاستكانة حتى كأنها غير طباعهم في تثلمها (كسرها) بعد انتضائها (إخراجها) وتراجعها بعد مضائها ...».

وعن تأثير القرآن الكريم في اللغة العربية يقول الرافعي: [50]

"نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معًا: فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض وإنما كان ذلك؛ لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجزاها في ظاهرها على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها الحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة الدقيقة في تقلب الأساليب، وتحول التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهرًا لا يقضى العجب منه؛ لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم

50 "تاريخ آداب العرب"، 51/2 وما بعدها..

يقال: فلان يمضغ الشيح والقيصوم، إذا كان عربيا خالص البداوة. وهما نبتتان من نبات البادية..

صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة. . . ".

وللرافعي مباحث طريفة عن اعجاز القرآن وبيانه، فهو يرى أن سر الإعجاز يكمن في النظم، وأن لهذا النظم ما بعده؛ وأن جهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات، والجُمل. ونكتفي في الأسطر القليلة بشيء مما قاله عن سر البيان في ألفاظ القرآن: [51]

"ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة:

من ذلك لفظة "النذر" جمع نذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معًا، فضلًا عن جسأة هذه الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا

---

[51] "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، ص/157.

بِالنُّذُرِ﴾، [القمر/ 36] فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع القلقلة في دال "لقد"، وفي الطاء من "بطشتنا" وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو "تماروا"، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من "تماروا" فإنها ما جاءت إلى مساندة لراء "النذر" حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون "أنذرهم" وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في "النذر".

وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبًا في موقعه والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدم فيه النظر، وأحكمته الروية وراضه اللسان، وليس منها إلا متخير مقصود إليه من بين الكلم، ومن بين الحروف، ومن بين الحركات. وأين هذا ونحوه عند تعاطيه، ومن أي وجه يلتمس وعلى أي جهة يستطاع، وكيف يأتي للإنسان في مثل تلك الآية وحدها –فضلاً عن القرآن كله– وهو لا يكون إلا عن نظر وصنعة كلامية؟

والبليغ من الناس متى اعتسف هذا الطريق ولم يكن في الكلام إلى سجيته وطبعه، فقد خذلته البلاغة واستهلكته الصنعة، وضاق به التصرف، وتناثرت أجزاء كلامه من جهاتها، وكلما لجّ في المكابرة لجت البلاغة في الإباء، فمثله كمن يمشي مستديرًا

ويحسب أنه يتقدم؛ لأنه –زعم– لم يحرف وجهه ولم ينفتل عن قصده؛ ولأن نظره ما يزال ثابتًا فيما يستقبله! . . .

إنما تلك طريقة في النظم قد انفرد بها القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة أو يجعل طريقة عليها . فإن اتفق له شيء منه كان إلهامًا ووحيًا، لا تقتحم عليه الصناعة، ولا يتيسر له الطبع بالفكر والنظر، وكان مع ذلك لا يخلو من التواء ومن مغمز على أنه يكون جملة من فصل أو عبارة من جملة أو بيتًا من قصيدة أو شطرًا من بيت، لا يطرد ولا يستوي وليس إلا أن يتفق اتفاقًا؛ أما أن يتهيأ لأحد من البلغاء في عصور العربية كلها من معارض الكلام وألفاظه، ما يتصرف به هذا التصرف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضربًا موسيقيا، وينظم نظمًا مطردًا، ويهدف الكلمة الكلمة وينصب الحرف للحرف، ويعصب الحركة بالحركة، ويجري بعضاً من بعض، فهذا إن أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان، فهو لغو من إحدى الجهتين، ولو أن ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرنًا . . .

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة "ضيزى" من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء؛ فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام

بنات الله مع أولادهم البنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم/ 21–22] فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى؛ وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

والعربُ يعرفون هذا الضربَ من الكلام، وله نظائرُ في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسياً، وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس.

المبحَث الثالث

البلاغةُ وصفتُها عند العَرب

أولا: مفهوم البلاغة عند القدماء

كان مفهوم البلاغة عند القدماء واسعاً، وتدل تعريفاتهم الكثيرة على أنها تشمل القول البليغ والبراعة والبديع والبيان والفصاحة أحيانا -كما سبقت الى ذلك الإشارة- لأن الفصاحة مأخوذة من قولهم: "أفصح اللبن" إذا أخذت عنه الرّغوة. وقالوا: لا يسمّى الفصيح فصيحا حتى تخلص لغته عن اللّكنة الأعجميّة ولا توجد الفصاحة إلا في العرب. وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في المعاني، ويستدّلون بقولهم: لفظ فصيح، ومعنى بليغ. ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد في الألفاظ والمعاني والأكثرون عليه، ولم يفرق بينهما الا في القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي والخطيب القزويني ومن سار على دربهم كما سنرى قريبا .

أمثلة مما عرّفوا به البلاغة قديما: [52]

- قيل لعمرو بن عُبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بَلَّغك الجنَّة، وعَدَل بِك عن النار، قال السائل: ليس هذا أُريد قال: فما بَصَّرك مواضعَ رُشْدك، وعواقبَ غَيِّك؛ قال: ليس

---

[52] البيان والتبيين" 112/1 . و"العقد الفريد" لأحمد ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) 42/2، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ. و"نهاية الأرب في فنون الأدب" 7/7 لأحمد شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ) دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ . . .

هذا أريد؛ قال: مَن لم يحسن أن يسكت لم يُحسن أن يَسمع؛ ومَن لم يُحسن أن يَسمع لم يحسن أن يسأل، ومَن لم يُحسن أن يَسأل لم يُحسن أن يقول: قال: ليس هذا أُريد؛ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّا معشر النبيين بِكَاء" أي قليلو الكلام – جمع بَكيء– وكانوا يكرهون أن يَزيد مَنْطق الرجل على عَقْله؛ قال السائل: ليس هذا أريد ؟ قال: فكأنك تُريد تَخَيُّر الألفاظ في حُسْن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنك إن أردتَ تَقْرير حُجَّة الله في عُقول المُكَلَّفين، وتخفيف المَؤونة على المُسْتمعين، وتَزيين المعاني في قُلوب المستفهمين بالألفاظ الحَسنة رغبةً في سُرعة استجابتهم، ونفْي الشواغل عن قلوبهم بالمَوْعظة الناطقة عن الكتَاب والسُّنَّة، فقد أُوتيت فَصْلَ الخِطاب.

– وسمع خالدُ بن صَفْوان رجلاً يتكلّم ويُكثْر فقال: اعلمْ رحمكَ الله أن البلاغة ليست بخفّة اللسان، وكَثْرة الهَذَيان، ولكنها بإصابَة المَعْنى، والقَصْدِ إلى الحُجَّة.

– وتكلّم رَبيعة الرَّأي يوماً فأكْثر –وأُعجب بالذي كان منه– وإلى جَنْبه أعرابيٌّ، فالتفتَ إليه، فقال: ما تَعُدّون البلاغةَ يا أعرابيّ؟ قال: قِلّة الكلام وإيجاز الصواب، قال: فما تَعُدّون العِيّ؟ قال: ما كنتَ فيه منذ اليوم، فكأنما أُلْقمه حَجراً.

– ومن أمثالهم في البلاغة قولُهم: "يُقِلّ الحَزَّ ويُطبق الْمِفْصل". وذلك أنّهم شَبّهوا البَليغ المُوجز الذي يُقل الكلام، ويُصيب الفُصول والمَعاني، بالجزّار الرَّفيق يقل حَزّ اللَّحم ويُصيب مَفاصله.

ومثْله قولُهم: "يَضع الهِناء مواضعَ النُّقب" أي لا يتكلّم إلا فيما يجب فيه الكلامُ، مِثْل الطَالِي الرَّفيق الذي يضع الْهِناء مواضع النُّقب. والهناء؛ القطران. والنُّقب: الجَرَب.

– وقيل لأعرابيّ: مَن أَبلغ الناس؟ قال: أَسْهَلهم لَفظاً وأَحسنهم بَديهة.

– وقيل ما البلاغة؟ فقال: نَشر الكلام بمعانيه إذا قَصُر، وحُسْن التأليف له إذا طال.

– وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غَيْر عَجْز، والإطناب في غَيْر خَطَل.[53]

---

[53] جاء في "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرماني (باب الإيجاز):

الإيجاز: تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز. والإيجاز على وجهين: حَذف، وقِصر. فالحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر: بِنيةُ الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.

– فمن الحذف قوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ ومنه ﴿ولكن البر من اتقى﴾، ومنه ﴿براءة من الله﴾، ومنه ﴿طاعة وقول معروف﴾. ومنه حذف الأجوبة، وهو أبلغ من الذكر، وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ كأنه قيل: لكان هذا القرآن. ومنه ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ كأنه قيل: حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير. وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان، فحذف الجواب في قولك: لو رأيت عليًا بين الصفين، أبلغ من الذكر لما بيناه.

– وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضاً، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح، فمن ذلك: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾. ومنه ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾، ومنه ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ ومنه ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾. ومنه ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ومنه: ﴿ولا يحيق المكر السيئُ إلا بأهله﴾. وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير.

– (الإطناب): زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. كقول سيدنا ﷺ موسى وسئل عما في يده: (قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أُخرى) فجاء بجواب زائد عن السؤال لأنه يتنعم بحضرة الله العزيز ويأنس به.

- وقال جَعفر بن محمد: سُمّي البليغ بليغاً لأنه يَبلغ حاجتَه بأَهْوَن سعيه.

- وقيل: إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عِيّ، وإنما يَحْسُن الإيجاز إذا كان هو البَيان.

- وقيل: البلاغةُ مَعْرفة الفَصْل من الوَصْل، وأَحْسن الكلام القَصْد وإصابة المعنى[54].

وقال أحد الشعراء:

وإذا نَطقتَ فلا تكن أَشِراً واقصِدْ، فخيرُ الناس مَن قَصَدَا

وقال شاعر آخر:

الدَّهرُ يَنقص تارةً و يَطولُ والمَرْءُ يَصْمت مَرّةً ويَقُول

والقولُ مُخْتلفٌ إذا حَصَّلته بَعْضٌ يُرَدّ وبَعضُه مَقْبول

أما تأدية المعنى بعبارة أكثر منه بلا فائدة فهو التطويل، ان لم تتعين الزيادة. ويسمى حشوا ان كانت الزيادة متعينة. وللإطناب مواضع كثيرة جدا منها: التكرار، والتكميل، وعطف الخاص على العام وعكسه، والتنويه بشأن المخاطب، والتذييل، والتوكيد . . . (يرجع في معرفة تفاصيل ذلك الى كتب البلاغة).

54 – الوَصلُ عِندَ البلاغيينَ: عَطفُ جُملةٍ عَلَى أخرَى بالواو، بحيث يكون بينهما جهة جامعة، ولا يوجد مانع للوصل، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾، وقوله: ﴿فَلْيَضْحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا﴾.

- والفصل تَرْكُ هذا العطف، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فصلت جملة "ادْفَعْ" عن الجملة التي قبلها، بينما لو قيل: "وادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" لما كان الكلام بليغاً لاختلاف الجملتين خبرا وانشاء.

وللفصل والوصل مَوَاضِعُ خاصةٌ تعرف في مظانها من كتب البلاغة.

ثانيا: تطور البحث في البلاغة العربية [55]

مرّ علم البلاغة بمراحل مختلفة إلى أن تحدّدت معالمه، واستُقرِئَت قواعده، وقد مثّلَ كلَّ مرحلة من هذه المراحل عددٌ من الدارسين المبرّزين الذين أَسهموا في تأسيس العلم وتطويره، واجتهدوا في وضع النظريات والتصوّرات والمصطلحات التي تخصّه وتحدّه.

– المرحلة الأولى: العناية بتسجيل الملحوظات

ومثّلها عددٌ من الأدباء والعلماء الأعلام منهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى (208هـ)، صاحب كتاب " مجاز القرآن". والجاحظ (255هـ)، في مؤلفاته العديدة، كالبيان والتبيين، والحيوان، ورسائل الجاحظ وغيرها، وابن قتيبة (276هـ) في تأويل مشكل القرآن، ومشكل الحديث، والشعر والشعراء، وأدب الكاتب، والمبرد (285هـ) في "الكامل"، وغيرهم من العلماء.

– المرحلة الثانية: وضع الدراسات ذات الطابع الأدبي والعلمي المميّز

وقد ظهر في رحابها عددٌ من الدارسين والنقاد البارعين، منهم من عُنِيَ بدراسة الإعجاز القرآني مع السعي إلى الكشف عن خصائصه اللغوية من أمثال ابي الحسن الرماني (386هج)، وحمد بن إبراهيم الخطّابي (388 هج)، وأبو بكر الباقلاني (403 هج)، الذين ألفوا في الإعجاز، ومنهم من عُني بدراسة الأدب و النقد بصورة عامة

---

[55] ارجع الى ما دونه الدكتور شوقي ضيف في كتابه: "البلاغة تطور وتاريخ" عن الأدوار التي تقلب فيها الدرس البلاغي منذ الجاهلية الى القرن العشرين، وفئات العلماء والشعراء واللغويين وأهل الكلام والأدباء الذين أسهموا بجهود مختلفة في بناء صرح هذا العلم الجليل. وارجع كذلك الى بعض ما قلناه عن نشأة علم البيان في الصفحات السابقة. .

مثل عبد الله بن المعتز (296 هج)، وهو أول من ألف في البلاغة كتابا سماه: "البديع"، و قدامة بن جعفر (337 هج) في كتابه "نقد الشعر" الذي أفاد من المنطق الأرسطيّ حتى عيب عليه بأنه أراد أن يهندس الشعر العربيّ، في ضوء تعريفه الشهير له على أنه: "قول، موزون، مقفّى، يدلّ على معنى" . وابن سنان الخفاجي (466 هـ) من خلال مؤلفه "سر الفصاحة"، وأبي هلال العسكري (395 هـ) مؤلف "كتاب الصناعتين"، و"ديوان المعاني" وغيرهما . وعرف العسكريّ بنظريته في اللفظ كما لو كان كلامه توكيداً لنظرية الجاحظ، حيث قرّر الاهتمام بجانب اللفظ، "والعناية بالشكل الخارجيّ للشعر الذي هو في رأيه مجال الحكم، وميدان الجودة، والبراعة في الفنّ" . [56] ومنهم الآمدي (370 هج) الذي اشتهر بمنهجه في النقد التحليلي، وكان كتابه "الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري" أوّل كتاب في نقد النصوص وتحليلها في نظر معظم الدارسين الذين عنوا بهذا الناقد ومنهجه؛ لأنّ الذين سبقوه لم يهتموا بهذا الجانب كما هو الشأن عند ابن سلاّم الجمحيّ (ت/232 هج) في "طبقات فحول الشعراء"، وعبد الله بن قتيبة الدِّينَوَرِيُّ (213 – 276 هج) في "الشعر والشعراء"، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، وعبد الله ابن المعتز في كتاب البديع" . ولعلّ أكثر الفصول خصوبة في كتاب الموازنة، وأغناها بالتحليل والدراسة التطبيقيّة، تلك التي تناول فيها الآمدي عيوب الشاعرين وأخطاءهما في الألفاظ والمعاني، وتلك التي تعرّض فيها لقبيح الاستعارة والتشبيه وألوان البديع عندهما، وعلى الأخصّ عند أبي تمام، ففي هذه

---

[56] "قضايا النقد الأدبيّ بين القديم والحديث"، محمد زكيّ العشماوي، ص/ 266– دار النهضة العربيّة – بيروت، طبعة 1404م.

الفصول دون سواها، يتّجه الآمدي إلى النقد التحليليّ، وإلى الشرح والتفسير، وتمييز الجيّد من الشعر، ثم تحليل الأحكام وتأييدها بالحجج". [57]

وظهر القاضي الجرجاني (ت/392 هج) فألّف "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، متحدّثاً فيه عن عوامل الإبداع في الشعر. [58] كما ناقش خصوم المتنبي ليتوصّل في النهاية إلى إقرار الحكم لصالح شاعر العربيّة الأكبر بوساطة أدلّة وبراهين قاطعة.

– المرحلة الثالثة: ازدهار الأبحاث البلاغية

وقد أفادت كثيرًا من الدراسات التي سبقتها، وأضافت إلى علم البلاغة نظرات جليلة، ونظريات جديدة كان لها الفضل في تأسيس هذا العلم وصياغته وتطوّره مضمونًا ومنهجًا وأسلوبًا، ومثّل هذه المرحلة خير تمثيل شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (471 هج) في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة"، ووضع "نظرية النظم" الشهيرة، حيث قرر ان المزية في الكلام ليست في اللفظ وحده و لا في المعنى وحده بل في التكامل بينهما حينما يعرضان في أحسن صورة من التأليف أو النظم، كما لا ينبغي ان تهمش الدّلالة أو المدلول، وإنّما توجد وحدة بينهما؛ كما قرّر أنّ الفكرة لا تكون فكرة غير مسموعة، فنحن حينما نفكر ونحن نيام إنّما نفكر بالألفاظ، وكذلك عندما تخرج الألفاظ من أفواهنا لا يمكن أن تكون مجرّد أصوات لا معنى لها، وإلا كنا مجانين، وكذلك الحال في الأدب، فليس ثمّة فكر سابق على التعبير الأدبي،

---

57 السابق. ص/368.

58 الوساطة بين المتنبي وخصومه"، ص/34، تحقيق: علي البجاوي و أبو الفضل إبراهيم– ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه– مصر. د. ت: د. ط.

فمتى ما نضجت التجربة والإحساس في ذات الأديب خرجت في صورة لفظيّة، أما قبل إخضاع الإحساس للفظ فلا شيء هناك [59].

-المرحلة الرابعة: العناية بتحديد المصطلحات وصياغة القواعد النهائية

ومثّل هذه المرحلة خير تمثيل أبو يعقوب السكاكي (626هـ) في كتابه "مفتاح العلوم"، وتلميذه جلال الدين الخطيب القزويني (739هـ)، الذي لخص كتابي الجرجاني والسكاكي في مؤلف سماه "التلخيص"، ثم شرحه بكتاب "الإيضاح". ومع أنّ أغلب الدراسات استمرت بعد ذلك في السير على ما قرّره السّكاكيّ والقزويني، إلاّ أنّ هذه المرحلة عرفت بعضاً من العلماء المجدّدين الذين أضافوا إلى الدرس البلاغي من النظرات والأفكار ما لا يمكن إنكاره، من أمثال ضياء الدين بن الأثير (637 هـ)، في "المثل السائر" وغيره، وحازم القرطاجنّي (684 هـ)، في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، ويحي بن حمزة العلوي اليمني (749هـ) في مؤلفه الفريد" الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ".

إنّ البحث في تطوّر علم البلاغة قد يوصل الباحث إلى تبني جملة من الآراء والرؤى بشأن تنوّع مناهج البلاغيين في تناول الدرس البلاغي عبر تلك المراحل، وسيلحظ أنّ مرحلة النظم التي مثّلها عبد القاهر الجرجاني هي محور الدراسات البلاغية التي جاءت بعد ذلك على التّالي، وهي الأصل الذي نبتَ فيه علم البلاغة إلى أن استوى عوده واستقام، وسيلحظ -أيضاً- أنّ المرحلة الرابعة مرحلة غنيةٌ بدارسي البلاغة من الأعلام الذين كانت لهم إضافات جليلة، ولا سيّما تلك

59 "قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث"، ص289.

الإضافات التي هدفت إلى تيسير البلاغة لدارسيها في بيئاتها المختلفة، وسَعت إلى إيضاح مشكلاتها، وصياغة مصطلحاتها العلمية بعد الاستفادة من ذلك التطوّر الكبير في مجالات العلوم المختلفة، فضلاً عن التجديد في الشواهد والنصوص والاهتمام بدراستها وتحليلها، ولهذه الإضافات في الدراسات البلاغية المتأخرة أهمّيتها التي لا يمكن إهمالها، أو تجاوزها حين النظر في تاريخ تطوّر البلاغة عبر عصورها وبيئاتها المختلفة، مع مراعاة الظروف والأسباب التي رافقت ذلك التطوّر. [60]

ثالثا: أهمية البلاغة في فهم النصوص والوقوف على أسرارها

1- البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال:

البلاغة تعني في اللغة العربية البلوغ، فهي كلمة مشتقة من فعل "بلغ"، أي وصل الى الشيء وانتهى اليه، وحين نصف شخصا بالبلاغة نقصد انه فصيح اللسان، ينتقي كلماته بحيث تصل الى المخاطب بسهولة ووضوح فتؤثر فيه.

وقد مرت بنا أقوالٌ متعددة فسرتِ البلاغة ببعض أنواعها أو أغراضها أو ما يرجى من نفعها، أما تعريفها عند العلماء اليوم فهو: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"، وشرطوا لها شروطا كثيرة، بعضها يرجع الى الكلمة وبعضها الآخر يعود الى المتكلم وقسموها الى أبواب ثلاثة، سموها علوما: هي المعاني والبيان والبديع. [61]

---

60 "تيسير البلاغة في كتب التراث"، د. محمد بن عيسى باطاهر.

61 يرجع في ذلك الى كتاب "التلخيص" للخطيب القزويني وشروحه الكثيرة، ومنها شرحه هو المسمى "الإيضاح"، و "مختصر سعد الدين التفتازاني"، و"مواهب الفتاح" لابن يعقوب المغربي، و"عروس الافراح" لبهاء الدين السبكي.

ولما كانت أحوال الكلام مختلفة وأحوال المخاطبين به مختلفة كذلك، وجب مراعاة هذه الخصوصية في الحالين جميعا حتى يتم المراد من الكلام، ولذلك قيل: "لكل مقام مقال"، وجاء في حديث: «أُمرنا أن نخاطب الناسَ على قدر عقولهم» وهو لا يصح مرفوعًا، ولكن روى البخاري من كلام علي ﷺ أنه قال: "حدثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّب الله ورسولُه؟". وذكر الامام مسلم (٢٠٦ –٢٦١ هـ) في مقدمة صحيحه أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً» [62]، ومراد الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما ضرورة مراعاة عقول الناس وأفهامهم في تعليمهم ووعظهم. فكم يعيب خطيب الجمعة – مثلا– أن يحدث المصلين عن الذّرة وأسرارها، والكواكب وأبراجها، والأرض ودورانها، والعلوم ومعارفها، والقوم أغلبهم لا يقرءون ولا يكتبون. .

ويحدثنا الجاحظ عن صحيفة هندية تبين أهمية المطابقة في الخطاب، ومنها: [63]

ولما كان هذا التأليف في علم البلاغة وتوابعها انحصر مقصوده في ثلاثة فنون، وكثير من الناس يسمي الجميع علم البيان، وبعضهم يسمي الأول علم المعاني ويسمي الأخيرين: علم البيان، والثلاثة علم البديع.

أما تسمية الأول بالمعاني فلتعلقه بالمعنى، لأن به الاحتراز عن الخطأ في المعنى. وتسمية الثاني بالبيان فلتعلقه بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لأجل بيان المعنى وإيضاحه. وأما تسمية الثالث بالبديع فلبحثه عن المحسنات، ولا شك في بداعتها وطرافتها. وأما تسمية الفنون الثلاثة بالبيان فلأن البيان هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير، ولا شك في تعلق الثلاثة به تصحيحا وتحسينا. وأما تسمية الفنين الأخيرين بالبيان فلتغيب حال الفن الثاني على الثالث والأول بالمعاني لما تقدم، وأما تسمية الفنون الثلاثة بالبديع فلأنه لا خفاء في بداعتها وطرافة لطائفها.

[62] ينظر: ج1/ص 11، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية: – القاهرة.

[63] "البيان والتبيين"، 96/1.

"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما . . . ومدار الأمر على أفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقّ في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها، آمنها فأودعها تهاون الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل" .

وكان إمام البيانيين ﷺ الذي آتاه ربه جوامع الكلم يراعي هذه الخصوصية عند مخاطبة الناس رجالا ونساء، علماء وجهالا، كبارا وصغارا . فقد روى البخاري في "الأدب المفرد" عن أنس ﷺ قال: "كنت خادمًا للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: فكنت أدخل بغير استئذان، فجئت يوما، فقال: "كما أنت يا بني، فإنه قد حَدث بعدك أمر، لا تدخلن إلا بإذن"، [الحديث/ 807] فقد علمه الرسول ﷺ الاستئذان بأحسن لفظ وأيسره، وناداه يا بني تلطيفاً له.

وعن أَنَسَ أيضا قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَالِطُنَا، حَتَّى كَانَ يَقُولُ لِأَخٍ لِي صَغِيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ»، [64] لأنه كَانَ لَهُ نغرٌ (طائر) يَلْعَبُ بِهِ فَمَاتَ، فَحَزِنَ الْغُلَامُ عَلَيْهِ فَمَازَحَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا القول، وخاطبه بأسلوب انفعلت له جوارحه، بتصغير كلمة "نغر"، وجاء بالكلام مُسجعا (عمير-نغير) [65] مراعاة لحال هذا الطفل الحزين..

وتذكر بعض كتب الأدب -شرحا لمعنى المطابقة- ما دار بين خلّاد بن مَهْرُوَيه وبين الشاعر بشار بن برد (96 هـ - 168 هـ) حيث قال الأول للثاني: إنك تجيء بالشيء الهجين المتفاوت؛ بينما تقول شعرًا يثير النَّقْع ويخلع القلوب، مثل قولك:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُقْطِرِ الدَّمَا

---

64 "الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية" لمحمد بن عيسى الترمذي، (ت ٢٧٩هـ)، ص/194، المحقق: سيد بن عباس الجليمي، الناشر: المكتبة التجارية، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

65 السجع عند البلاغيين: هو توافق الفواصل في الكلام على حرفٍ واحدٍ، ويكون في الشّعر والنثر معا، لكن في الشعر يسمى كلمته الأخيرة قافية وتبنى على روي موحد، وتسمى السجعة في القرآن "فاصلة" تأدبا حتى لا يشبه سجع الكهان، والسجع أنواع: منها: السجع المرصع، وهو ما اتّفقت فيه جميع ألفاظ الجملتين أو أغلبها في الوزن العروضي والروي، كقوله:

ومكارمٍ أوليتها مُتبرِّعًا وجرائمٍ ألغيتُها متورّعًا

والسجع المتوازن هو اتّفاق الفاصلتين في الوزن دون الروي، نحو قوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾، ومنها السجع المطرف، وهو ما اختلفت فيه الكلمتان الأخيرتان من كل جملة في الوزن واتّفقتا في الروي. وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾...

الى غير ذلك من الأنواع، فليرجع اليها في كتب البلاغة، باب "المحسنات اللفظية" من "علم البديع".

إذا ما أعرْنا سيداً من قبيلةٍ ذُرَى مِنبـرِ صلّى علينـا وسلّمـا

إذا بك تقول:

رَبَابَـةُ رَبَّـةُ الـبَـيْـتِ تَصُبُّ الخَلَّ فِي الزَّيتِ

لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال له بشار: لكل وجهٍ موضعٌ، فالقول الأول جدٌّ، وهذا قلته في جاريتي ربابة، وأنا لا آكل البيضَ من السوق، وربابة تجمع لي البيضَ، فإذا أنشدتها هذا حَرَصت على جمع البيض، فهذا عندها أحسنُ من "قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومَنزل"(مطلع معلقة امرئ القيس) عندك، ولو أنشدتُها من النمط الأول ما فهمتْه" .[66]

وهكذا استعمل بشار المطابقة خير استعمال، وهو إنما يكلم كل إنسان على قدر معرفته، فعِلية الناس يَستحسنون قوله الأول، وأما رباب جاريته، فشعره فيها أحسن عندها وأنفقُ من شعره كله، فإذا أنشدها في النمط الأول ما فهمته ولا انتفعت

فمن أصول علم البلاغة –بناء على ما تقدم– أن يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم، وحظه من اللغة والأدب، فلا يجوز أن يخاطب العامي بما ينبغي

---

66 "مجالس العلماء" بتصرف، ص/157 لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، (ت ٣٣٧هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.

وأبو معاذ بشار بن برد العقيلي: أشعر المولدين. أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة عُقيلية، قيل إنها أعتقته من الرق. وكان ضريرا. نشأ في البصرة وقدم بغداد. وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى، جمع بعضه في (ديوان) 3 أجزاء منه. قال الجاحظ: (كان شاعرا راجزا، سجّاعا خطيبا، صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة) .

أن يخاطب به الأديب! وعكسُ الأمر بلا داع فيه إخلال بما تتطلبه بلاغة المعنى، لانعدام الملاءمة بين الكلام ومقامه.

وتمثل مطابقة الكلام لمقتضى الحال أحيانا فيما يتصرف فيه القائل من إيجاز وإطناب، اذ لكل منهما مقاماته التي تقتضيها حال السامع ومواطن القول. فالذكي الذي تكفيه اللمحة أو الإشارة يحسن له الإيجاز، والغبي أو المكابر يجمل عند خطابه الإطناب في القول. فالبلاغة تقتضي استخدام أسلوب الإيجاز مع الذكي اعتمادا على سرعة فهمه وقدرته على استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب، فبلاغته تستلزم الإسهاب بالشرح والإيضاح، إما طلبا لتمكين المخاطب من الفهم إن كان غبيا، وإما لتنزيله منزلة قصار العقول إن كان قد تجاوز الحد في المكابرة والعناد. . . [67]

وفي معنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال يقول ابن خلدون: [68]

"اعلم أنّ الكلام الّذي هو العبارة والخطاب، إنّما سرّه وروحه في إفادة المعنى. وأمّا إذا كان مهملا فهو كالموات الّذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدّها عند أهل البيان، لأنّهم يقولون "هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، ومعرفة الشّروط والأحكام الّتي بها تطابق التراكيب اللّفظيّة مقتضى الحال، هو فنّ البلاغة. وتلك الشّروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استُقريت من لغة العرب وصارت

67 "علم المعاني" لعبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦ هـ)، ص/38، الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

68 "ديوان المبتدأ والخبر. . ."، 799/1

كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد الإسناد بين المسندين، بشروط وأحكام هي جلّ قوانين العربيّة. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإضمار وإظهار، وتقييد وإطلاق وغيرها، يفيد الأحكام المكتنفة من خارج بالإسناد، وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن يسمّونه علم المعاني من فنون البلاغة. ثمّ يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات، لأنّ التركيب يدلّ بالوضع على معنى، ثمّ ينتقل الذّهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه، فيكون فيها مجازا: إمّا باستعارة أو كناية كما هو مقرّر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذّة كما تحصل في الإفادة وأشدّ، لأنّ في جميعها ظفر بالمدلول من دليله، والظّفر من أسباب اللّذّة كما علمت. ثمّ لهذه الانتقالات أيضا شروط وأحكام كالقوانين صيّروها صناعة، وسمّوها بالبيان... فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربيّ وروحه وطبيعته".

ونضرب مثالا لما تقدم بموقف ابي الطيب المتنبي، وقد أراد ان يعاتب سيف الدولة الحمداني ويشفي غليله منه –حيث شعر بجفاء الأمير له– بطريقة بديعة باستعمال أسلوب التعريض (وهو من أقسام الكناية عند بعضهم)، دون أن يخدش وجه الأدب، في أبيات يقطر منها التشفي. ترك الشاعر حلبا وأجواءها الموبوءة، وقصد مصر وصاحبها كافور الإخشيدي رجاء ان ينال عنده حظوة وجاها. قال من قصيدة يمدحه، ويُعرّضُ بسيفِ الدولة الحمداني، ويفتخر كعادته بنفسه:

فِراقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غيرُ مُذمَّمِ ... وَأَمٌّ وَمَنْ يَمّمْتُ خيرُ مُيَمَّمِ

وَمَا مَنزِلُ اللّذّاتِ عِندي بمَنْزِلٍ ... إذا لم أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وَأُكَرَّمِ

سَجيّةُ نفْسٍ مَا تَزَالُ مليحَةً مِنَ الضّيمِ مَرْمِيّاً بها كلّ مَخْـرِمِ
رَحَلْتُ فكَمْ باكٍ بأجْفانِ شَادِنٍ عَلَيّ وَكَمْ بَاكٍ بأجْفانِ ضَيْغَـمِ
وَمَا رَبّةُ القُـرْطِ المَليحِ مَكانَـهُ بأجزَعَ مِنْ رَبّ الحُسَامِ المُصَمّمِ
فَلَوْ كانَ ما بي مِنْ حَبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذرْتُ ولَكنْ من حَبيبٍ مُعَمَّمِ
رَمَى وَاتّقى رَميي وَمن دونِ ما اتّقى هوًى كاسرٌ كفّي وقوْسي وَأسْهمي
إذا ساءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدّقَ مَا يَعتَادُهُ من تَـوَهّـُمِ

ترك المتنبي حلبا مرغما لما شعر به من كيد الحساد والوشاة، ومن ظلم أميرها الذي أصاخ لقول هؤلاء دون تثبت، فقلاه لأجل ذلك. فكم من رجال ونساء بكوا على فراق الشاعر وجزعوا لارتحاله عنهم، فالباكي "بجفن الشادن" –كناية عن المرأة المليحة الحسناء– وكذلك "رَبّةُ القُـرْطِ المَليحِ"، والباكي عليه "بأجفان الأسد" –كناية عن الرجل الشجاع الكريم– وكذلك "رَبّ الحُسَامِ المُصَمّمِ".

ثم لو كان الذي يشكوه من الغدر به حصل من "حَبيبٍ مُقَنَّعٍ" –كناية عن المرأة– وجد لها عذرا، لأن شيمة النساء الغدر. ولكنه وقع من "حَبيبٍ مُعَمَّمِ" –كناية عن الرجل– لأن من عادته التعمم، وليست كذلك النساء.

كَنَّى المتنبي عن سيف الدولة، أولا: بالحبيبِ المعمم، ثم وصفه بالغدرِ الذي يدعي أنه من شيمةِ النساءِ، ثم لامه على مبادهته بالعدوانِ، ثم رماه بالجبنِ لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتارِ خلف غيره، لكن المتنبي لا يجازيه على الشرّ بمثله، لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوًى قديماً، يكسرُ كفه وقوسه، وأسهمه، إذا حاول النضالَ. ثم وصفه بأنه سيءُ الظنِّ بأصدقائهِ لأنه سيءُ الفعل، كثيرُ الأوهام والظنون، حتى ليظنَّ أنَّ

الناس جميعاً مثلَه في سوءِ الفعل، وضعفِ الوفاء. فانظر كيف نالَ المتنبي من سيف الدولة بأسلوب التلميح لا التصريح.

ومن أوضح مميزات الكنايةِ التعبيرُ عن القبيح بما تسيغُ الآذانَ سماعُه... ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم، وكلام العربِ فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسنُ ذكره إلا بالكنايةِ، وكانوا لشدة نخوتِهِم م يكنونَ عن المرأة بالبيضةِ والشاةِ.

وبعضهم كنَّى بالنخلةِ، عن المرأة التي يحبُّها، فقال:

أَلَا يا نَخْلةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ   عَلَيْك ورَحْمَةُ اللّهِ السّلامُ [69]

2– دعائم تقوم عليها البلاغة:

البلاغة إذن تقوم على دعائم: أولها اختيار اللفظة. وثانيها حسن التركيب وصحته. وثالثها اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء، وحسن انتهاء. ورابعها التأثير في النفوس. وبقدر ما يتهيأ من هذه الدعائم، يكون الكلام مؤثراً في النفوس. والبلاغة لابد فيها من ذوق وذكاء، بحيث يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي، وما هي القوالب التي تصبُّ فيها المعاني التي رتبها في نفسه، فربَّ كلام يكون جميلاً في نفسه، لكنه لم تُراع فيه هذه الظروف، فتكون نتائجه عكسية غير متوقعة.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "خمسٌ لَهُنّ أحب إليّ من الدّهم الموقّفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فَعيب به. ولا تُمارِ حليماً ولا سفيها، فإن الحليم يَقْليك وإن السفيه يُؤذيك. واذكر أخاك إذا تغيّب عنك

69 بتصرف من "البلاغة الواضحة"، ص/ 111، لعلي الجارم ومصطفى أمين.

بما تحب أن يذكرك به، وأعفه مما تحب أن يُعفيَك عنه. واعمل عَمل رجل يرى أنه مُجازى بالإحسان مأخوذٌ بالإجرام".

فالبليغ –في معالجة النصوص المختلفة– لا غنى له من اكتساب عن خصلتين ضروريتين؛ خصلة موهوبة وخصلة مكتسبة:

أولا– الخصلة الموهوبة:

وهي رقة في الطبع، ورهافة في الحس، وسمو في الذوق، وسعة في الخيال، وذكاء في العقل، وحضور في القلب، مع امتلاك العين المبصرة النافذة الناقدة، والأذن الواعية، مرهفة السمع، العاشقة جمال اللفظ وعذوبة الجرس وروعة الإيقاع. كما قال بشار:

يا قوم أُذني لبعض الحيّ عاشقةٌ   والأذنُ تَعشَق قبل العين أحيانا

كتب "محمود أبو رية" الى أستاذه مصطفى صادق الرافعي يستشيره في أفضل السبل الى اكتساب الأدب، فأجابه: [70]

"إنك تريد امتلاك "ناصية الأدب" كما تقول، فينبغي أن تكون لك مواهب وراثية تؤديك إلى هذه الغاية، وهي ما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمنا، فإن ظهر عليك أثرها وإلا كنت أديبا كسائر الأدباء الذين يستعيضون من الموهبة بقوة الكسب والاجتهاد... ورأس هذا الأمر، بل سر النجاح فيه أن تكون صبورا، وأن تعرف أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا متى صار رجلا، وبعبارة صريحة إلا من انتظر سنوات كثيرة"!

70 "من رسائل الرافعي" وهي التي بعث بها الرافعي الى صديقه محمود أبو ريّة، بين سنة 1912 الى 1934م. ص/ 26 وما بعدها. دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية.

وقال له مرة أخرى:

والكلامُ عن أصولِ الكتابةِ، وتقويةِ الأسلوبِ طويلٌ ذو فصول، ويحتاجُ إلى وقتٍ ذي فُسحةٍ، إلا أنّهُ باتفاق علماءِ الأدبِ، يأتي بالقراءةِ الواسعةِ، وبالممارسةِ وكثرةِ الكتابةِ، إضافة إلى مُحاكاةِ أساليب الكتّابِ الأقدمينَ، والسير على طريقتهم، وانتهاجِ نهجهم، إلى أن تختصّ بأسلوبٍ خاصٍ بكَ.

ومن الناس من لا يكونُ عندهُ ذلكَ الأسلوبُ الحسنُ، ولا الموهبةُ الكتابيّةُ، ولا الحسُّ الأدبيُّ، ولا تكونُ لديهِ ذخيرة من المعلوماتِ حاضرة لديهِ، ولكنّهُ مع كثرةِ البحثِ والقراءةِ وممارسةِ الكتابةِ، يصبحُ شخصاً مطبوعاً على الأدبِ وحسن الإنشاءِ" .

هذه الخصلة الموهوبة –إذن– من شأنها تمكين صاحبها من مراعاة أحوال الخطاب، وتخيّر المقال المناسب لكل مقام، من حيث ما ينسجم مع الحال من ظروف نفسية واجتماعية وبيئية وغيرها، هذا من ناحية، ومن حيث اختيار ما يناسب هذه الظروف من معان منظومة في عبارات، واختيار ما تبنى منه العبارات من ألفاظ، تتناغم مع المقام وتصوره على خير ما يرام من ناحية أخرى. والإحساس اللغوي عند الأديب هو الذي يختار اللفظ اختياراً دقيقاً، بحيث يؤدي المعنى، على وجه لا لبس فيه ولا اضطراب، وهو لذلك يلحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات ويأخذ من بينها أمسها بمعناه، حتى تقوم بواجبها من التوصيل الصادق. سمع الشاعر ابن هَرْمَة (150هـ) أديباً ينشد قوله:

بالله ربكَ إن دَخلتَ فقلْ لها   هذا ابنُ هَرْمَة قائماً بالبابِ

فقال له: لم أقل قائماً، أكنتُ أتصدق؟ فقال: قاعداً فقال: أكنتُ أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفا، وليتك علمتَ ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى". [71]

إن القيام يقتضي الملازمة، وكأنما هو حاجبٌ على باب بيتِها، مقيم عليه ليلاً ونهاراً ينتظر الإذن بالدخول، بما يوحي بالمذلة والصّغار، بخلاف الوقوف، تقول: وقف الحاج بعرفة، ولا تقول: قام. وتحقيق هذا أن الألفاظ المركبة فيها جمال وقبح كالألفاظ المفردة؛ حتى إنه قد يحدث أن يتألف الكلام من ألفاظ جميلة في ذاتها، قبيحة في تركيبها؛ لفقدها ما يسمى جمال الانسجام، وهذا هو ما يعنون بقولهم: "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام". بل إن الإحساس اللغوي، يرهف ويدق، فيختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة، بحيث يكون فيها تقليد للشيء الموصوف، حتى كأنه يوحَى به إلى الخاطر، كما تحس بذلك في كلمة " تفاوح" في قول المتنبي:

إذا سارتِ الأَحداجُ فوق نباته تفاوَحَ مِسكُ الغانياتِ ورَنْدُه

فهي تدل بصيغتها، على هذه الموجات النسيمية، وتحمل في أردانها عَبَق المسك والرند. وكلمة صليل في قول المتنبي أيضا من قصيدة رائعة يصف فيها روضة غناء ب"شعب بوان": [72]

---

71 "الصناعتين"، ص/ 68، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت/ 395هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ

72 جاء في "صبح الاعشى" 408/4: "وشعب بوّان– وهو عدّة قرى مجتمعة ومياه متصلة، والأشجار قد غطّت تلك القرى فلا يراها الإنسان حتّى يدخلها، وهو بظاهر "همذان" يشرف عليها من جبل، وهو في سفح الجبل والأنهار تنحطّ عليه من أعلى الجبل، وهو من أبدع بقاع الأرض منظرا. قال المبرد: أشرفت

وأمواهٍ تَصِلُّ بها حَصاها صَليلَ الحَلْي في أيدي الغَواني

تصل: تصوت. والحلي: ما يلبسه النساء من الذهب والفضة والجوهر. والغواني: جمع غانية، المرأة التي غنيت بحسنها . شبه المياه في اندماجها وصفاء لونها بمعاصم الحسان، وما يصوت بها من الحصى بالحلي الذي يلبس في المعاصم (موضع السوار) . فكلمة "صليل" تُسمعك وَسْوسةَ الحصى لاعبة بالمياه.. وبعض ألفاظ اللغة، أسلس على اللسان، وأجمل وقعاً على الأُذن من بعض، وهو جمال ظاهري، يساعد الأديب على إيصال تجربته، وعلماء البلاغة يذكرون من صفات الألفاظ المفردة ما يصح أن تلتمسه هناك.

وفضلاً عما للكلمات من خصائص يدركها إحساس الأديب، كذلك النظم في العبارة الأدبية، يحمل معنى أكثر مما تؤديه الجملة بجريها على النحو، فإن هناك قوى يبثها المؤلف فيها، عن غير عمد حيناً وعن عمد حيناً آخر، فنجده يقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ويصل ويفصل، ويأتي ببعض ألوان المعارف دون بعض، وحيناً يدع المعرفة إلى النكرة، وآنا يستخدم أداة من أدوات الطلب مكان أخرى، أو يأتي بزخرفة في مكانها، وقد وصل علماء البلاغة إلى إدراك كثير من هذه الأسرار، فعقدوا علما

على "شعب بوّان" فنظرت فإذا بماء ينحدر كأنه سلاسل فضة، وتربة كالكافور، وثرية كالثوب الموشّى، وأشجار متهادلة، وأطيار متجاوبة. وفيه يقول أبو الطّيّب المتنبي حين مرّ به:

مغاني الشّعب طيبا في المغاني بمنزلة الرّبيع من الزّمان
ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجه واليد واللّسان
غدونا نغض الأغصان فيه على أعرافها مثل الجُمان

يتحدث عن خصائص الجملة ودعَوْه علم المعاني، وعلما للخيال الذي يعقد الصلة بين الأشياء ودعَوْه علم البيان، وآخر لبعض ألوان الجمال، وسموه علم البديع.

ولكن خصائص النظم، لا تقف عند حد الجملة، بل إن للأساليب خصائص، فمنها ما يناسب الانفعال السريع، والحركة المتوثبة، ومنها ما يناسب العاطفة الهادئة، والحركة البطيئة، وقد يدفع الإحساس الفني الأديب، إلى انسجام في النظم وموسيقى لفظية، تساعد على الإيحاء، وإن هذا الانسجام وهذه الموسيقى يصلان إلى الذروة في فن الشعر، وبذلك يستطيع الأديب أن يصل إلى أسمى درجات التأثير".

كل ذلك يملكه من حباه الله تعالى الذوق والحس البلاغي، ويحرم منه من لم يرزقه الله هذه الموهبة الفطرية، فهو لا يفرق بين حَسَن وقبيح، ولا تألق عنده ليميز بين ركيك وفصيح، وفاقد هذه الموهبة قد لا ينفع معه بذل كل جهد لاكتسابها، إذ هي فطرية طبيعية تختلف قدرات الناس واستعداداتهم تجاهها، والصفة الخِلْقية التي هي طبع وسجية لا تكلف فيها، ليست كالصفة التي يحاول صاحبها وتكلُّفَها، كما يقول أبو الطيب المتنبي: (303–354 هـ) [73]

[73] أحمد بن الحسين الكندي، الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربيّ. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في محلة تسمى (كندة) وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. ووفد على سيف الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) سنة 337هـ فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي وطلب منه أن يوليه، فلم يوله، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه. وقصد العراق، فقرئ عليه ديوانه. وزار بلاد فارس فمدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات. ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلميّ. . .

فإنَّ حِلمكَ حِلمٌ لا تَكَلُّفُـهُ ليس التكحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

وكما قال أبو تمام حبيب بن أوس (188–231 هج):

والسيفُ ما يُلْفَ فيه صَيْقلٌ مِن طَبْعه لم ينتفعْ بصقالِ [74]

ولعل من هذا القبيل، تلك المقارنة الذوقية التي صوّر بها ضياء الدين بن الأثير (ت/ ٦٣٧هـ) موقف منحط الذوق متبلد المشاعر، عيّي الفهم وهو يسوي في المقابلة بين الأشياء المتنافرة والمتضادة والمتقابلة إذ يقول: [75]

"وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم: إن هذه اللفظة حسنة، وهذه قبيحة، أنكر ذلك، وقال: كل الألفاظ حسن، والواضع لم يضع إلا حسناً . ومن يبلغ جهله ألا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة "العسلوج"، وبين لفظة المدامة ولفظة "الإسفَنْط"، وبين لفظة السيف ولفظة "الخنشليل"، وبين لفظة الأسد ولفظة "الفَدَوْكَس"؛ فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه؛ كما

[74] أبو تمام: الشاعر، الأديب. أحد أمراء البيان. ولد في الشام ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها . كان فصيحا، حلو الكلام، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع. في شعره قوة وجزالة. واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري. له تصانيف منها: (ديوان الحماسة)، و (الوحشيات) وهو الحماسة الصغرى، و (ديوان شعره) . .

هذا آخر بيت من قصيدة طويلة مطلعها:

آلَت أُمورُ الشِركِ شَرَّ مَآلِ وَأَقَرَّ بَعدَ تَخَمُّطٍ وَصِيالِ

[75] "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" 171/1، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة

قيل: (اتركوا الجاهل بجهله، ولو ألقى الجَعْرَ في رحله) . . . فإذا كان من سقم النظر أن يسوّي بين هذه الصورة (صورة الزنجية) وهذه (صورة الرومية) ، فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوّي بين هذه الألفاظ وهذه، ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام، فإن هذا حاسة وهذا حاسة، وقياس حاسة على حاسة مناسب. . .

ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتاً منكرًا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم. . . ولا يسبق وهمك أيها المتأمل إلى قول القائل الذي غلب عليه غلظ الطبع، وفجاجة الذهن، بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا، فهذا دليل على أنه حسن، بل ينبغي أن تعلم أن الذي نستحسنه نحن في زماننا هذا، هو الذي كان عند العرب مستحسنًا، والذي نستقبحه هو الذي كان عندهم مستقبحًا. والاستعمال ليس بدليل على الحسن، فإنّا نحن نستعمل الآن من الكلام ما ليس بحسن، وإنما نستعمله لضرورة، فليس استعمال الحسن بممكن في كل الأحوال، وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه.

ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلمة في صوغ الألفاظ واختيارها، فإنه معذور في أن يقول ما قال:

لا يعرفُ الشوقَ إلا من يُكابده ولا الصَّبابةَ إلا من يُعانيها

فالبليغ الذواقة –كابن الأثير– تُحْدِثُ الألفاظ الرائقة ومعانيها الرائعة في نفسه وفكره صورا لها شخوص وخيالات حية، لا يشعر بها من الناس إلا أوحدهم وأخصهم،

وإلا واسطتهم وفصهم، ولنستمع إليه وهو يصف أسلوبين من أساليب الشعراء ويصور المفارقة بينهما، يقول:

"فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تُتَخَيَّل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجالٌ قد ركبوا خُيولهم، واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حِسان، عليهن غلائل (ثياب) مُصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي". [76]

مثل هذه المشاعر ينفعل بها صاحبها، وتملك عليه أقطار قلبه ونفسه، حين يسمع الآية من القرآن، أو البيت من عيون الشعر، أو القطعة من ساحر النثر، فتتسرب الألفاظ ومعانيها في أحاسيسه ومشاعره، وتجري منه في دمائه، وتأخذه كل مأخذ، حتى إذا سئل أن يضع يده على مكامن إعجابه وأسرار انفعاله، لم تجد عبارته إلى ذلك سبيلا، بل لعل العبارة عن ذلك تفسد الذوق الذي شعر به، وتأتي على أسرار الجمال التي وجدها في نفسه، فهي تؤخذ كما هي، وكأنما هذا الجمال وذلك التذوق يستعصي على اللفظ أن يحدده بحدوده...

ثانيا– الخصلة المكتسبة:

وهي أَخذ النفس بما من شأنه أن يثري ويعزز الملكة الفطرية عنده بكثرة قراءاته ومطالعاته البليغ من الكلام، في سائر فنون اللغة، مَنظومها ومنثورها، وخصوصاً كتاب الله تعالى الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا

[76] "المثل السائر": 195/1.

تنقضي عجائبه، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعوه حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عجبا يهدي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ . (سورة الجن 1–2)

كما ينبغي أن يؤسس لهذه الملكة بالتمكن من علوم العربية، نحوها وصرفها وفقه لغتها، وخصوصا المباحث البلاغية في علمي المعاني والبيان، وما يترتب على العلم بهما وفهم مسائلهما من قدرة على تقييم صحيح القول من سقيمه، وبليغه من ركيكه، وحسنه من قبيحه، وبيان تفاوت مراتبه ومنازله من البلاغة، وكان هذا هو المقياس الذي كشف عن البون الشاسع بين لغة القرآن وبيانه، وبين كل بيان عرفته الإنسانية.

وقال أبو هلال العسكري: [77]

"إن أحق العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحَفُّظ – بعد المعرفة بالله جل ثناؤه– علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطقِ بالحقّ، الهادي إلى سبيل الرشد... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخَلَّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق التلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها..

وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه. وقبيحٌ لعمري بالفقيه المؤتَمّ به، والقارئ المقتدَى بهديه، والمتكلمِ المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آلته

[77] "الصناعتين"، ص/ 68.

في مجادلته، وشدة شكيمته في حجاجه، وبالعربي الصليب، والقرشي الصريح ألاّ يعرف فهم إعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، وأن يستدل بما يستدل به الجاهل الغبي.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها: أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرّط في التماسه، ففاته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفّى على جميع محاسنه، وعمّى سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهلُه، وظهر نقصه. وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة – وقد فاته هذا العلم– مزج الصَّفْوَ بالكَدَر، وخلط الغُرَرَ بالعُرَر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل . . . "

ويقول أبو العباس القلقشندي (756هـ–821 هـ) في "صبح الأعشى"، وهو يتحدث عن وجه احتياج الكاتب إلى المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع: [78]

"اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنيةً على سلوك سُبل الفصاحة، واقتفاء سنن البلاغة، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة، ومسقط حجر البلاغة، اضطر الكاتب إلى معرفتها والإحاطة بمقاصدها، ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب، جاريا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء من الخطب والرسائل والأشعار، من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن، وتأدية المطلوب بها، وأنها كيف تتعين بحسب

---

[78] "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، 219/1، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

الأغراض، لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشيء يذكر بضده؛ فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض" .

وأشار الزمخشري (ت/538هـ)، في مقدمة "الكشاف" إلى أهمية البراعة في علمي المعاني والبيان وبذل كل جهد في معالجة مسائلهما، كما أشار إلى الخصائص النفسية الموهوبة والأخرى المكتسبة التي لا بد منها لمن يريد التصدي لفهم كتاب الله عز اسمه، والوقوف على بلاغة وأسرار إعجازه، حيث يقول: [79]

" إنَّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القَوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير، الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم– كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن– فالفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن عَلك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورُجع إليه، ورَدّ ورُدَّ عليه، فارساً في

[79] "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

علم الإعراب، مقدَّما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس، درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسيا ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دُربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير رَيِض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مضاحضه ومزالقه".

وذكر أبو حيان الأندلسي (ت/745هـ) في مقدمة تفسيره ان النَّظَرَ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ مِنْ وُجُوهٍ سبعة، وبعد ان فصل الحديث فيها ختمها بقوله: [80] "فَهَذِهِ سَبْعَةُ وُجُوهٍ، لَا ينبغي أَن يُقْدِمُ عَلَى تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ أَحَاطَ بِجُمْلَةٍ غَالِبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مِنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَرْتَقِي مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ ذِرْوَتَهُ، وَلَا يَمْتَطِي مِنْهُ صَهْوَتَهُ، إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَبَحِّرًا فِي عِلْمِ اللِّسَانِ، مُتَرَقِّيًا مِنْهُ إِلَى رُتْبَةِ الْإِحْسَانِ، قَدْ جُبِلَ طَبْعُهُ عَلَى إِنْشَاءِ النَّثْرِ وَالنَّظْمِ دُونَ اكْتِسَابٍ، وَإِبْدَاءِ مَا اخْتَرَعَتْهُ فِكْرَتُهُ السَّلِيمَةُ فِي أَبْدَعِ صُورَةٍ وَأَجْمَلِ جِلْبَابٍ، وَاسْتَفْرَغَ فِي ذَلِكَ زَمَانَهُ النَّفِيسَ، وَهَجَرَ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ وَالْأَنِيسَ، ذَلِكَ الَّذِي لَهُ فِي رِيَاضِهِ أَصْفَى مَرْتَعٍ، وَفِي حِيَاضِهِ أَصْفَى مَكْرَعٍ، يَتَنَسَّمُ عُرْفَ أَزَاهِرَ طال ما حجبتها الكمام، ويترشف كؤوس رَحِيقٍ لَهُ الْمِسْكُ

[80] "البحر المحيط في التفسير": أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، 17/1، المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ.

ومن هذه الوجوه المتعلقة بعلوم العربية – عِلْمُ اللُّغَةِ اسْمًا وَفِعْلًا وحرفا . . – مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الَّتِي لِلْكَلِمِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةِ إِفْرَادِهَا وَمِنْ جِهَةِ تَرْكِيبِهَا . . .– كَوْنِ اللَّفْظِ أَوِ التَّرْكِيبِ أَحْسَنَ وَأَفْصَحَ: وَيُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ. . .

خِتَامٌ، وَيَسْتَوْضِحُ أَنْوَارَ بُدُورٍ سَتَرَتْهَا كَثَائِفُ الْغَمَامِ، وَيَسْتَفْتِحُ أَبْوَابَ مَوَاهِبِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، يُدْرِكُ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ بِالْوِجْدَانِ لَا بِالتَّقْلِيدِ . . .

وَأَمَّا مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى غَيْرِ هَذَا مِنَ الْعُلُومِ، أَوْ قَصَّرَ فِي إِنْشَاءِ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ، فَإِنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ فَهْمِ غَوَامِضِ الْكِتَابِ، وَعَنْ إِدْرَاكِ لِطَائِفِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ، وَحَظُّهُ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ إِنَّمَا هُوَ نَقْلُ أَسْطَارٍ، وَتَكْرَارُ مَحْفُوظٍ عَلَى مَرِّ الْأَعْصَارِ، وَلِتَبَايُنِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي إِدْرَاكِ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ، وما به تكون الرّجاجة فِي النّظَامِ، اخْتَلَفُوا فِيمَا بِهِ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ، فَمَنْ تَوَغَّلَ فِي أَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ وَأَفَانِينِهَا، وَتَوَقَّلَ فِي مَعَارِفِ الْآدَابِ وَقَوَانِينِهَا، أَدْرَكَ بِالْوِجْدَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَتَى فِي غَايَةٍ مِنَ الْفَصَاحَةِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا، وَنِهَايَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَامَ عَلَيْهَا، فَمُعَارَضَتُهُ عِنْدَهُ غَيْرُ مُمْكِنَةٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا دَاخِلَةٍ تَحْتَ الْقَدَرِ. وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ هَذَا الْمُدْرَكَ، وَلَا سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ، رَأَى أَنَّهُ مِنْ نَمَطِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ مَقْدُورٌ لِمُنْشِئِ الْخُطَبِ. فَإِعْجَازُهُ عِنْدَهُ إِنَّمَا هُوَ بِصَرْفِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَمُنَاضَلَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى مُمَاثَلَتِهِ" .

وفي بيان العلاقة الجدلية القائمة بين الطبع والاكتساب عند البليغ؛ بين الموهبة البلاغية وبين ضرورة إذكائها وتثقيفها بعلم البلاغة، وبيان الآفة العظمى في ترك البحث عن العلة التي توجب المزية في الكلام، يقول إمام البيان عبد القاهر الجرجاني (ت/471 هـ) في باب "اللفظ والنظم": [81]

[81] "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، ص/ 291، عبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود شاكر، الناشر: مطبعة المدني بجدة، الطبعة الثالثة سنة 1992م

"واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ، ولا يَجدُ لديه قَبولاً، حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ، وحتى يكونَ ممن تُحدِّثُهُ نفسُه بأنَّ لِمَا يُومئُ إليه من الحُسْنِ واللطْف أَصْلاً، وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلامِ، فيجِدَ الأريحيَّة تارةً، ويعْرى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبْتَه عَجِبَ، وإذا نبَّهْتَه لموضعِ المزيةِ انْتَبَه. فأما من كان الحالانِ والوجهانِ عنده أبداً على سَواء، (الحال التي توجب الأريحية، والحال التي تعرى منها) . وكان لا يفقد من أمرِ "النظمِ" إلا الصحَّةَ المُطلقةَ، وإلاَّ إعراباً ظاهراً، فما أَقلَّ ما يُجدي الكلامُ معه.

فلْيكُنْ مَنْ هذه صِفتُهُ عندكَ بمنزلةِ مَنْ عَدِمَ الإحساسَ بوزنِ الشّعر، والذوقِ الذي يُقيمه به، والطَّبعَ الذي يُميِّزُ صحيحَه من مكسورِه، ومَزاحِفَه من سالِمِه، وما خرجَ مِن البحرِ مما لم يَخْرُجُ منهُ في أنك لا تتصدَّى له، ولا تتكلَّفُ تعريفَه، لِعلْمِكَ أنه قد عدمَ الأداةَ التي معها يَعرفُ، والحاسَّةَ التي بها يَجدُ. فليكُنْ قَدْحُكَ في زَندٍ وارٍ، والحكُّ في عُودٍ أنت تطمعُ منه في نار.

واعلمْ أنّ هؤلاء، وإنْ كانوا همُ الآفةَ العظمى في هذا الباب، فإنَّ مِن الآفَةِ أيضاً مَنْ زَعم أنه لا سبيلَ إلى معرفةِ العِلَّةِ في قليلِ ما تعرف المزية فيه وكثيرِه، وأنْ ليس إلاَّ أنْ تَعلمَ أنَّ هذا التقديمَ وهذا التنكيرَ، أو هذا العطْفَ أو هذا الفصْلَ حسَنٌ، وأنَّ له موقعاً من النفسِ وحظًّا من القَبولِ، (يعرف بالذوق فقط) . فأمَّا أنْ تَعلم لِمَ كان كذلك؟ وما السَّبَبُ؟ فَمِمَّا لا سبيلَ إليه، ولا مطمعَ في الاطِّلاعِ عليه، فهو بتوانِيهِ والكَسل فيه، في حُكْم مَنْ قالَ ذلك.

واعلمْ أنه ليسَ إذا لم تمكن معرفةُ الكلِّ، وجَبَ تركُ النظرِ في الكلِّ. وأنْ تعرفَ العلَّةَ والسببَ فيما يُمْكِنك معرفةُ ذلك فيه وإنْ قلَّ فتجعلَه شاهداً فيما لم تَعْرِفْ، أحْرَى مِن أنْ تَسُدَّ بابَ المعرفة على نفسِك، وتأْخذَها عن الفهم والتفهُّم، وتعوّدَها الكسَل.

قال الجاحظُ: وكلامٌ كثيرٌ قد جَرى على ألسنةِ الناس، وله مَضرّةٌ شديدةٌ وثمرةٌ مُرّةٌ. فمِنْ أَضَرّ ذلك قولُهم: "لم يَدَع الأولُ للآخِرِ شيئًا"، قال: فلو أنَّ علماءَ كلِّ عصر مُذ جرتْ هذه الكلمةُ في أسْماعهم، تركُوا الاستنباطَ لِمَا لَمْ يَنتهِ إليهم عَمَّن قبْلَهم، لرأيتَ العِلم مُختلاً. واعلمْ أنَّ العلمَ إنما هو معدِنٌ (منجم)، فكما أنه لا يمنعك أن ترى ألوف وقْرٍ (حمل بعير) قد أُخرجَتْ من معدنِ تبْرٍ (ذهب)، أنْ تطلُبَ فيه، وأن تأخُذَ ما تَجد ولو كقَدْرِ تُومةٍ (حبة من الفضة كالدرة)، كذلكَ، ينبغي أن يكون رأيكَ في طلبِ العلمِ. . ." .

ويقول مصطفى صادق الرافعي عن هذه القضية وأجاد: [82]

"وفي الكتّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم ومعانيهم فنًا عقليًا غايته صحة الأداء وسلامة النسق، فيكون البيان في كلامهم على ندرة كوخز الخضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا . ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة، وسمو التعبير مع الدقة، وإبداع الصورة زائدًا جمال الصورة. أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ويَدِفّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري. ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا

[82] "وحي القلم"، 15/1، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م

في معانٍ وألفاظ؛ وترى الإلهام في الأسلوب الآخر يطالعك أنه هنا في جلال وجمال، وفي صور وألوان.

ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي، كأنها شبّت في نفسه شبابًا؛ وأقوى مما هي، كأنما كسبت من روحه قوة؛ وأدل مما هي، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة. فالكاتب العلمي تمر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها؛ ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعه هو. أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى مراتبها؛ وأنت مع الأولين بالفكر، ولا شيء إلا الفكر والنظر والحكم؛ غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي.

وللكتابةُ التامة المفيدة مثلُ الوجهين في خلق الناس: ففي كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخَلق جمال الخُلق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة، وهو لذلك وبذلك، يُرَى ويؤثّر ويعشَق.

وربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ وبأنه محيِّر، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحرَ فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب.

الفصل الثاني
التشبيهُ
مفهومُه - أقسامُه
أغراضُه

المبحث الأول
مَفهوم التَّشبيه وأركانُه

أولا: مَنزلةُ التشبيه في الكلام

التشبيه فن جميل من فنون الكلام، وعنصر أصيل من عناصر علم البيان، ودعامة من دعائمه، ومقصد أصيل من مقاصده، وذلك لأمور أهمها:

أ– أسبقيته في الوجود على الصور البيانية.

فهو أقدم صور البيان؛ إذ هو مبني على ما تلمحه النفس من اشتراك بعض الأشياء في وصف خاص يربط بينها؛ فتعمد إليه النفس بالفطرة حين يسوقها الداعي إليه، والباعث عليه؛ ومن ثمّ كان سرّ ذيوعه في سائر الأنواع البشرية واللغات الإنسانية، فهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا لغة؛ كيف لا وهو من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية. [83]

عرف العرب الأقدمون التشبيه وخطره في الكلام منذ لهجت ألسنتهم بفنون القول؛ فكان لهذا اللون من الخطاب الصدارة من الأساليب التي يستخدمها الفصحاء في كل مكان وزمان، وفي هذا يقول المبرد (285هـ) في كتابه الكامل:

83 "دراسات في علم النفس الأدبي" للأستاذ حامد عبد القادر، ص/41.

"والتشبيه جارٍ كثيراً في كلام العرب؛ حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد". ويقول: "والتشبيه من أكثر كلام الناس" "والتشبيه كثير، وهو باب كأنه لا آخر له".[84] ويقول أبو هلال الله العسكري (ت/ 395هـ): "والتشبيه يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحدٌ منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يُستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة. وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلّ جيل ما يستدلّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلّ لسان. فمن ذلك ما قال صاحب كليلة ودمنة: "الدنيا كالماء المالح كلما ازددت منه شربا ازددت عطشا". وقال: "صحبة الأشرار تورث الشرّ كالريح إذا مرّت على المنتن حملت نتنا، وإذا مرّت على الطيب حملت طيبا . . .".[85]

ب – تنوع مراتبه في الوضوح والخفاء:

فهو أسلوب يظهر فيه التفاوت على نحو ملموس، فليست درجة الوضوح فيه واحدة، وهذا التفاوت مَناط البلاغة وعماد البراعة! ذلك لأن التشبيه باب عظيم من أبواب البلاغة الساحرة، ومسلك رائع للأدباء، منه يلجون سائر البقاع والأزمنة، وأساس متين للاستعارة التي هي عماد الجمال والكمال في الأساليب! وأسلوب توفرت له هذه

[84] "الكامل في اللغة والأدب"، 70/3، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الثالثة 1417 هـ.

[85] "الصناعتين"، ص/ 243، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ

اللطائف وتلك المقومات لجدير بأن يكون مقصدا أساسيا من مقاصد البيان، وأصلا عظيما من أصوله ! فهو "من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبِه (بالكسر) منهم في تشبيه ألطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق . . . ".[86]

وقد زَخرت أشعار العرب بالتشبيهات التي أدركتها بوعيها أو حسها، وهي ضروب مختلفة؛ بعضها ألطف من بعض، كما يرى محمد بن أحمد بن طباطبا (ت/ 322هـ)، حيث ذكر أن لهم طرقاً معروفة في التشبيه؛ وذلك بأن شبهوا عين المرأة بعين الظبي أو المهاة، والأنف بحد السيف، والكريم بالبحر والغيث، والشجاع بالأسد، والجميل بالبدر، والمَهيب الماضيَ العزم في الأمور بالسيف، وعاليَ الهمة بالنجم، والحليم الرزين بالجبل، والطائش بالفراش، والفائت بالحُلم، وقاسيَ القلب بالحديد والصخر، والذليل بالوتِد والنقد . . الخ.[87]

ثم قال: "وَقد فَاز قومٌ بخلال شهُروا بهَا من الخَيْر والشَّر، وصَارُوا أعلاماً فِيهَا، فَرُبمَا شُبِّه بهم فيكُونُونَ فِي الْمعَانِي الَّتِي احْتَوا عَلَيْهَا، وذُكِرُوا بشُهْرتها نُجُوماً يُقْتَدى بهم، وأعْلاماً يُشَار إِلَيْهِم؛ كالسَّموأل فِي الْوَفَاء، وحَاتِم فِي السَّخاءِ والأَحْنَفِ فِي الحِلْم، وسَحْبانَ فِي البَلاغة، وقُسٍّ فِي الخَطَابة، ولقمانَ فِي الحِكْمَة، فَهُم فِي التَّشْبِيه يُجْرَونَ

---

86 "البرهان في وجوه البيان" ص/107، لابي إسحاق بن وهب الكاتب، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب بالقاهرة، 1969م.

87 "عيار الشعر" محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، ص/29 وما بعدها، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي – القاهرة.

مُجْرَى مَا قَدَّمنا ذِكْرَهُ من البَحْر والحَيَا، وَالشَّمْس وَالْقَمَر، وَالسيف، وَيكون التَّشْبيه بهم مَدْحاً كالتشبيه بهَا. وَكَذَلِكَ أَضْدَادُ هَؤُلَاءِ؛ قومُ يُذمُّون فِيهَا شُهروا بِهِ يُشَبَّهُ بهم فِي حَال الذَّم كَمَا يُشَبَّه بهؤلاء فِي حَال المَدْح كبَاقِل فِي العِي، وَهَبَنَّقَة فِي الحُمُق، والكُسَعِيَّ فِي الندامة. . .فالشَّاعِرُ الحاذِق يَمْزجُ بَين هَذِه المَعَاني فِي التَّشْبيهات لِتَكْثُرَ شواهِدُهَا، ويتأَكَّدَ حُسْنُها، ويَتَوَقَّى الِاخْتِصَار على ذكر المعَانِي الَّتِي يُغِيرُ عَلَيْهَا دونَ الإبدَاعِ فيهَا، والتَّلْطِيفِ لَهَا لئلاَّ يكونَ كالشَّيءِ المُعَادِ المَمْلُول.

فَمَا كَانَ من التَّشْبيه صَادقاً قلتَ فِي وَصْفِهِ: كأنَّه، أَو قلتَ: كَكَذَا، وَمَا قاربَ الصَّدق قلتَ فِيهِ: تَراهُ أَوْ تَخَالُه أَوْ يَكَادُ. فَمن التَّشبيه الصَّادق قَولُ امريءِ القَيْس:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا والنُّجومُ كأَنها   مَصَابيحُ رُهْبان تُشَبُّ لقُفَّال

فَشَبَّهَ النجومَ بمصابِيحِ رُهْبَان لفرطِ ضِيَائها، وتعهُّدِ الرُّهْبان لمصَابيحِهِم وقيامهمْ عَلَيْهَا لتُزْهِرَ إِلَى الصُّبْح، فكذَلكَ النُجومُ زَاهرةُ طُولَ اللَّيلِ، وتَتَضاءَلُ للصَّبَاح كَتَضَاؤُلِ المَصَابيح لَهُ.

وَقَالَ: "تُشَبُّ لقُفَّال" لأنَّ أَحْيَاءَ العَرَب بالبَادِية إذَا قَفَلَتْ إِلَى مَوْضِعِها الَّتِي تأْوِي إِلَيْهَا من مَصيفٍ إِلَى مَشْتىً، وَمن مَشْتىً إِلَى مَرْبع، أَوقدتْ لَهَا نِيرانُ على قَدْر كَثْرِة مَنَازِلها وقِلَّتها ليهْتَدُوا بهَا، فَشَبَّهَ النُّجومَ ومواقِعها من السَّماء بتَفَرق تلكِ النّيران واجتماعِها فِي مكانٍ بَعْدَ مكان، على حَسَب مَنَازِل القُفَّالِ من أَحْيَاءِ العَرَبِ، ويُهْتَدَى بالنُّجوم كَمَا تَهْتَدي القُفَّالِ بالنّيران المُوقدَةِ لَهم. . ."

وعن منزلة التشبيه يقول علامة المغرب القاضي عياض (ت/ ٥٤٤ هـ) حين شرحه ما تضمن "حديث أم زرع" المشهور من جميل التشبيه: [88]

"والتَّشبيهُ أحدُ أبوابِ البلاغةِ، وأبدعُ أفانِينِ هذِه الصّناعةِ، وهو موضوعٌ للجلاءِ والكشفِ، والمُبالغةِ في البيانِ والوصفِ، والعبارةِ عَنْ الخَفِيّ بالجلِيّ، والمُتوهَّمِ بالمحسُوس، والحقيرِ بالخطِيرِ، والشَّيءِ بما هو أعظمُ منه وأحسنُ، أو أخَسُّ وأدونُ، وعن القليلِ الوُجودِ بالمألُوفِ المعهُودِ؛ وكلُّ هذا لتأكِيدِ البيانِ، والمُبالغةِ في الإيضاحِ؛ فانظرْ أينَ قولُ القائِل: الَّذين كفرُوا أعمالُهم لا ينتفِعونَ بها، مِنْ قولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية [النور/39].

وتأمّلْ بَوْنَ ما بين الموضِعيَن مِنَ البيانِ، وفرقَ ما بينَ الكلامَيْنِ في الإيضاحِ، وإنْ كانَ الغرضُ واحدًا والموضوعُ سواءً. وكذلك قولُ امرأةٍ: زوجي بخِيلٌ، لا يُوصَلُ إلى شيءٍ مِمَّا عندَه، وبينَ كلامِ هذِه المرأةِ المُتكلَّمِ عليه. [89] ووَجْهُ بلاغةِ التَّشبيهِ:

– ما فيه مِنَ الجلاءِ والإيضاحِ، كما قدَّمناهُ، وأكثرُ تشبيهاتِ الكتابِ العزيزِ مِنْ هذا النَّمطِ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية [النور/ 35]. و﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف/ 45] الآية.

---

[88] "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد"، المحقق: أيمن بن حامد الدسوقي، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م، الناشر: دار الذخائر.

[89] إشارة الى قول إحدى النسوة في هذا الحديث: "زَوجي لحم جمل غثّ على رَأس جبل وعر، لا سمين فيرتقي إِلَيهِ وَلَا سهل فَينتَقل". أي أنه قليل الخير كما شرحه القاضي هنا.

والحديث بطوله رواه الامام مسلم بعنوان "بَابُ ذِكْرِ حَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ" رقم (2448) بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.. ولغرابة ألفاظ الحديث ومعانيه شرحه جهرة من العلماء، وعلى راسهم القاضي عياض بكتابه القيم "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد"..

– أو لِمَا فيه منَ المُبالغةِ والغُلُوِّ، وهو مِنْ أبوابِ البلاغةِ، ومرجعُهُ إلى البيانِ والإيضاحِ، كتسميةِ الشَّيءِ بما هو أعظمُ منه وأكبرُ، نحو قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن/24].

– أو أفضلُ مِنه وأحسنُ، كقولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 58].

أو أحقرُ مِنه وأدْونُ، كقولِهِ: ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: 176] الآية.

– أو لِمَا فيه مِنَ التَّخريجِ والتَّوليدِ لغريبِ الشَّبهِ ومَخِيلةِ المِثالِ، وهو وجهُ بلاغتِهِ، كقولِ ابي العلاءِ المعَرّي في كفِّ الثُّرَيَّا:

كَأَنَّ يَمِينَها سَرَقَتْكَ شَيْئًا وَمَقْطُوعٌ عَلَى السَّرْقِ البَنَانُ

– وقد يقعُ تشبيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ تشبيهًا مُجرَّدًا؛ لِضَرْبٍ منَ الشَّبهِ، ليس في شيءٍ منَ الأبوابِ المُتقدّمةِ، كقولِ امرئِ القيس:

كَأَنَّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْبًا ويَابِسًا لدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

لكِنَّه يلحقُ بنوعِ التَّوليدِ والتَّخريجِ، الَّذي بلاغتُهُ الفِطنَةُ لإِدْراكِ التَّشبيهِ لا غَيْرَ، وصِدقِه فيه، وإنْ كانَ لبعضِهِم في هذا البيتِ مَقالٌ لا أرتضِيه. ولابُدَّ أنْ يكونَ التَّشبيهُ صادِقًا من الوجهِ الَّذي وقع به التَّشبيهُ، وإلَّا اختلَّ به الكلامُ، وهذِه المرأةُ قد شبَّهتْ بُخلَ زوجِها، وأنَّه لا يُنالُ ما عندَه، مع شراسةِ خُلُقِهِ، وكِبْرِ نفسِهِ، بِلَحمِ الجملِ الغثِّ، على رأسِ الجبلِ الوَعْثِ؛ فشبَّهَت وُعُورَةَ خُلُقِهِ بوُعُورةِ الجبلِ، وبعدَ خيرِهِ ببُعدِ اللحمِ على رأسِهِ، والزُّهدَ فيما يُرجى منه لِقلّتِهِ وتعذّرِهِ بالزُّهدِ في لحمِ الجملِ الغثِّ، فأعطَتْ التَّشبيهَ حقَّه، ووَفَّتْهُ قِسْطَهُ، وهذا مِنْ تشبيهِ الجَلِيّ بالخَفِيّ، والمُتَوَهَّمِ بالمحسوسِ، والحقيرِ بالخطيرِ..."."

فالسر في تأثير التشبيه القوي في النفوس –إذن– هو أن الصورة فيه تبرز المعنى الخفي في هيأة محسوسة واضحة جلية، تطمئن إليها النفس وتأنس لها، فمهما عبرت عن المعنى بعبارة تؤديه وتبالغ فيه، فإنك لن تبلغ به ما يبلغه عن طريق التشبيه، فلو حاولت وصف يوم مثلاً بالقِصر، فقلت: "يوم كأقصر ما يتصور"، فإن السامع لن يجد في الأسلوب ما يجده في قوله:

ظَلِلْنَا عِنْدَ دَارِ أَبِي أَنِيسٍ بِيَوْمٍ مِثْلِ سَالِفَةِ الذُّبَابِ

حيث شبهه في قصره بعنق الذبابة. وشبهه آخر بإبهام طائر فقال:

وَيَوْمٍ كَإِبْهَامِ القَطَاةِ مُزَيَّنٍ إلى صِبَاه غَالِبٍ لِيَ بَاطِلُهُ

وكذلك إذا كنت مع صاحب لك يسعى في أمر، وأنت تريد أن تقرر له أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدكَ في الماء ثم قلت له: "انظر هل حصل في كفي من الماء شيء"؟ فكذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب من التأثير في النفس، وتمكين للمعنى في القلب زائد على القول المجرد من التشبيه.

وعلى الجملة فإن من بلاغة التشبيه: أنه يبرز المعنى في صورة واضحة جلية محسوسة مألوفة للنفس، في عبارة موجزة قوية مؤكدة. والتشبيه يشترك في هذه الخصيصة مع الاستعارة، لأنها كما قلنا مبنية عليه، ومع الكناية، كقوله تعالى على لسان زكرياء عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ (مريم/ 4) لأَنَّ وهن العظم كناية عن تقدمه في السن حتى لان عظمه. وكذلك اشتعال الرأس بالشيب، فيه مجاز بالاستعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نقل اليه بَانَ المعنى لِما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب عندما

يأخذ في الرأس شيئًا فشيئًا حتى يحيله إلى غير لونه الأوّل، كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله إلى غير حالته الأولى؛ وليس يخفى على المتأمّل أن قوله عزّ وجلّ: "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً" أبلغ من: "كثر شيب الرأس"، وهو حقيقة هذا المعنى. وأن قوله "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً"، أبلغ من قوله: "اشتعل شيب الرأس"، لأنه يفيد الشمول، وكأن رأس سيدنا زكرياء عليه السلام أصبح كله أبيض، كما نقول: "اشتعل البيت نارا" لإفادة العموم أيضا. وليس كذلك لو قلنا اشتعل نار البيت!

ثم تطور أمر التشبيه في الأدب، ولم يعد في العصور العباسية وما بعدها مجرد نقل ما يقع تحت دائرة الحس والوجدان بل صار أقرب الى الاستمتاع بالصورة التشبيهية، نلمس ذلك عند ابن الرومي او ابن المعتز أو مسلم بن الوليد او أبي تمام الذي دخلت الصنعة الفنية في تشبيهاته. ودراسة التشبيه في مجتمع ما تعطينا صورة صادقة عن البيئة والحياة التي أنشأته حضرية كانت أم بدائية.

وللصورة التشبيهية في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف منزلة كبيرة –كما بين القاضي عياض قبل قليل– وهي وسيلتهما المفضلة في كثير من الأحيان لإبراز المعاني الشرعية أو الأخلاقية، أو وصف مشاهد في عالم الغيب أو الشهادة، لما للتشبيه من خصائص تُخرج النفس من خفي إلى جَلِيٍّ ومما لا تعرفه الى ما هي به أَعْرَف وآَنس. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تؤتى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

قال جار الله الزمخشري (ت/ 538هـ): [90]

"ولضرب العرب الأمثالَ واستحضار العلماءَ المثلَ والنظائرَ شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريكَ المتخيَّلَ في صورة المحقّق، والمتوهَّمَ في معرض المتيقن، والغائبَ بأنه مشاهد، وفيه تبكيتٌ للخصم الألد، وقمعُ لسَورة الجامح الآبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثالَه، وفشَت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ومن سور الإنجيل "سورة الأمثال" .

وقال الْحَسَنُ بْنِ خَلَّادٍ الرَّامَهُرْمُزِيُّ (ت ٣٦٠هـ) في بداية كتابه "أمثال الحديث": [91]

"هَذَا ذِكْرُ الْأَمْثَالِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ عَلَى خِلَافِ مَا رُوِّينَاهُ مِنْ كَلَامِهِ الْمُشَاكِلِ لِلْأَمْثَالِ الْمَذْكُورَةِ عَنْ مُتَقَدِّمِي الْعَرَبِ، فَإِنَّ تِلْكَ تَقَعُ مَوَاقِعَ الْإِفْهَامِ بِاللَّفْظِ الْمُوجَزِ الْمُجْلِ، وَهَذِهِ بَيَانٌ وَشَرْحٌ وَتَمْثِيلٌ يُوَافِقُ أَمْثَالَ التَّنْزِيلِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا وَأَوْعَدَ، وَحَرَّمَ وَأَحَلَّ، وَرَجَّى وَخَوَّفَ، وَقَرَّعَ بِهَا الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَهَا مَوْعِظَةً وَتَذْكِيرًا ، وَدَلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ مُشَاهَدَةً وَعِيَانًا وعَاجِلًا وَآجِلًا، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى

---

[90] "الكشاف"، 72/1 .

[91] ص/8، ت. أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هج.

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ثم نقل عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قوله: «حَفِظْتُ عَنِ النَّبِيِّ أَلْفَ مَثَلٍ» .

جـ – التشبيه بين الحقيقة والمجاز:

حكى الخلافَ في ذلك يحي بن حمزة العلوي (ت/745هـ) فبيَّن ان البلاغيين انقسموا حول هذه القضية الى فريقين كبيرين: [92]

– الأول يرى أن التشبيه معدود من جملة المجازات، وهذا الذي يشير إليه كلام ابن الأثير، وحجته على ذلك أن قولنا: "زيد أسد" إذا كان معدودا في المجاز باتفاق علماء البيان، فيجب في قولنا: "زيد كالأسد شجاعة"، أن يعد في المجاز أيضا، إذ لا تفرقة بينهما إلا من جهة ظهور الأداة، وظهورها إن لم يزده قوة ودخولا في المجاز لم يكن مخرجا له عن المجاز، ولأن التمثيل إذا كان معدودا في المجاز في نحو قولنا: "فلان يُقَدِّمُ رجلا ويؤخر أخرى"، يقال للمتحير في أمره"، فهكذا حال التشبيه أيضا .

– الثاني ينكر كونه من المجاز، كما حُكي عن المطرزي وعبد الكريم وغيرهما، وحجتهم: أن المجاز استعمال اللفظ في غير موضوعه الأصلي. [93]

وذهب الى هذا عبد القاهر الجرجاني الذي يقول:

---

92 "الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" 137/1، المكتبة العصرية بيروت الطبعة الأولى، 1423 هج.

93 "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، ص/ 240، قرأه وعلق عليه: الأستاذ أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة.

". . .وهكذا كل متعاطٍ لتشبيهٍ صريحٍ، لا يكون نَقْل اللفظ من شأنه ولا مِن مُقتضى غرضه، فإذا قلت: زيد كالأسد، وهذا الخبر كالشمس في الشهرة، وله رأيٌ كالسَّيف في المضاء، لم يكن منك نقلٌ للفظِ عن موضوعه، ولو كان الأمر على خلاف ذلك وجب ألا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز، وهذا مُحالٌ، لأن التشبيه معنًى من المعاني وله حروف وأسماءٌ تدلّ عليه (ادوات التشبيه)، فإذا صُرّح بذلك ما هو موضوع للدلالة عليه، كان الكلام حقيقةً كالحكم في سائر المعاني فاعرفه". والمختار عند العلوي كون التشبيه معدودا في علوم البلاغة، لما فيه من الدقة واللطافة، ولما يكتسب به اللفظ من الرونق والرشاقة سواء أكان معدوداً في المجاز أم غير معدود.

ثانيا: مفهوم التشبيه عند البلاغيين وأركانه

1–مفهوم التشبيه لغةً واصطلاحاً:

– مفهوم التشبيه في اللغة:

جاء في لسان العرب (مادة شبه): شبه: الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، وَالْجَمْعُ أَشْباهٌ. وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: مَاثَلَهُ. وَفِي الْمَثَل: "مَنْ أَشْبَه أَباه فَمَا ظَلَم". . . وَبَيْنَهُمَا شَبَه، وَالْجَمْعُ مَشَابهُ عَلَى غَيْرِ قِيَاس. وأَشْبَهْتُ فُلَانًا وشابَهْتُه واشْتَبَه عَلَيَّ وتَشابَه الشيئَانِ واشْتَبَها: أَشْبَهَ كلٌ واحدٍ مِنْهُمَا صاحِبَه. . . والتَّشْبِيهُ: التَّمْثِيلُ.

– مفهوم التشبيه اصطلاحاً:

وللتشبيه في اصطلاح البلاغيين تعريفات شتى، وإن اختلفت لفظا فإنها متفقة معنى. فأبو هلال العسكري (المتوفى نحو 395هـ)، يحدثنا عن التشبيه فيقول:

«التشبيه: الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه، وذلك قولك: «زيد شديد كالأسد»، فهذا القول هو الصواب في العرف وداخل في محمود المبالغة، وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد على حقيقته. . .ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابهه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس، ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما ولا عظمهما، وإنما شبّه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحُسن. وعلى هذا قول الله عز وجلّ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾، إنما شبّه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيءُ الشيءَ من جميع جهاته لكان هو هو». [94]

والتشبيه كما يفهم من اصطلاح متأخري البلاغيين هو:

"الدلالة على مشاركة أمر (المشبه) لآخر (المشبه به) في معنى (وصف) أو أكثر (وجه الشبه)، بواسطة أداة (ملفوظة أو مقدرة) لغرض بلاغي". [95]

كما في الآية السابقة: ﴿وله الجوارِ المُنشآتُ في البحرِ كالأعلام﴾، حيث شاركت المراكب الضخمة الجارية في البحر مرفوعةً قِلاعُها الجبالَ الشاهقة في معنى أو وصف مُشْتَرك بينهما هو: العِظم أو الارتفاع، أو فيهما معاً، ورُبط ذلك بواسطة أداة حرفية ملفوظة هي الكاف. والغرض بيان الحال، وهو لا يذكر صراحة بل يفهم من السياق.

---

[94] "الصناعتين"، ص/ 239، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري. المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ

95 "علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع"، ص/230، لأحمد بن مصطفى المراغي.

وقد استهوى هذا التشبيه الشعراء فاقتبسوه، [96] **قال ابن الرومي (221 – 283 هـ) في رثاء مدينة البصرة وقد سُلّط عليها الزّنج، فعاثوا فيها فساداً:**

أين فُلْكٌ فيها وفُلْكٌ إليها مُنشآتٌ في البحر كالأعلام؟

أين تلك القصورُ والدورُ فيها أين ذاكَ البنيانُ ذو الإحكام؟

اقتبس الشاعر الآية الكريمة وحلى بها شعره وقواه، فلم يجد وصفا لسفن نهر البصرة –وهي تغدو تروح – سوى وصف القرآن الكريم. والاستفهام في البيتين معا ليس على حقيقته بل خرج الى التحسر، لان الشاعر يتحسر على أيام السرور التي شهدتها المدينة قبل خرابها !

.

96 الاقتباس: هو أن يضمن الكلام –نثرًا كان أو نظمًا– شيئًا من القرآن أو الحديث، او من الأمثال السائرة، أو الحِكَم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله. ويحسن أن يمهد للمقتبس، بحيث يكون مندمجًا في الكلام اندماجًا تامًّا. وإذا كان لحق الاقتباس من القران والحديث تحريف في المعنى، أو سوء أدب فهو ممنوع، ويأثم به المقتبس. والاقتباس نوعان:

1– ما لا ينتقل فيه الكلام المقتَبس عن معناه الأصلي، كقول ابن الرومي الذي استشهدنا به. وكقول الحريري صاحب المقامات: "فلم يك إلا كلمحِ البَصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب".

2– ما ينتقل فيه المقتبس من معناه الأصلي، كقول ابن الرومي ايضا:

لئن أخطأتُ في مَدحِـــك ما أخطأتَ في مَنعي

لقد أنزلتُ حاجاتي بــوادٍ غَـيــر ذي زَرع

فإن معنى "واد غير ذي زرع" في القرآن الكريم: المكان الجدب، فنقله الشاعر من هذا المعنى إلى جانب لا خير فيه.

2- أركانُ التشبيه

وأركان التشبيه على هذا أربعة هي: المشبه والمشبه به، ويسميان طرفي التشبيه، ووجه الشبه، وأداة التشبيه، أما الغرض فيفهم من السياق. وسنفصل الحديث عن هذه الأركان في الصفحات القادمة بعون الله تعالى، مشفوعة بشواهد منتقاة من كلام الله تعالى معدن البلاغة والبيان، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، ومن الأدب العربي الرفيع شعره ونثره.

الركن الأول: المشَبَّه

وهو الشيء الذي يُراد توضيحه وجلاء صورته بإلحاقه بالأمر الآخر، فهو العنصر الرئيس في الصورة التشبيهية، وبقية العناصر تُجلب لخدمته إلا في التشبيه المقلوب كما سنرى. ويغلب ظهور المشبه في الصورة ولكنه قد يُحذف للعلم به على أن يكون مقدَّرا في الإعراب.

۞ كما في قوله تعالى عن المنافقين:

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ. مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ. صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فهم لا يرجعون﴾ . [البقرة 16/18] [97]

97 جاء في المحرر الوجيز لابن عطية:

واختلفت عبارة المفسرين عن معنى قوله: اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهدى فقال قوم: «أخذوا الضلالة وتركوا الهدى» .

وقال آخرون: استحبوا الضلالة وتجنبوا الهدى كما قال تعالى: فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى [فصلت: 17] .

في قوله تعالى: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ" تشبيهات ثلاثة بليغة على بعض الأقوال، حذف منها وجه الشبه وأداة التشبيه، وحذف المشبه فيها على نية تقديره، أي هم صم، هم بكم، هم بكم.

وقال أبو حيان الأندلسي (ت/ 745هـ) في تفسير الآية وتوجيه نوع الحذف فيها: [98] "وَهُوَ عَلَى إِضْمَارِ مُبْتَدَأٍ تَقْدِيرُهُ هُمْ صُمٌّ، وَهِيَ أَخْبَارٌ مُتَبَايِنَةٌ فِي اللَّفْظِ وَالدَّلَالَةِ الْوَضْعِيَّةِ، لَكِنَّهَا فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ واحد، إذ يؤول مَعْنَاهَا كُلُّهَا إِلَى عَدَمِ قَبُولِهِمُ الْحَقَّ وَهُمْ سُمَعَاءُ الْآذَانِ، فُصَّحُ الْأَلْسُنِ، بُصَرَاءُ الْأَعْيُنِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُصِيخُوا إِلَى الْحَقِّ وَلَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ، وَلَا تَلَمَّحُوا أَنْوَارَ الْهِدَايَةِ، وُصِفُوا بِمَا وُصِفُوا مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى، وَقَدْ سُمِعَ عَنِ الْعَرَبِ لِهَذَا نَظَائِرُ، ومنها:

وقال آخرون: الشراء هنا استعارة وتشبيه، لما تركوا الهدى وهو معرض لهم ووقعوا بدله في الضلالة واختاروها شبهوا بمن اشترى فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم إذ كان لهم أخذه. . وقال قوم: الآية فيمن كان آمن من المنافقين ثم ارتد في باطنه وعقده ويقرب الشراء من الحقيقة على هذا.

وقوله تعالى: "فما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ" ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء، وأسند الربح إلى التجارة كما قالوا: «ليل قائم ونهار صائم»، والمعنى فما ربحوا في تجارتهم. (انتهى قول ابن عطية).

ونُلاحِظُ في هذهِ الآيَةِ الكريمة مجازا لغويّا: أي استعارة تصريحية تبعية. استعيرت التجارة للدلالة على أخذهم الضلالة وتركهم الهدَى، كما يفعل التجّار عند البيع والشراء، فيكون اشتروا بمعنى اختاروا. .

ووقع في الاية مجاز عقلي أيضا بالإسناد الذي حصَل في الجملة، فبَدَل أنْ يُسْنَد نفيُ الرّبح إلى المنافقين أُسْنِدَ إلى تجارتهم، أي: إلى أخذهم الضلالة وتركهم الهدى، فلم يكن عملهم سبباً لربحهم، بل كان سبباً لخسارتهم! أمّا القرينة فعقليّة، إذ التّجارة ليست ما يربح أو يخسر، بل الرابح أو الخاسر هو صاحبها.

والآية أيضا استعارة مرشحة عند البلاغيين، فإنه استعار الاشتراء للاختيار، وقفاه بالربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الاشتراء؛ فنظر إلى المستعار منه. وهذه أقوى عندهم من المجردة التي خلت من الترشيح.

98 "البحر المحيط في التفسير" 133/1، تحيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة سنة ١٤٢٠ هج.

أَعْمَى إذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدْرُ
وَأَصُمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا أُذُنِي وَمَا فِي سَمْعِهَا وَقْرُ

وَهَذَا مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ، وَلَيسَ مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ، لِأَنَّ الْمُسْتَعَارَ لَهُ مَذْكُورٌ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ. وَالِاسْتِعَارَةُ إِنَّمَا تُطْلَقُ حَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ الْمُسْتَعَارِ لَهُ وَيُجْعَلُ الْكَلَامُ خُلُوًّا عَنْهُ، صَالِحًا لِأَنْ يُرَادَ بِهِ الْمَنْقُولُ عَنْهُ وَالْمَنْقُولُ إِلَيْهِ، كَقول زهَيْرٍ:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

وَحُذِفَ الْمُبْتَدَأُ هُنَاكَ لِذِكْرِهِ، فَلَا يُقَالُ: إِنَّهُ مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ، إِذْ هُوَ كَقَوْلِ الشاعر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

وَالْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى هُوَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، وَذَلِكَ لِعَدَمِ قَبُولِهِمُ الْحَقَّ. وَقِيلَ: وَصَفَهُمُ اللهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَعَاطَوْنَ التَّصَامُمَ وَالتَّبَاكُمَ وَالتَّعَامِيَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا مُتَّصِفِينَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَنَبَّهَ عَلَى سُوءِ اعْتِمَادِهِمْ وَفَسَادِ اعْتِقَادِهِمْ. وَالْعَرَبُ إِذَا سَمِعَتْ مَا لَا تُحِبُّ، أَوْ رَأَتْ مَا لَا يُعْجِبُ، طَرَحُوا ذَلِكَ كَأَنَّهُمْ مَا سَمِعُوهُ وَلَا رَأَوْهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ (لقمان/7)، "وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ" (فصلت/5).

قِيلَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أُرِيدَ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالْبَلَادَةِ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْبَهَائِمِ، وَأَشْبَهُ حَالًا مِنَ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَتَكَلَّمُ وَلَا تُبْصِرُ. فَمَنْ عُدِمَ هَذِهِ الْمَدَارِكَ الثَّلَاثَةَ كَانَ مِنَ الذَّمِّ فِي الرُّتْبَةِ الْقُصْوَى، وَلِذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ، عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمُبَالَغَةَ فِي ذَمِّ آلِهَةِ أَبِيهِ قَالَ: "يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا"؟ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى اعْتِقَادِ

أَنَّهُ خَبَرٌ أُرِيدَ بِهِ الدُّعَاءُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ قَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ. قَالَ: دُعَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى جزَاءً لَهُمْ عَلَى تَعَاطِيهِمْ ذَلِكَ، فَحَقَّقَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى مَا يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قَوْلِهِ: "وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا".

وقوله تعالى: "فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ": هذا إخبارٌ من الله جل ثناؤه عن هؤلاء المنافقين – الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدَى، وَصممِهم عن سَماع الخير والحق، وَبكمَهم عن القيل بهما، وعَماهم عن إبصارهما– أنهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم، ولا يتُوبون إلى الإنابة من نفاقهم. فآيس المؤمنين من أن يبصرَ هؤلاء رشدًا، أو يقولوا حقًّا، أو يَسمعوا داعيًا إلى الهدى، أو أن يذَّكَّروا فيتوبوا من ضلالتهم، كما آيس من تَوبة قادة كفّار أهل الكتاب والمشركين وأحبارهم، الذين وَصَفهم بأنه قد ختم على قلوبهم وعلى سَمعهم وغشّى على أبصارهم فهم لا يعقلون ولا يهتدون. [99]

وقد تكرر هذا المعنى في سورة البقرة نفسها، وهو قوله عز وجل:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِ ينعِقُ بِمَا لَا يَسمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَندَآءً صُمُّ بُكمٌ عُمي فَهُم لَا يعقِلُونَ﴾ [الآية/171].

أي مثل الذين كفروا ومثلنا في وعظهم، فحذف «ومثلنا» اختصارا. شبه الله تعالى الكافرين في قلة فهمهم عن الله ما يُتلى عليهم في كتابه، وسُوء قبولهم لما يدعو إليه من

[99] "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 332/1، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هـ)، توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة، بدون تاريخ نشر.

توحيد الله ويوعظ به، شبههم بالبهيمة التي ينعق (يصيح) بها راعيها، تسمع الصوتَ ولا تعقلُ ما يقال لها . ووقع المعنى على المنعوق به وهي الغنم أو غيرها، وإنما الذي ينعق الراعي، تقول: كالغنم التي لا تسمع راعيها الذي ينعق بها . والعرب تريد الشيء فتحوّله إلى شيء من سببه، يقولون: عُرض الحوض على الناقة، وإنما تعرض الناقة على الحوض، ويقولون: "أدخلتُ القَلنسوة في رأسي"، وإنما أدخلت رأسك في القلنسوة، وكذلك الخفّ. وفى القرآن: ﴿ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أصله: ما إنّ العصبة لتنوء بالمفاتح: أي تثقلها .[100]

والتشبيه في الآية الكريمة تمثيلي غرضه التشويه أو التقبيح.

ومن الشعر قول عِمْرَان بن حَطّان (ت/95 هج) [101] مخاطبا الحجاج الثقفي:

أَسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِر من صفير الصافر [102]

[100] "مجاز القرآن" 63/1، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت ٢٠٩هـ)، المحقق: محمد فواد سزگين الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

[101] عمران بن حطان من علماء الخوارج وخطبائهم وشعرائهم، أحد بني عمرو بن شيبان. وكان حين طرده الحجاج بن يوسف الثقفي –بسبب مدحه عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه– ينتقل في القبائل، فإذا نزل في حي انتسب إليه، فقال:

يوماً يمان إذا لاقيتُ ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدناني

وقيل: إن امرأته قالت له: أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط ! قال: أو فعلت؟ قالت: أنت القائل:

فهناك مَجزأة بن ثور كان أشجع من أُسامه

أفيكون رجل أشجع من الأسد ! فقال: أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة، والأسد لا يفتح مدينة.

[102] جاء في "اللسان": الفَتَخ: اسْتِرْخَاءُ الْمَفَاصِلِ ولينُها وعرْضُها؛ وَقِيلَ: هُوَ اللِّين فِي الْمَفَاصِلِ وَغَيْرِهَا؛ فَتِخَ فَتَخاً وَهُوَ أَفْتَخُوتتمة أبيات عمران بن حطان:

أي أنت او هو أسد، وأنت نعامة، فحذف المشبه هنا مرتين للعلم به.

الركن الثاني: المُشبَّه بـه

وهو عنصر تتوضح به الصفة التي يراد توضيحها في المشبه ولابد من ظهوره في الصورة، ويُشترط فيه أن يكون أعرَفَ وأكملَ وأظهر في وجه الشبه من المشبه إما حقيقة وإما ادعاء كما سنرى في التشبيه المعكوس، واشترط عبد القاهر الجرجاني أن يكون المشبه به معروفا غيرَ مُنكَرٍ في حس أو عقل حتى يوافق ذلك المقصودَ من التشبيه وهو الإيضاح والبيان.

ففي قولنا: "عليٌّ يحاكي الأسد في البأس" نجد أن المعنيَّ بالتشبيه هو علي، ومن أجل إبراز قوته جئنا بباقي الأركان، وغرضنا إسناد صفة البأس الى علي، فألحقناه بمخلوق آخر هو الأسد: أعرف وأشهر بقوته وجعلنا منه مشبها به لنُضفي على المشبه هذه الصفة المشتركة. والمشبه والمشبه به أساسان في الصورة ولا يجوز حذف المشبه منهما إلا بقرينة كما رأينا.

أمثلة التشبيهات التي ذُكر فيها الطرفان (حسيين أو معنويين):

- قال الله تعالى عن تقلب القمر في منازله:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس/ 39] [103]

هلاّ برزتَ إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبُك في جناحي طائر
صدعتْ غَزالةُ قلبَه بفوارس ... تركتْ مناظره كأمس الدابر

[103] العرجون: عود النخلة الذي فيه عناقيد الرطب، وتقتطع منه الشماريخ فيبقى على النخلة يابسا.

أي والقمرَ قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، كما قال تعالى: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)، وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعادها، فإذا كان في آخر ليلة دقّ وتقوس وانحنى حتى صار كغصن النخلة اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس.

فقد شُبه القمر في آخر منازله بالعرجون في دقته وتقوسه (اعوجاجه)، وهو وجه الشبه المفرد، والطرفان حسيان. والأداة حرفية (الكاف)، وقد توسطت الطرفين المشبه والمشبه به.

- وقال عزّ وجل يصف هلاك قوم عاد في سورة "القمر":

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [104]

الواو) في الآية عاطفة. (القمر) على قراءة النصب: مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده أي أنزلنا– أو خلقنا– (منازل): مفعول به ثان منصوب بتضمين قدّرنا معنى صيّرنا، وذلك بحذف مضاف أي ذا منازل. فعلى قراءة النصب يكون من باب الاشتغال. . أو هو حال منصوب على حذف مضاف أيضا، والتقدير: ذا منازل. وعلى قراءة الرفع: (والقمرُ)، فهو مبتدأ وخبره قدرناه، أو يكون محذوفاً وتقديره وآية لهم القمر، كما في قوله في الآيات الأخرى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا... ﴾ و ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ...﴾

[104] الصرير: من صرّ الطائر أو الجندب أو الباب أو نحو ذلك يصِرّ إذا صَوّت وصاح أشد الصياح.

عاد أو بنو عاد قبيلة عربية من أحفاد نوح عليه السلام، سكنوا "الأحقاف" في الجزيرة العربية، كما قال تعالى في سورة تحمل الاسم نفسه: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . لكنهم تجبروا وعصوا رسولهم الكريم هودا عليه السلام.

وهم أول من عبدوا الأوثان بعد قوم نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ .

يقول تعالى: إنا بعثنا على عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بالله ريحاً صرصرا، وهي الشديدة العُصوف في برد، التي لصوتها صرير، وهي مأخوذة من شدة صوت هبوبها إذا سمع فيها، كهيئة القائل: صرّ، فقيل منه: صرصر، كما قال تعالى: " فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ "، مِن فكبُّوا. و "فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ" أي يوم شرّ وشؤم، استمرّ بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافى بهم جهنم. اي كأن عاداً قومَ هود –عقابا لهم بسبب جحودهم– حين تُقلعهم الريح من الحفر التي اندسوا فيها لتقيهم شر ذلك اليوم، وترميهم صرعى فتبقيهم أجسادا بلا رؤوس ـ كأنهم أصول نخل منقلع من مغارسه أي المقطوع من أُصُوله. ولفظ النخل يذكر ويؤنث ولذلك قيل هنا "أعجاز نخل منقعر"، وفي سورة الحاقة (أعجاز نخل خاوية) .

وهذا التشبيه التمثيلي فيه بيان قد أُخرج ما لم تجْرِ به عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمع المشبه والمشبه به في قلع الريح وإهلاكها لهما، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة، وهي صورة في غاية السوء والزراية.

ونوجز هنا ما قاله الرازي (ت ٦٠٦هـ) عن بعض مسائل الآيات الشريفة: [105]

– قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً، وقال في الطور: ﴿وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذَّارِيَاتِ: 41] فَعَرَّفَ الرِّيحَ هُنَاكَ وَنَكَّرَهَا هُنَا لِأَنَّ الْعُقْمَ فِي الرِّيحِ أَظْهَرُ مِنَ الْبَرْدِ الَّذِي يَضُرُّ النَّبَاتَ أَو الشِّدَّةَ الَّتِي تَعْصِفُ الْأَشْجَارَ لِأَنَّ الرِّيحَ الْعَقِيمَ هِيَ الَّتِي لا تُنْشِئُ سَحَابًا وَلَا تُلَقِّحُ شَجَرًا وَهِيَ كَثِيرَةُ الْوُقُوعِ، وَأَمَّا الرِّيحُ الْمُهْلِكَةُ الْبَارِدَةُ فَقَلَّمَا تُوجَدُ، فَقَالَ: الرِّيحَ الْعَقِيمَ أَيْ هَذَا الْجِنْسَ الْمَعْرُوفَ، ثُمَّ زَادَهُ بَيَانًا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، فَتَمَيَّزَتْ عن الرياح العقم، وَأَمَّا الصَّرْصَرُ فَقَلِيلَةُ الْوُقُوعِ فَلَا تَكُونُ مَشْهُورَةً فَنَكَّرَهَا .

– وَقَالَ هُنَا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ وقال في السجدة: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 16]، وَقَالَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الْحَاقَّةِ: 7]، وَالْمُرَادُ مِنَ الْيَوْمِ هُنَا الْوَقْتُ وَالزَّمَانُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مَرْيَمَ: 33]. وَقَوْلُهُ: "مُسْتَمِرٍّ" يُفِيدُ مَا يُفِيدُهُ الْأَيَّامُ لِأَنَّ الِاسْتِمْرَارَ يُنْبِئُ عَنْ إِمْرَارِ الزَّمَانِ كَمَا يُنْبِئُ عَنْهُ الْأَيَّامُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ مَعَ اتِّحَادِ الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْحِكَايَةَ هُنَا مَذْكُورَةٌ عَلَى سَبِيلِ الِاخْتِصَارِ، فَذَكَرَ الزَّمَانَ وَلَمْ يَذْكُرْ مِقْدَارَهُ وَلِذَلِكَ لَمْ يَصِفْهَا . .

[105] "مفاتيح الغيب"، 304/29 وما بعدها، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة 3 – ١٤٢٠ هـ

- مَا مَعْنَى مُسْتَمِرٍّ؟ نَقُولُ فِيهِ وُجُوهٌ، الْأَوَّلُ: مُمْتَدٌّ ثَابِتٌ مُدَّةً مَدِيدَةً مِن اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ إِذَا دَامَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾ [فصلت/ 16] لِأَنَّ الْجَمْعَ يُفِيدُ مَعْنَى الِاسْتِمْرَارِ وَالِامْتِدَادِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: "حُسُوماً" [الْحَاقَّةِ/7]. الثَّانِي: شَدِيدٌ مِنَ الْمِرَّةِ كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ فِي قَوْلِهِ: "سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ" [الْقَمَر: 2] وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ أَيَّامُ الشَّدَائِدِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عذابَ الخِزيِ﴾ [فصلت: 16] فإنه يذيقهم المرَّ المُضِر من العذاب. .

- وقَالَ هَاهُنَا: "مُنْقَعِرٍ" فذَكَّرَ النَّخْلَ، وَقَالَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ فَأَنَّثَهَا، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فِي تِلْكَ السُّورَةِ كَانَتْ أَوَاخِرُ الْآيَاتِ تَقْتَضِي ذَلِكَ لِقَوْلِهِ: مُسْتَمِرٍّ وَمُنْهَمِرٍ وَمُنْتَشِرٌ وَهُوَ جَوَابٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَمَا يُزَيَّنُ بِحُسْنِ الْمَعْنَى يُزَيَّنُ بِحُسْنِ اللَّفْظِ. وَيُمْكِنُ أن يقال النَّخْلِ لفظُهُ لَفْظُ الْوَاحِدِ، كَالْبَقْلِ وَالنَّمْلِ وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الْجَمْعِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ: نَخْلٌ مُنْقَعِرٌ وَمُنْقَعِرَةٌ وَمُنْقَعِرَاتٌ، وَنَخْلٌ خَاوٍ وَخَاوِيَةٌ وَخَاوِيَاتٌ، وَنَخْلٌ بَاسِقٌ وَبَاسِقَةٌ وَبَاسِقَاتٌ.

وقال الله تعالى في سورة القارعة:

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

شبه خروج الناس من قبورهم وتطايرهم إلى الداعي يوم القيامة، حين يدعوهم الى المحشر، بالفراش المتطاير الى النار، في كثرتهم وانتشارهم واضطرابهم وذِلتهم، وشبه الجبال بالصوف المندوف في خفة طيرانه.

فهنا تشبيهان ذكر فيهما الطرفان حسيين، والاداة حرفية. وهو تشبيه مركب أو تمثيلي في الآيتين معا، حيث شبهت صورة بأخرى، لغرض تقريب هذا المشهد الغيبي الى النفوس وكأنه ماثل أمام أعيننا .

وقال عز وجل في صفة نساء الجنة:

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

[الواقعة/]: [106]

والحور جمع حَوْراء: وهي النقية بياض العين، الشديدة سوادها . والعين: جمع عيناء، وهي واسعة العين في حُسن. اي هنّ في صفاء بياضهنّ وحسنهن كاللؤلؤ المكنون (المَصون في كِنّ)، زيادة في الصون، ثواباً لهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضاً من طاعتهم ربهم.

وقال عليه الصلاة والسلام :

«إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ». [رواه احمد وغيره]. [107]

---

106 ﴿وَحُورٌ﴾ قرئ بجرّ «حور عين» إما عطفا على ﴿جَنَّاتِ النعيم﴾ كأنه قيل: هم في جنات وفاكهة ولحمٍ وحور. او عطفا على «بأكواب» وذلك بتجوُّز في قوله: «يطُوفُ» إذ معناه: يُنَعَّمُون فيها بأكواب وبكذا وبحور. أو أنه معطوفٌ عليه حقيقةً، وأن الوِلْدانَ يَطُوفون عليهم بالحور أيضاً، فإن فيه لذةً لهم، طافُوا عليهم بالمأكولِ والمشروبِ والمُتَفَكَّهِ . . .

107 قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف، وذكر أنه اختلف في رفعه ووقفه، ووقفه أصح . . .وأخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" حديث (752) من طريق عبد الواحد بن زياد، به. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" 263/1 عن عاصم الأحول، موقوفاً . وعند البيهقي في "شعب الإيمان" عن أنس،

حيث شُبه القلبُ في سرعة تقلبه وسهولة تغيره بالريشة تلعب بها الرياح كيف شاءت.
ولذلك جاء في حديث –أصح من هذا عند العلماء– وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «القلوب بين أصْبعين مِن أصابع الرَّحمن يُقَلبها كيف يشاء»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ مُصرِّف القلوب صَرِّف قلوبَنا على طاعَتك». وحيث إن الله يحول بين المرء وقلبه، وإنه لن ينجو يوم القيامة "إلا من أتى الله بقلب سليم"، وأن "الويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله"، وأن الوعد بالجنة لـ "من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب" كان لابد للمؤمن أن يتحسس قلبه، ويعرف مَكمَن الداء وسبب المرض، ويَشرع في العلاج قبل أن يطغى عليه الران فيهلك. والله قد حذرنا من القلب القاسي والمقفل والمريض والأعمى والأغلف والمنكوس والمطبوع المختوم عليه.
والتشبيه في هذا الحديث مفرد كما ترى، لأن الوجه شيء واحد لا تعدد فيه وهو سرعة التغير، وأداته الكاف وقد توسطت الطرفين المشبه والمشبه به.
۞ وقال النبي صلى الله عليه وسلم:
«مَثَلُ المنافق مثلُ الشاةِ العائِرة بين الغَنمين لا تدري أَيهما تتبع». [إسناده صحيح على شرط الشيخين].
شُبه المنافق (المشبه) في تذبذبه وعدم ثباته على مبدإ (وجه الشبه) بالشاة المترددة الحائرة بين قطيعين من الغنم لا تدري أيهما تتبع (المشبه به)؛ فلا تستقر مع إحداهما.
وهكذا حال المنافق بين المؤمنين والمشركين تبعاً لهواه وغرضه الفاسد، وفيه سلب

بلفظ: "مَثَلُ القَلْب مَثَلُ ريشةٍ بأرض فلاة تقلبها الرياح". وهو عند البزار حديث (44) بلفظ: "مَثَلُ المؤمن كمَثَلِ ريشة... " وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" 293/2.

الرجولية والمصداقية عن هذا النوع من البشر. ووجه الشبه مركب عقلي لكنه موجود حقيقة في الطرفين. وحين أُلحق حال المنافق بحال الشاة المترددة تقرّر في نفس السامعين وتأكد . والتشبيه بليغ لحذف الوجه والأداة معا . والغرض التشويه.

من أمثال المومن في الحديث النبوي الشريف وبعض أسرارها البيانية:

۞ من الأمثلة الرائعة التي ضربها ﷺ للمومن والكافر قوله:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ، مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ، صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ إِذَا شَاءَ». [صحيح البخاري، حديث رقم 7466] .

وفي رواية: «مَثَلُ المؤمن مثل الزرع، لا تزال الريح تُميله، ولا يزال المُؤمِنُ يُصيبُه البَلاءُ، وَمَثَلُ المُنافِقُ كَمَثَلِ شَجَرةِ الأَرْز لا تهتز حتى تَسْتَحْصِدَ» .[أخرجه البخاري، والترمذي] .

والخامة ما لان وضعُف من الزرع الغض، ولحوق الهاء على تأويل السنبلة. وكفأتها: أمالتها، وفي رواية كفتها، وفي رواية "تفيئها الرياح" أي تحركها وتميلها يمنة ويسرة، فالريح إذا أمالتها إلى جانب ألقت ظلها عليه. و"الأَرْزَة" بفتح الهمزة وسكون الراء ثم زاي؛ أي: شجر الصنوبر، وقيل بفتح الراء، وهو الشجر الصلب. و"الصماء" من الشجر المكتنزة التي لا تخلخل فيها . و"تستحصد": تقطع. و"حتى يقصمها الله" أي في الوقت الذي سبقت إرادته أن يقصمه فيه.

تضمن الحديث الشريف بروايتيه تشبيهين تمثيليين:

الأول: المشبه فيه حال المؤمن وأنه كثير الآلام في بدنه وأهله وماله، وهذا مكفرُ لسيئاته، رافع لدرجاته، بحال نبات غض لا يستقر على حال، لكن لا تؤثر فيه الرياح.

والتشبيه الثاني: شبه فيه حال الكافر يصمد أمام تقلبات الحياة، وإن حلَّ به شيءٌ لم يكفر بل يأتي بها تامة يوم القيامة، شبه بحال شجرة عظيمة لا تؤثر فيها الأعاصير حتى يكون قصمها دفعة واحدة.

وقَالَ نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ، لَا تَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا تَضَعُ إِلَّا طَيِّبًا، وَوَقَعَتْ فلم تَكْسِر ولم تُفسِد» [108]. وفي رواية: «مثل الْمُؤمن مثل النحلة ان أَكلتْ أَكلت طَيّبا، وان وَضَعَتْ وضعتْ طيبا، وان وَقعت على عود نخِر لم تكسره وَمثل الْمُؤمن مثل سبيكة الذَّهَب ان نَفختَ عَلَيْهَا احْمَرَّتْ وان وُزنت لم تنقص» [109].

قال ابن الأثير: ووجه الشبه حِذق النحل وفطنته وقلة أذاه، ومنفعته وقنوعه وسعيه في الليل، وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله وأنه لا يأكل من كسب غيره، وطاعته لأميره، وأن للنحل آفات تقطعُه عن عمله منها: الظلمةُ والغيم والريح والدخان والماء والنار؛ وكذلك المؤمنُ له آفات تفقره عن عمله: ظلمةُ الغفلة وغَيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام ونار الهوى. ووجه الشبه عموم النفع في الطرفين.

---

108 أخرجه أحمد (199/2) والأصبهاني في " الترغيب " (11/ 2). وأخرجه الحاكم (513/4) وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. (عَن أبي هُرَيْرَة واسناده حسن).

109 الحديث في صحيح ابن حبان –الإحسان– باب: ما جاء في صفات المؤمن في ذكر تمثيل المصطفي – صلى الله عليه وسلم – المؤمن بالنخلة ج 1 ص 233 رقم 247.

والحديث في الجامع الصغير رقم 8147 من رواية (الطبراني وابن حبان) عن أبي رزين، ورمز له المصنف بالضعف. قال المناوي: وفيه حجاج بن نصير، قال الذهبي في الضعفاء: "ضعفوه أو تركوه".

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِثْلُ النَّخْلَةِ إِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ صَاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَارَكْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ مَنَافِعُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ النَّخْلَةِ مَنَافِعُ» . وفي رواية «مثل الْمُؤمن مثل النَّخْلَة مَا أخذتَ مِنْهَا من شيء نفعك» (الطبراني، وهو صَحِيح)

ووجه الشبه عموم النفع في كلا الطرفين. وهو تشبيه مركب أيضا، المشبه هنا: حال المومن في عموم نفعه (وهو امر عقلي)، والمشبه به: حال النخلة حيث لا تحصى منافعها، فهي عَصب الحياة في بيئة العرب، لأنهم كانوا يستغلون كل شيء فيها، فأصل دين الْمُسلم ثَابتٌ ومَا يصدر عَنهُ من الْعُلُوم قوت للأرواح، ويُنْتَفع بِكُل مَا صدر عَنهُ حَيا ومَيتاً . [110]

وقال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ.» [111]

في هذا الحديث أربعة تشبيهات:

---

110 ومن هذه الامثال قوله صلى الله عليه وسلم: (مثل الْمُؤمن كَمثل الْعَطَّار ان جالسته نفعك وان مَاشيَته نفعك وان شاركته نفعك)، [الطبراني عَن أبن عمر]. وفيِهِ ارشاد الى صُحْبَة الْعلمَاء والصلحاء ومجالستهم وأنها نافعة فِي الدَّارين. . .

111 أخرجه البخاري (5520)، ومسلم (797)، والترمذي (3081)، وأبو داود (4829)، وأحمد" (19549) . ولفظ الأخيرين: "وَمَثَلُ الْفَاجِرِ" بدل المنافق. .

– شُبه في الأول منها حالُ المومن الذي يداوم على قراءة القرآن بالأُترجة وهو ثمر من جنس الليمون. والأترجة من أفضل الثمار لكبر حجمها ومنظرها وطيب طعمها ولين ملمسها، ولونها يسر الناظرين. وفيه تشبيه الإيمان بالطعم الطيب لكونه خيرا باطنيا لا يظهر لكل أحد. والقرآن بالريح الطيب ينتفع بسماعه كل أحد ويظهر بمحاسنه لكل سامع.. وقيل: خص صفة الإيمان بالطعم وصفة التلاوة بالريح لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن، فقد يمكن حصول الإيمان بدون القراءة، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه.

– وَشبه في الثاني حال الْمُؤمن الَّذِي لَا يقْرَأ الْقُرْآن بالتمرة لَا ريح لَهَا وطعمها حُلْو.

– وَشبه حال الْمُنَافِق الَّذِي يقْرَأ الْقُرْآن بالريحانة رِيحهَا طيب وطعمها مر.

– وشبه حال الْمُنَافِق الَّذِي لَا يقْرَأ الْقُرْآن كَمثل بالْحَنظلة لَيْسَ بهَا ريح وطعمها مر.

قال ابن الأثير: "وهذا من باب تشبيه المركب بالمركب، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم شبه المؤمن القارئ، وهو متصف بصفتين هما الإيمان والقراءة بالأترجة، وهي ذات وصفين، هما الطعم والريح، وكذلك يجري الحكم في المؤمن غير القارئ، وفي المنافق القارئ، وفي المنافق غير القارئ". [112]

وجاء في "عُمدة القاري" لبدر الدين العينى (ت ٨٥٥هـ): [113]

112 "المثل السائر"، باب التشبيه: 112/2

113 بتصرف من: "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" 33/20، محمود بن أحمد بدر الدين العينى (ت ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

اعلم أَن هَذَا التَّشْبيه والتمثيل فِي الْحَقِيقَة وصف اشْتَمل على معنى مَعْقُول صرف لَا يبرزه عَن مكنونة إِلَّا تَصْوِيره بالمحسوس الْمشَاهد، ثمَّ إِن كَلَام الله الْمجِيد لَهُ تَأْثِير فِي بَاطِن العَبْد وَظَاهره، وَإِن الْعباد متفاوتون فِي ذَلِك، فَمنهمْ من لَهُ النَّصِيب الأوفر من ذَلِك التَّأْثِير وَهُوَ الْمُؤمن القارىء، وَمِنْهُم من لَا نصيب لَهُ الْبَتَّةَ وَهُوَ الْمُنَافِق الْحَقِيقِيّ، وَمِنْهُم من تأثر ظَاهره دون بَاطِنه وَهُوَ الْمرَائِي أَو بِالْعَكْسِ، وَهُوَ الْمُؤمن الَّذِي لم يقرأه.

وإبراز هَذِه الْمعَانِي وتصويرها فِي المحسوسات مَا هُوَ مَذْكُور فِي الحَدِيث، وَلم يجد مَا يُوَافقهَا ويلائمها أقرب وَلَا أحسن وَلَا أجمع من ذَلِك، لِأَن المشبهات والمشبه بهَا وَارِدَة على التَّقْسِيم الْحَاضِر، لِأَن النَّاس إِمَّا مُؤمن أَو غير مُؤمن، وَالثَّانِي إِمَّا مُنَافِق صرف أَو مُلْحق بِهِ، وَالْأول إِمَّا مواظب عَلَيْهَا، فعلى هَذَا قس الأثمار الْمُشبه بهَا .

وَوجه التَّشْبِيه فِي الْمَذْكُورَات مركب منتزع من أَمريْن محسوسين: طعم وريح، وَقد ضرب النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الْمثل بِمَا تنبته الأَرْض ويخرجه الشّجر للمشابهة الَّتِي بَينهَا وَبَين الْأَعْمَال فَإِنَّهَا من ثَمَرَات النُّفُوس، فخص مَا يُخرجهُ الشّجر من الأترجة وَالتَّمْر بِالْمُؤمنِ، وَبِمَا تنبته الأَرْض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تَنْبِيها على علو شَأْن الْمُؤمن وارتفاع علمه ودوام ذَلِك، وتوقيفا على ضعة شَأْن الْمُنَافِق وإحباط عمله.

– وقَوْله: (مثل الَّذِي يقْرَأ) فِيهِ إِثْبَات الْقِرَاءَة على صِيغَة الْمُضَارع، وَفِي قَوْله: (لَا يقْرَأ) بِالنَّفْيِ لَيْسَ المُرَاد مِنْهَا حُصُولهَا مرّة ونفيها بِالْكُلِّيَّةِ بل المُرَاد مِنْهَا الِاسْتِمْرَار والدوام عَلَيْهَا، وَأَن الْقِرَاءَة دأبه وعادته وَلَيْسَ ذَلِك من هجّيراه كَقَوْلِه: "فلَان يقري الضَّيْف ويحمي الْحَرِيم" .

– وقَوْله: (كالأترجة)، بِضَم الْهمزَة وَسُكُون التَّاء الْمُثَنَّاة من فَوق وَضم الرَّاء وَتَشْديد الْجِيم وَقد تخفف، ويروى أترنجة، بالنُّون الساكنة بعد الرَّاء. وَحكى أَبُو زيد: ترنجة وترنج وترج، ووَجه التَّشْبِيه بالأترنجة لِأَنَّهَا أفضل مَا يُوجد من الثِّمَار فِي سَائِر الْبلدَان، وأجدى لأسباب كَثِيرَة جَامِعَة للصفات الْمَطْلُوبَة مِنْهَا، والخواص الْمَوْجُودَة فِيهَا فَمن ذَلِك: كبر جرمها وَحسن منظرها وَطيب مطعمها ولين ملمسها، تَأْخُذ الْأَبْصَار صبغة ولونا، فَاقِعٌ لَوْنهَا تسر الناظرين، تتوق إِلَيْهَا النَّفس قبل التَّنَاوُل، تفِيد آكلها بعد الالتذاذ بذوقها طيب نكهة ودباغ معدة وهضم، اشْتِرَاكُ الْحَواس الْأَرْبَع الْبَصَر والذوق والشم واللمس فِي الاحتظاء (الاحتفاء) بهَا، ثمَّ إِن أجزاءها تَنْقَسِم على طبائع: قشرها حَار يَابِس، ولحمها حَار وَرطب، وحماضها بَارِد يَابِس، وبرزها حَار مجفف، وفيهَا من الْمَنَافِع مَا هُوَ مَذْكُور فِي الْكتب الطبية.

– وقَوْله: (وَمثل الْفَاجِر) أَي: الْمُنَافِق. (كَمثل الحنظلة طعمها مر وَلَا ريح لَهَا)، وَوَقع فِي التِّرْمِذِيّ كَمثل الحنظلة طعمها مر وريحها مر. قيل: الَّذِي عِنْد البُخَارِيّ أحسن لِأَن الرّيح لَا طعم لَهُ إِذْ المرارة عرض وَالرِّيح عرض وَالْعرض لَا يقوم بِالْعرضِ وَوجه هَذَا بِأَن ريحهَا لما كَانَ كريها استعير للكراهة لفظ المرارة لما بَينهمَا من الْكَرَاهَة الْمُشْتَركَة. وَالْمَقْصُود بِضَرْب هذا الْمثل بَيَان علو شَأْن الْمُؤمن وارتفاع عمله وانحطاط شَأْن الْمُنَافِق وإحباط عمله...

فبين صلى الله عليه وسلم أن الإنسان قد يقرأ القرآن فيتكلم بكلام الله وهو منافق، ليس في قلبه إيمان، وآخر يكون مؤمناً قلبه، فيه من معرفة الله تعالى وتوحيده، ومحبته وخشيته ما هو من أعظم الأمور، وهو لا يتكلم بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى.

ولهذا قال جندب، وابن عمر، وغيرهما: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً، وأنتم تتعلمون القرآن، ثم تتعلمون الإيمان. [114]

الركن الثالث: وجه الشبه

هو الوصف المشترك بين الطرفين تحقيقا أو تخييلا، وهو الأمر الذي يُراد إثباته للمشبه عن طريق المشبه به. فالمعنى الجامع في قولنا: "كأنما ماءُ النهر ذائبُ اللُّجَين" هو الصفاء والإشراق، وهي صفة قائمة بالطرفين حقيقة. وأما المراد بالوجه التخييلي فهو ما لا يمكن إدراكه في الطرفين إلا عن طريق التأويل والتخييل، كقول القاضي التنوخي (278 – 342 هـ): [115]

رُبّ ليلٍ قطعتُه كَصدودٍ   وفِراقٌ ما كان فيه وَداعُ
موحِشٌ كالثقيل تَقَذَّى به العـــينُ وتأبى حديثَه الأسماعُ
وكأنَّ النجومَ بين دُجاه   سُنَنٌ لاحَ بينهنَّ ابتداعُ

فوجه الشبه في تشبيه البيت الثالث هو: الهيئة الحادثة من حصول أشياء مشرقة بيض في جوانب شيء مظلم أسود، وهي غير موجودة في المشبه به، إلا على طريق التخييل، لأنه لما كانت البدع والضلالات تجعل صاحبها كمن يمشي في الظلمة فلا

114 "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)،454/7، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م

115 قاض، أديب، شاعر، عالم أصول المعتزلة. ولد بأنطاكيّة، ورحل إلى بغداد في حداثته، فتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، وكان معتزليا. وولي قضاء البصرة والأهواز، وغيرهما. ثم أقام زمنا ببغداد، وكان من جلساء الوزير المهلبي. وزار سيف الدولة الحمداني، ومدحه. وتوفي بالبصرة. له "ديوان شعر". .

يهتدي إلى الطريق الذي تقع له به النجاة، شبهت بالظلمة وشاع ذلك حتى قيل: شاهدت سواد الكفر من جبين فلان، لتخييل أن البدعة نوع له زيادة اختصاص بسواد اللون، وبطريق العكس شُبه الهدى والعلم بالنور، واشتهر ذلك كما ورد في الحديث : «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ " .[116]

والتشبيه هنا غير صريح، بل تمثيل لابد فيه من تأويل، قال عبد القاهر الجرجاني:[117] "وذلك أن تشبيه السُّنن بالنجوم، تمثيلٌ، والشبه عقليٌّ، وكذلك تشبيه خِلافِها من البِدْعة والضلالةِ بالظُّلمة، ثم إنه عكس فشبّه النجم بالسُّنن، كما يُفعَل فيما مضى من المشاهدات، إلا أَنَّا نعلم أنه لا يجري مَجْرَى قولنا : كأن النجوم مصابيح تارةً، وكأن المصابيح نجوم أخرى، ولا مجرى قولك: كأنّ السيوف بُروق تَلَعَقّ، وكأنّ البروق سيوف تُسلُّ من أغمادها فتَبْرُق، ونظائر ذلك مما مضى. . . ومحالٌ أن يكون الأمر كذلك في التمثيل، لأن السُنَن ليست بشيء يتراءَى في العين فيشتبهَ بالنجوم، ولا ههنا وصفٌ من الأوْصاف المشاهَدة يجمع السنن والنجومِ، وإنّما يُقصد بالتشبيه في هذا الضرب ما تقدّم من الأحكام المتأوّلَة من طريق المقتضَى، فلمَّا كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهلٌ، تجعل صاحبَها في حكم من يمشي في الظُّلمة فلا يهتدي إلى الطريق، ولا يفصل الشيءَ من غيره حتى يتردَّى في مَهْواةٍ، ويعثُرَ على عدوّ قاتلٍ وآفةٍ مهلكة، لَزِم

---

116 جزء حديث صحيح عن الْعِرْبَاض بْن سَارِيَةَ قال: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ. . . فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ" .

117 "أسرار البلاغة" ص/225، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

من ذلك أن تُشبَّه بالظلمة، ولزم على عكس ذلك أن تشبَّه السُّنَّةُ والهُدَى والشريعةُ وكلُّ ما هو عِلْمٌ بالنُّور. وإذا كان الأمر كذلك، علمتَ أن طريقة العكس لا تجيء في التمثيل على حدّها في التشبيه الصريح، وأنها إذا سُلِكَت فيه كان مبنيّاً على ضرب من التأوّل والتخيُّل يخرج عن الظاهر خروجاً ظاهراً، ويبعُدُ عنه بُعداً شديداً.

فالتأويل في البيت أنه لما شاع وتُعُورف وشُهِر وصفُ السُنّة ونحوها بالبياض والإشراق، والبدعة بخلاف ذلك، كما قال النبي ﷺ: «أتيتكم بالحنيفيّة البَيْضَاء ليلُها كنهارِها»، وقيل هذه حُجَّة بيضاء، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق إنه مُظْلم، وقيل سوادَ الكفر، وظلمة الجهل، يُخيَّل أن السنن كلها جنسٌ من الأجناس التي لها إشراقٌ ونورٌ وأبيِضاض في العين، وأن البدعة نوع من الأنواع التي لها فَضْلُ اختصاصٍ بسواد اللون، فصار تشبيهه النُّجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع، على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب، أو بالأنوار وائتلاقها بين النَّبات الشديد الخضرة، فهذا كلَّه هاهنا، كأنه ينظر إلى طريقة قوله:

"وبَدا الصباح كأنّ غُرّته "[118]

في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر، إلا أنّ التأويل هناك أنه جعل في وجه الخليفة زيادةً من النور والضياء يبلغُ بها حالَ الصباح أو يزيد، والتأويل هاهنا أنه خَيَّل ما ليس بمتلوّن كأنه متلوّن، ثم بنى على ذلك. ومن هذا الباب قول الآخر:

ولقد ذكرتُكِ والظَّلامُ كأنه   يَومُ النَّوَى وفؤَادُ من لم يعشَقِ

[118] صدر بيت من قصيدة لمحمد بن وهيب، وتتمة البيت: "وَجْهُ الخَلِيفَة حينَ يُمْتَدَحُ".
وهو من التشبيه المقلوب كما سيمر معنا قريبا ان شاء الله تعالى.

لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكارهُ توصف بالسواد فيقال اسوَدَّ النهار في عيني، وأظْلمت الدنيَا عليَّ، جعل يوم النوى كأنه أعرفُ وأشهر بالسواد من الظلام، فشبَّه به، ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرُّفاً وإتماماً للصنعة، وذلك أن الغَزِل يدَّعي القَسْوة على من لم يعرف العشقَ، والقلبُ القاسي يُوصف بشدّةِ السواد، فصار هذا القلب عنده أصلاً في الكُدرة والسواد فقاس عليه، وعلى ذلك قول العامّة ليل كقلب المنافق أو الكافر، إلا أنّ في هذا شَوْباً من الحقيقة، من حيث يُتصوَّر في القلب أصل السواد، ثم يُدَّعَى الإفراط، ولا يُدَّعى في البدعة نفسُ السواد، لأنها ليس مما يتلوّن، لأن اللون من صفات الجسم، فالذي يساويه في الشبه المساواةَ التامّة قولهم أظلمُ من الكفر، كما قال ابن العميد في كتاب يُداَعبُ فيه، ويُظهر التظلّم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال " وأرغب إلى الله تعالى في أن يقرّب على القمر دَوْرَه، وينقص مسافة فَلَكه "، ثم قال بعد فصل " ويُسمعني النُعرة في قَفًا شهر رمضان، ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السحر وأظلم من الكفر " .

وإن تأوّلت في قوله: " سُنَنٌ لاح بينهنَّ ابتداعُ " أنه أراد معنى قولهم إن سوادَ الظلام يزيد النجوم حُسناً وبهاءً، كان له مذهبٌ، وذلك أنه لما كان وقوفُ العاقل على بطلان الباطل، واطّلاعُه على عوَار البدعة، وخَرْقُه الستر عن فضيحة الشُّبهة، يزيد الحق نُبلاً في نفسه، وحُسناً في مرآة عقله، جعل هذا الأصل من المعقول مثالاً للمُشاهدَ المُبصَر هناك، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون خارجاً عن الظاهر، لأن الظاهر أَن يُمثِّل المعقولُ في ذلك بالمحسوس. . .

ومما حقُّه أن يُعَدَّ في هذا الباب قولُ القائل:

كأنَّ انتضاءَ البَدْرِ من تحت غَيْمةٍ نَجَاءٌ من البأساءِ بعد وُقوعِ

وذلك أن العادة أن يُشبَّه المتخلص من البأساء بالبدرِ الذي ينحسر عنه الغمام، والشَّبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل، لا من طريق الحسّ. . . ومن جيّد ما يقَع في هذا الباب قولُ التنوخيّ في قطعة، وهي قوله:

أما ترى البردَ قد وَافَت عساكرُه وعَسكرُ الحرّ كيف انصاعَ مُنْطلقَا
فالأرضُ تحت ضَرِيب الثلج تَحْسِبُها قد أُلبست حُبُكاً أو غُشّيت وَرقَا
فانهضْ بنارٍ إلى فحْمٍ كأنهما في العين ظُلْمٌ وإنصافٌ قد اتَّفقَا

– يحدثنا الشاعر في البيت الاول عن دخول فصل الشتاء، حيث هجم البرد على الطبيعة بجيش ضخم، فانهزمت معه عساكر الصيف واستسلمت وولت من غير رجعة. وهنا استعارتان كنائيتان جميلتان، حيث شُبه اشتداد البرد وشموله الطبيعة بعسكر حط رحاله، ثم حذف المشبه به وأُبقيت بعض لوازمه أو ما يعرف به، وفي ذلك تجسيد للمعنى المراد حقق الشاعر به غرضه من الكلام، وكأننا ننظر الى هذا المشهد ونفعل به. .

– وفي البيت الثاني تشبيه مركب بديع لأن غرضه أن يصور لنا هيأة الأرض وقد عمها بياض الثلج، فهي تتلألأ وكأنها قطع نقدية فضية مشرقة منثورة على الارض أو دروع مزردة لامعة.

– المقصود في البيت الثالث –وهو موضع الشاهد– تشبيه فحم أسود يتأجج وسطه لهب منير، وهذا تشبيه أمر حسي بآخر عقلي، فلما كان الحق واضحا لائحا– فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة، وفي الظلم خلافُ ذلك – تخيلهما الشاعر شيئين لهما ابيضاضٌ واسودادٌ، وإنارةٌ وإظلامٌ، فشبّه النّارَ والفحم بهما .

ومن هذا النوع قول الشاعر ابن بابك:

وأرض كأَخلاق الكريم قَطَعْتُها وقد كَحَلَ الليلُ السّماكَ فأَبصَرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق، وكثر ذلك واستمرّ، توهّمه حقيقةً، فقابَلَ بين سعة الأرض التي هي سعة حقيقية وأخلاق الكريم. ومثله قوله في الصحراء:

وفَلا كآمالِ يَضِيقُ بها الفَتَى لَا تصْدُقُ الأوهامُ فيها قِيلا
أَقريتُها بشِمِلَّةٍ تَقْرِي الفلا عَنَقاً وتَقْرِيها الفلاةُ نُحولَا

قاسَ الفلاة (الصحراء) في السعة وهي حقيقة فيها، على الآمال، وهي إذا وُصفت بالسعة كان مجازاً بلا شبهة، ولكن لما كان يقال آمالٌ طِوال، وآمالٌ لا نهاية لها، واتسعت آماله، وأشباه ذلك، صارت هذه الأوصاف كأنها موجودةٌ فيها من طريق الحسّ والعيان.

ومن خلال الأمثلة الكثيرة التي ساقها الجرجاني يظهر لنا جليا أن وجه الشبه التخييلي يكثر في تشبيه المحسوسات بالمعقولات.

ومنه كذلك قول الشاعر أبي طالب الرّقّي (198 هـ):

ولقد ذكرتكِ والظلامُ كأنه يومُ النّوى وفؤادُ مَن لم يعْشَق
وكأن أجرامَ النجوم لوامعاً دُرَرٌ نُثِرن على بِسَاطٍ أزرق

فإنّه لمّا كانت الأوقات التي تَحدُثُ فيها المكاره توصف بالسواد، كما يقال: "اسودّت الدنيا في عينه"، جعل يوم النوى (الفراق)كأنه أشهر بالسواد من الظلام، فعرّفه به وشبّه، ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق، لأنّ من لم يعشق عندهم قاسي القلب، والقلب القاسي يوصف بشدّة السواد، فجعله أصلاً. فالشاعر شبه الظلام وهو

شيء محسوس بيوم الفراق وفؤاد الذي لا يعشق في السواد وهما معنويان، فخلع عليهما هذه الصفة المحسوسة ثم شبه بهما الظلام، وهو تشبيه مقلوب كذلك.

فإن لم يوجد وجه الشبه على هاتين الصورتين ـ الحقيقي والخيالي ـ لم يصلح جعله وجه شبه، كقولهم: "النحو في الكلام كالملح في الطعام"، كون القليل مصلحا والكثير مفسدا، ولذلك جاء وجه الشبه على الصواب في الحديث الشريف:

«أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَتَقِلُّ الْأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا كَالْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ أَمْرًا يَضُرُّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعُهُ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ» . [صحيح البخاري].

يريد أن أهل الإسلام يكثرون وتقل الأنصار وهم الذين آووه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه، وهذا أمر قد انقضى زمانه لا يلحقهم اللاحق ولا يدرك شأوهم السابق، وكلما مضى منهم واحد مضى من غير بَدل، فيكثر غيرهم ويقلون حتى يكونوا كالملح في الطعام من القلة، وهم مع ذلك لا غنى للأمة عنهم.

ووجه الشبه أن الملح بالنسبة إلى جملة الطعام جزء يسير منه، وكذلك بالنسبة للمهاجرين وأولادهم الذين انتشروا في البلاد وملكوا الأقاليم، فمن ثم قال عليه الصلاة والسلام للمهاجرين: (فمن ولي منكم) أيها المهاجرون (أمرًا يضر فيه) أي في ذلك الأمر (أحدًا أو ينفعه فليقبل . . .) وهذا مخصوص بغير الحدود.

❁ **ومن أمثلة وجه الشبه قوله سبحانه وتعالى :**

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . . . ﴾

[سورة القلم]. [119]

الصريم: المصروم، وكلّ شيء قطع من شيء فهو صريم، فالليل والصبح صريم، لأنّ كلّ واحد منهما ينصرم عن صاحبه.

وهذا تشبيه مفرد مجمل: شبه الله بستانهم الذي حُرقت ثماره ولم يبق منه شيء بظلمة الليل في سواده، عقابا لهم على منعهم حق الفقراء وتكبرا . وهو مرسل كذلك .

❁ **وقال الله تعالى في سورة البقرة عن فعل بني إسرائيل:**

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ

---

119 قال المفسرون: أصحاب هذه القصة ناس من اليمن كانت لأبيهم جنة يطعم المساكين منها، فيمسك قوت سنته ويتصدّق بالفضل؛ فلما مات أبوهم قال بنوه: والله إن كان أبونا لأحمق حين يُطعم المساكين، فأقسموا ليصرمنها صباحا، في ظلمة باقية من الليل لئلا يبقى للمساكين شيء، ولا يستثنون، أي لم يقولوا: إن شاء الله، فطرقها في الليل من أمر الله طارق وهو هلاكها، حيث سلط على مالهم نارا فأحرقته، فغدوا على مالهم ليقطعوه، فلم يروا شيئًا إلا سوادًا فقالوا: «إِنَّا لَضَالُّونَ»، ما هذا بمالنا، ثُمَّ قال بعضهم: بل هو مالنا حُرمناه بما صنعنا بالأرامل والمساكين، فقال أخ لهم أوسطهم "أعدلهم" قولًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ؟ فالتسبيح هاهنا في معنى الاستثناء .

لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة البقرة].

شُبهت قلوب بني إسرائيل القاسية الصماء التي لا تنتفع بموعظة، ولا تهتدي بدعوة رسولِ بالحجارة في الغلظة لأنها غاية في المثل. ذلك أنهم أنكروا قتل أحد منهم –فلم يكونوا قط أعمى قلبًا ولا أشد تكذيبًا منهم لنبيهم– فضرب اللَّه لهم مثلا فقال: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ"، فَهِيَ كَالْحِجارَةِ فى الشدة، فلم تطمئن يعني لم تلِن حَتَّى كذبتم المقتولِ. ثمّ قَالَ: "مِنْ بَعْدِ ذلِكَ" أي من بعد إحياءِ الميت لكم بعضوٍ من أعضاءِ البقرة، وهذه آية عظيمة كان يجب على من يشاهدها –فشاهد بمشاهدتها من قدرة عزَّ وجلَّ ما يزيل كل شك– أن يلين قلبه ويخضع، يعني من بعد إحياء المقتول. فشبه الله قلوبهم حين لَمْ تلن بالحجارة فِي الشدة، ثُمّ عذر الحجارة وعاب قلوبهم، فَقَالَ فهي كالحجارة فِي القسوة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً. ثم قال: وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ ما هي ألين من قلوبهم: فمنها ما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَمِنْها ما يَشَّقَّقُ –يعني يتصدع– فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ من أعلاه.. فهؤلاء جميعا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ يفعلون ذلك وبنو إِسْرَائِيل لا يخشون اللَّه، وَلا ترق قلوبهم كفعل الحجارة، وَلا يقبلون إلى طاعة ربهم. ثُمّ وعدهم فَقَالَ: "وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" من المعاصي أو من تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وإنكار رسالته. [120]

120 "تفسير مقاتل بن سليمان" 152/1، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي (ت ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ

وإنما شبه الله تعالى قلوبهم بالحجارة فِي الغلطة والشدة، ولم يقل: كالحديد، وإن كان الحديد أصلب من الحجارة، لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام بإذن الله حتى صار كالعجين، ولا تلين الحجارة بمعالجة أبدا، ولأن فِي الحديد منافع، تلك المنافع لا توجد فِي الحجارة، فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها، ولعدم المنفعة فِيها .

ولفظة "أو" في الآية الكريمة (فهي كالحجارة أو أشد قسوة) مَعْنَاهُ بل أشد قسوة، وارتفع أشد بإضمار هي، كأنه قال: أو هي أشد، لأنه لَيس بمعطوف على الْحِجَارَة. فهي كقوله تعالى: (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) المعنى بل يزيدون. وقيل هي بمعنى الواو كما قال: "آثما أو كفورا"، وقال: "عُذرا أو نُذرا" .

وقال الشاعر جرير يرثي الخليفة الراشد عمرَ بن عبد العزيز:

نالَ الخلافةَ أو كانت له قدَرا كَمَا أَتَى رَبَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ

أي وكانت له قدرا .

۞ وقال الله تعالى في وصف أعمال الكافرين :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (ابراهيم/18) .

قال فِي الكشاف: "هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة؛ وقوله "أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ" جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى: مَثَل أعمال الذين كفروا بربهم. أو هذه الجملة خبر للمبتدأ، أي صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عِرضه مَصون وماله مَبذول.

أو يكون أعمالهم بدلا من "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا" على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر. وقرئ: "الريح فِي يَوْمٍ عاصِفٍ" . وجُعل العصف لليوم وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح، كقولك: يوم ماطر وليلة باردة. وإنما البرودة لريحها . وهذا من المجاز العقلي بإسناد الشيء الى زمانه. وقرئ: "في يومِ عاصفٍ" .

وأعمال الكفرة هي المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفِداء الأسارى، وعَقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه، شبهها برماد طيرته الريح العاصف لا يَقْدِرُونَ يوم القيامة مِمَّا كَسَبُوا من أعمالهم عَلى شَيْءٍ، أي لا يرون له أثرا من ثواب، كما لا يُقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، "ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ": إشارة إلى بعد ضلالهم عن الحق. .

– فالمشبه في هذه الصورة: ما يعمله الكفار في الدنيا من أعمال البر والخير مهما جَلَّ وعَظُم في إحباطه وذهابه لأنه غير قائم أساس صحيح من إيمان فهو لغير الله.

– والمشبه به: ذلك الرماد الهش الذي لا يصمد أمام الرياح العاتية فسرعان ما يتلاشى ويذهب أدراج الرياح لخفته.

– ووجه الشبه هنا: عدم ظهور أثر الشيء ورجاء نفعه إذا بُني على أساس ضعيف.

فهذا تشبيه تمثيلي شبه فيه حال عقلي بآخر محسوس، عناصره الريح الشديد والرماد الهش، فكيف يصمد رماد امام نفخة صبي، بله ريح قوية؟ فتقرر اذن بالملموس بطلان عمل الكفار وعدم جدواه في الدنيا والآخرة.

– والاداة المستعملة الكاف، وقد توسطت المشبه والمشبه به.

– والغرض من هذا التشبيه هو التقبيح أو التشويه. .

۞ وقال عليه الصلاة والسلام:

«مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ مَثَلُ مِصْبَاحٍ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ» .

[أخرجه الطبراني في الكبير، وحسنه العلماء].

فالمشبه هو: حال الَّذِي يعلم النَّاس الْخَيْر وينسى نَفسه بان يهملها وَلَا يحملهَا على الْعَمَل بِمَا عملت. والمشبه به: حال الفتيلة الَّتِي تضئ للنَّاس السبيل ولكنها في اثناء ذلك تحرق نَفسهَا . ووجه الشبه في الحديث الهيئة الحاصلة من الهداية للآخرين مع التضحية بالنفس. وفي ذلك الخسران المبين. .

وهَذَا مثل ضربه ﷺ لمن لم يعْمل بِعَمَلِهِ وَفِيه وَعِيد شَدِيد . قال أبو الدرداء: "ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن تعلم ولا يعمل ألف مرة"، وفيه إشارة إلى أن العالم الذي لا يعمل مثل الجماد في الدنيا، وفي الآخرة يعذب، فما نفعه علمه في الدنيا ولا في الآخرة.

وشبيه بالحديث ما جاء في الصحيح:

" يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّار، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى. فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّار فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ" . [121]

---

[121] الِانْدِلَاق: خُرُوج الشَّيْء مِنْ مَكَانه، وَالْأَقْتَاب: الْأَمْعَاء، جمع قتب. .

۞ وقال أبو طالب الرَّقّي في صفة النجوم في كبد السماء: [122]

وكأن أجرامَ النُّجوم لَوامعاً دُرَرٌ نُثِـرْنَ على بِساطٍ أزرقِ
وَالْفَجْرُ فِيه كأنَّهُ قَطرُ النّدى يَنْهَلُّ من سَحّ الْغَمَام المُغدق

قال الجرجاني : "إذا قلت: كأنّ النجوم دُرَرٌ، وكأن السماء بساطٌ أزرق، وجدت التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق، فإنك تعلم بُعد ما بين الحالتين، ومقدارَ الإحسان الذي يذهب من البين، وذلك أن المقصودَ من التشبيه أن يُرِيَك الهيئَةَ التي تملأ النواظر عَجباً وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى من طُلوع النجوم مؤتلفةً مُفْتَرِقةً في أديم السماء وهي زرقاءُ زُرْقَتَها الصافية التي تخدعُ العين، والنجوم تتلألأ وتبرُق في أثناء تلك الزرقة، ومَنْ لك بهذه الصورة إذا فرّقت التشبيه، وأزلت عنه الجمع والتركيب؟ ". [123]

فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من النجوم البيض المتلألئة في جوانب من أديم السماء الازق الصافي، دون اعتبار شيء آخر مناسب للدرر في الحسن والقيمة مثلا. [124]

---

122 قال الثعالبي "في اليتيمة": "لم أجد ذكره إلّا عِنْد أبي بكر الْخَوَارِزْمِيّ وسمعته يَقُول إِنَّه أحد المقلين الْمُحْسِنِينَ الَّذين يطبقون الْمفصل فِي أغراضهم وينظمون الدّرّ الْمفصل فِي معانيهم وألفاظهمْ. ."

123 "أسرار البلاغة"، ص/94، فصل في التشبيه المتعدّد والفرق بينه وبين المركّب.

124 وفي "أسرار البلاغة"، ص/172، قابلَ الجرجاني بين البيت وبين قول ذي الرّمة يصف حسن امرأة:

حَوْراءُ في دَعَجٍ صَفْراءُ في نَعَجٍ كأنَّها فِضّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ

وبيّن فضلَ الثاني على الأول في سعة الوجود، وتقدُّمَ الأول على الثاني في عِزَّته وقلّته، وكَوْنه نادرَ الوجود، فإنَّ الناس يرون أبداً في الصياغات فِضّةً قد أُجري فيها ذهبٌ وطُلِيت به، ولا يكاد يتفق أن يوجد درٌّ قد نُثر على بساط أزرق".

الركن الرابع: أداة التشبيه

الأداة لفظ يدل على معنى التشبيه، فهي تصدق على كل ما يفيد معنى المشابهة والمماثلة، وتربط بين طرفي التشبيه وتسوغ العلاقة القائمة بينهما، وتكون مذكورة وقد تحذف، وهي أنواع ثلاثة: حرفية أو اسمية أو فعلية، وسنفصل الحديث عنها بضرب أمثلة متنوعة مع الشرح والتحليل –من كتاب الله ﷻ وسنة رسولنا الكريم ﷺ والشعر العربي –كما شرطنا في مقدمة هذه الدراسة – لأن كثرة الشواهد المختارة تجلي مضامين الفنون البلاغية، وتقررها في نفوس المخاطبين والمتعلمين منهم خاصة.

أ ـ الأداة الحرفية:

وهي الكاف وكأن، وجعل بعضهم منها لعل كقوله تعالى:(وتتخذون مصانع لعلكم تَخلُدون) والمعنى: كأنكم تخلدون وهذا وجه بعيد. وأمثلة الأداة الحرفية كثيرة ومتنوعة جدا رأينا شواهد متعددة ونبهنا على بعضها.

۞ ومن أمثلتها قوله تعالى في سورة الرحمان:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾.

قال أبو زكريا الفراء (ت/207هـ):

"أراد بالوردة الفَرَس، الوردةُ تكون فِي الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كَانَ بعد ذَلِكَ كانت وردة إلى الغُبْرة، فشبه تلوّن السماء بتلون

الوردة من الخيل، وشبهت الوردة فِي اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه. ويُقَال: إن الدهان الأديم الأحمر". [125]

أي إذا تصدّعت السماء يوم القيامة بدَتْ حمراء فأشبهت الجلد الأحمر أو دهن الزيت حين يذوب من حرارة جهنم، ووجه الشبه الحُمرة في الطرفين.

❁ وقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم:

«تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً» [رواه مسلم].

واختلف اهل العلم في معنى الحديث الشريف والمغزى من التشبيه فيه:

1- فالرَّاحِلَةُ عند ابن قتيبة: هِيَ الناقةُ يختارُهَا الرَّجُلُ لمَرْكَبه ورَحْلِه على النجابَةِ وتَمَامِ الخَلْق وحُسْنِ المَنْظَر، وَإِذا كَانَت فِي جَماعةِ الْإِبِل تبيَّنَتْ وعُرِفَتْ. فالناسُ مُتساوون، لَيسَ لأَحَدٍ مِنْهُم على أَحَد فضلٌ فِي النَّسَب، وَلَكنهُمْ أَشْبَاهٌ كإبلٍ مائةٍ لَيست فِيهَا راحِلَةٌ تَتَبَيَّنُ فِيهَا وتَتَمَيَّزُ مِنْهَا بالتَّمَامِ وحُسْنِ المَنْظَرِ...

2- وقال الأزهري (ت/370هـ): غَلِطَ ابنُ قُتَيْبَةَ فِي شَيْئَيْنِ: فِي تَفْسِيرِ هَذَا الحَدِيث، أَحَدُهما أَنَّهُ جعَل الراحلَةَ النَّاقَةَ، وَلَيسَ الجمل عِنْده رَاحِلَة. والراحلةُ عِنْد العرب كلُّ بعيرٍ نجيب جوادٍ سواءٌ كَانَ ذكرا أَو أُنثى.. وَدخُول الْهَاء فِي الراحلةِ للْمُبَالغَة فِي الصفَة، كَمَا يُقَال: رَجلٌ داهيةٌ وعَلاَّمَةٌ. وَقيل: إنها سُمِيَتْ راحلَةً لأَنَّهَا تُرْحَلُ، كَمَا قَالَ الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ أَي مَرْضِيَّةٍ (فاعلة بمعنى مفعولة)، وقوله

125 "معاني القرآن" 117/3، المحقق: أحمد يوسف النجاتي – محمد علي النجار – عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة: الأولى.

عن الانسان: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي مَدْفُوق. وَقيل: سُميَتْ رَاحِلَةً لِأَنَّهَا ذاتُ رَحْل، وَكَذَلِكَ "عيشة راضية": ذاتُ رضى. وَ "مَاء دافِق" ذُو دَفْق.

ومعنى الحديث أنَّ الله تبَارك وتَعَالَى ذَمَّ الدُّنْيَا ورُكُونَ الخَلْق إِلَيْهَا وحذَّرَ عِبَادَهُ سُوءَ مَغَبَّتِها، وزهَّدَهُم فِي اقتنائِها وزخْرُفها وضربَ لَهُمْ فِيهَا الأَمْثَال لِيَعُوها ويَعْتَبرُوا بهَا، فَقَالَ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. (الحديد: 20)

وكَانَ النَّبي ﷺ يحذرُ أصحابَه بِمَا حذَّرَهم الله من ذَمِيم عوَاقِبها وينهاهم عَن التَّبَقُّر [126] فِيهَا ويزهدُهم فِيمَا زهَّدَهُم الله فِيهِ مِنْهَا، فَرَغِبَ أَكْثرُ أَصْحَابه عَلَيْهِ السَّلَام بعده فِيهَا، وتَشَاحُّوا عَلَيْهَا وتَنَافسُوا فِي اقتنائِها حَتَّى كَانَ الزهْدُ فِي النادِرِ القليلِ مِنْهُم، فقَالَ النَّبي ﷺ «تَجِدُونَ النَّاس بَعْدِي كإبِلٍ مِائَةٍ لَيْسَ فِيهَا راحلةٌ»، ولَمْ يُرِدْ تساويَهُم فِي الشَّر ولَكِن أَرَادَ أَنَّ الكامِلَ فِي الْخَيْر والزَّاهِدَ فِي الدُّنْيَا مَعَ رَغْبَتِهِ فِي الآخِرَة والعملِ لَهَا قليلٌ، كَمَا أَن الراحلَةَ النجيبةَ نادِرٌ فِي الْإِبِل الكثيرِ. [127]

---

[126] تَبَقَّرَ: تَوَسَّعَ. وَرُوِيَ عَن النَّبِيّ ﷺ أَنه "نَهى عَن التَّبَقُّر فِي الأَهل وَالْمَال"؛ قَالَ الأَصمعي يُرِيدُ الْكَثْرَةَ والسَّعة، وَمِنْهُ قِيل: بَقَرْتُ بَطْنَهُ اي شققته وفَتَحْتُهُ. والتَّبَقُّرُ: التَوَسُّعُ فِي الْعِلْمِ، وَمِنْهُ مُحَمَّدٌ (الْبَاقِرُ) لِتَبَقُّرِهِ فِي الْعِلْمِ.

[127] "تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري، 6/5، تحقيق: محمد مرعب، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة 1، س 2001م.

3- وقيل: إن معنى الحديث أن مرضيَّ الأحوال من الناس الكاملَ الأوصاف قليل فيهم جدا كقلة الراحلة في الإبل، لأن الراحلة هي البعير الكامل الأوصاف، الحسنُ المنظر، القويُّ على الأحمال والأسفار.

ووجه الشبه في الحديث الكثرةُ مع قلة الفائدة، وهي متحققة في الطرفين وإن كانت أظهر في المشبه به، لأنه ينبغي أن يكون أعرف وأتم في وجه الشبه من المشبه حتى يتم المقصود من التشبيه، وهو الوضوح والبيان والتوكيد.

۞ وقال الله تعالى يصف حال الكافرين في سورة "المدثر":

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ... فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾

جاء في الكشاف: قوله تعالى: "عَنِ التَّذْكِرَةِ" أي التذكير وهو العِظة، يريد: القرآن أو غيره من المواعظ. و"مُعْرِضِينَ" حال، كقولك: مالَكَ قائما. و"المستنفِرة": بالكسر الشديدة النفار، كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه. وقرئ بالفتح "مُسْتَنفَرَةٌ": وهي المنفَّرَة المحمولة على النِّفار. و"القسورة": الرُّماة الذين يتصيدونها. وقيل: الأسد. يقال: لُيوث قَساور، وهي فعولة من القسر: وهو القهر والغلبة، وفي وزنه «الحيدرة» من أسماء الأسد.

وهذا تشبيه تمثيلي أو مركب، طرفاه صورتان متقابلتان، الأولى عقلية والثانية حسية. ووجه الشبه الجامع بينهما شدة النفور والاضطراب في الطرفين، حيث شُبه

حال المشركين المجرمين في عدم اتعاظهم بما جاء به القرآن من هداية وخير ومواعظ كبيرة مَذمَّة وتَهجينًا لَهُمْ – شبهوا بحُمُر وحشية قد أفزعها ظهور أسد هَصور، ففرت منه مذعورة في كل اتجاه بلا قصد ولا هدف. والغرض من التشبيه هنا التشويه والتقبيح، حيث رسمت للكفار المعاندين صورة في غاية السخرية والازدراء بإلحاقهم بالحيوانات المستذلة في الطبيعة رغم كثرتها، فهي لا تملك سوى الفرار طلبا للنجاة!

۞ وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:

«أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ. " [رواه البخاري].

الأداة المستعملة في هذا التشبيه حرفية هي "كأن"، والمشبه دائما هو اسمها "الكاف" والمشبه به خبرها. وهو تشبيه مفرد مجمل لحذف وجه الشبه، يعني قطع العلائق، وخفة الحال، فإن الغريب لا علقة له فى بلاد الغربة، وابن السبيل لا لبث له إلا مقدار العبور وقطع المسافة، فهذا المعنى قد أظهره التشبيه نهاية الظهور كما تراه. [128]

ولشرح مضامين الحديث نورد بعض ما جاء في "فتح الباري" لابن حجر: [129]

---

128 "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" 145/1، المكتبة العصرية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

129 بتصرف طفيف من "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، ج11/ص 234 وما بعدها، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ هج.

قَالَ الطِّيبِيُّ: لَيسَتْ "أَوْ" في الحديث لِلشَّكّ بَلْ لِلتَّخْيِيرِ وَالْإِبَاحَةِ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى بَلْ. فَشَبَّهَ النَّاسِكَ السَّالِكَ بِالْغَرِيبِ الَّذِي لَيسَ لَهُ مَسْكَنٌ يَأْوِيهِ، وَلَا مَسْكَنٌ يَسْكُنُهُ، ثُمَّ تَرَقَّى وَأَضْرَبَ عَنْهُ إِلَى عَابِرِ السَّبِيلِ، لِأَنَّ الْغَرِيبَ قَدْ يَسْكُنُ فِي بَلَدِ الْغُرْبَةِ بِخِلَافِ عَابِرِ السَّبِيلِ الْقَاصِدِ لِبَلَدٍ شَاسِعٍ، وَبَيْنَهُمَا أَوْدِيَةٌ مُرْدِيَةٌ، وَمَفَاوِزُ مُهْلِكَةٌ، وَقُطَّاعُ طَرِيقٍ، فَإِنَّ مَنْ شَأْنُهُ أَنْ لَا يُقِيمَ لَحْظَةً وَلَا يَسْكُنَ لَمْحَةً. وَمِنْ ثَمَّ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ" إِلَخْ، وَبِقَوْلِهِ "وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ". وَالْمَعْنَى: اسْتَمِرَّ سَائِرًا وَلَا تَفْتُرْ، فَإِنَّكَ إِنْ قَصَّرْتَ انْقَطَعْتَ وَهَلَكْتَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ، وَهَذَا مَعْنَى الْمُشَبَّهِ بِهِ. وَأَمَّا الْمُشَبَّهُ فَهُوَ قَوْلُهُ: "وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ": أَيْ أَنَّ الْعُمُرَ لَا يَخْلُو عَنْ صِحَّةٍ وَمَرَضٍ، فَإِذَا كُنْتَ صَحِيحًا فَسِرْ سَيْرَ الْقَصْدِ، وَزِدْ عَلَيْهِ بِقَدْرِ قُوَّتِكَ مَا دَامَتْ فِيكَ قُوَّةٌ، بِحَيْثُ يكون مَا بِكَ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ قَائِمًا مَقَامَ مَا لَعَلَّهُ يُفَوِّتُ حَالَةَ الْمَرَضِ.

وَقَالَ بن بَطَّال: لَمَّا كَانَ الْغَرِيبُ قَلِيلَ الِانْبِسَاطِ إِلَى النَّاسِ بَلْ هُوَ مُسْتَوْحِشٌ مِنْهُمْ، إِذْ لَا يَكَادُ يَمُرُّ بِمَنْ يَعْرِفُهُ مُسْتَأْنِسٌ بِهِ، فَهُوَ ذَلِيلٌ فِي نَفْسِهِ خَائِفٌ. وَكَذَلِكَ عَابِرُ السَّبِيلِ لَا يَنْفُذُ فِي سَفَرِهِ إِلَّا بِقُوَّتِهِ عَلَيْهِ، وَتَخْفِيفِهِ مِنَ الْأَثْقَالِ، غَيْرَ مُتَثَبِّتٍ بِمَا يَمْنَعُهُ مِنْ قَطْعِ سَفَرِهِ، مَعَهُ زَادُهُ وَرَاحِلَتُهُ يُبَلِّغَانِهِ إِلَى بُغْيَتِهِ مِنْ قَصْدِهِ: شَبَّهَهُ بِهِمَا. وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى إِيثَارِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَأَخْذِ الْبُلْغَةِ مِنْهَا وَالْكَفَافِ، فَكَمَا لَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُ إِلَى أَكْثَرَ مِمَّا يُبَلِّغُهُ إِلَى غَايَةِ سَفَرِهِ، فَكَذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا إِلَى أَكْثَرَ مِمَّا يُبَلِّغُهُ الْمَحَلَّ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي الْحَثّ عَلَى الْفَرَاغ عَن الدُّنْيَا، وَالزُّهْدِ فِيهَا وَالاحْتِقَار لَهَا، وَالْقَنَاعَة فِيهَا بالبلغة إِلَيْهِ، وَيَجْعَل إقَامَتَهُ فِي الدُّنْيَا لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَجهَازَهُ لِلرُّجُوعِ إِلَى وَطَنِهِ وَهَذَا شَأْنُ الغَرِيب، أَوْ يَكُونُ كَالْمُسَافِرِ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ بِعَيْنِهِ بَلْ هُوَ دَائِمُ السَّيْر إِلَى بَلَده.

وَقَالَ النَّوَوِيّ معنى الحَدِيث: لا تركن إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، وَلَا تُحَدّثْ نَفْسَكَ بِالْبَقَاءِ فِيهَا وَلَا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا بِمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْغَرِيبُ فِي غَيْر وَطَنِهِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: عَابِرُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَارُّ عَلَى الطَّرِيق طَالِبًا وَطَنَهُ. فَالْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا كَعَبْدٍ أَرْسَلَهُ سَيّدُهُ فِي حَاجَةٍ إِلى غَيْرِ بَلَدِهِ، فَشَأْنُهُ أَنْ يُبَادِرَ بِفِعْلِ مَا أُرْسِلَ فِيهِ ثُمَّ يَعُودَ إِلَى وَطَنِهِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ غَيْر مَا هُوَ فِيهِ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُرَادُ أَنْ يُنَزِّل الْمُؤْمِنُ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا مَنْزِلَةَ الْغَرِيب، فَلَا يَعْلَقُ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ بَلَدِ الْغُرْبَةِ بَلْ قَلْبُهُ مُتَعَلّقٌ بِوَطَنِهِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَجْعَل إقَامَتَهُ فِي الدُّنْيَا لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَجهَازَهُ لِلرُّجُوعِ إِلَى وَطَنِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْغَرِيب أَوْ يَكُونُ كَالْمُسَافِرِ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ بِعَيْنِهِ بَلْ هُوَ دَائِمُ السَّيْر إِلَى بَلَدِ الْإِقَامَةِ. . .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: كَلَامُ ابن عُمَرَ مُنْتَزَعٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ (اغْتَنِمْ خَمْسًا قبل خَمْس : شَبَابَكَ قبلَ هِرَمِكَ ، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمِكَ ، وغِناك قبل فَقْرِك ،وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ ، وحَياتَكَ قبل مَوْتِكَ) [130] ، وَهُوَ مُتَضَمّنٌ لِنِهَايَةِ قِصَر الْأَمَل، وَأَنَّ الْعَاقِل يَنْبَغِي لَهُ إِذَا أَمْسَى لَا يَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحَ لَا يَنْتَظِرُ الْمَسَاءِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ أَجَلَهُ

130 رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وإسناده حسن. أخرجه ابن أبي الدنيا في "الترغيب والترهيب" باب "قصر الأمل" (111)، والحاكم في المستدرك (7846)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (10248) .

مُدْرِكُهُ قَبْلَ ذَلِكَ. قَالَ وَقَوْلُهُ "خُذْ مِنْ صِحَّتِكَ" إِلَخْ، أَيِ اعْمَلْ مَا تَلْقَى نَفْعَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ، وَبَادِرْ أَيَّامَ صِحَّتِكَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الْمَرَضَ قَدْ يَطْرَأُ فَيَمْتَنِعُ مِنَ الْعَمَلِ، فَيُخْشَى عَلَى مَنْ فَرَّطَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَعَادِ بِغَيْرِ زَادٍ. وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ الْمَاضِيَ فِي الصَّحِيحِ "إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا" لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي حَقِّ مَنْ يَعْمَلُ، وَالتَّحْذِيرُ فِي حَدِيثِ ابن عُمَرَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا، فَإِنَّهُ إِذَا مَرِضَ نَدِمَ عَلَى تَرْكِهِ الْعَمَلَ وَعَجَزَ لِمَرَضِهِ عَنِ الْعَمَلِ فَلَا يُفِيدُهُ النَّدَمُ.

ومن فوائد الْحَدِيثِ مَسُّ الْمُعَلِّمِ أَعْضَاءَ الْمُتَعَلِّمِ عِنْدَ التَّعْلِيمِ، وَالْمَوْعُوظِ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ، وَذَلِكَ لِلتَّأْنِيسِ وَالتَّنْبِيهِ، وَلَا يُفْعَلُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا بِمَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ. وَفِيهِ مُخَاطَبَةُ الْوَاحِدِ وَإِرَادَةُ الْجَمْعِ وَحِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِيصَالِ الْخَيْرِ لِأُمَّتِهِ، وَالْحَضُّ عَلَى تَرْكِ الدُّنْيَا وَالِاقْتِصَارُ على مَا لَا بُد مِنْهُ.

ب ـ أداة التشبيه الاسمية:

كمِثْل وشبه ونحو وشكل وشبيه ومشابه ومماثل ومُحاك وبمنزلة وبمثابة. . . ومرت لذلك امثلة عديدة. وفيما يلي شواهد أخرى تزيد هذه القاعدة بيانا وتفسيرا:

۞ ومن أمثلة ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

«إن المومنَ مِن أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألَم المومن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس».[131]

[131] "مسند الامام أحمد"، 5/ 340. والمعجم الكبير للطبراني، 131/6.

والأداة المستعملة اسمية هي "بمنزلة"، بالإضافة الى الأداة الحرفية "الكاف". ووجه الشبه هو التساوي في الأهمية في كلا الطرفين.

ومثل هذا المعنى ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه انه r قال: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى.» .[132]

التراحم والتواد والتعاطف: كلها من باب التفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وهي وإن تقاربت في المعنى بينها فرق لطيف. فالتراحم: رحمة بعضهم بعضا بأخوة الإيمان لا بسبب آخر. والتواد: التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي. والتعاطف: إعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له. وتداعوا: دعا بعضهم بعضا، ومنه تداعت الحيطان أي تساقطت أو كادت. وسائر: بمعنى باقي، والحمّى: تلك الحرارة المرتفعة التي تضر بالأعمال الطبيعية.

يمثل رسول الله ﷺ المؤمنين في هذه الخصال الثلاث بالجسد الواحد، فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم له الباقي، فلم يذق نوما وسرت إليه حرارة الحمّى فآلمته، فكذلك المؤمنون حقيقة، إذا ناب واحداً منهم نائبة شعر بألمها الباقون، فسَعوا بما فيهم من العواطف لدفع الألم عنه، وجلب الخير إليه.

فالمسلمون في مجموعهم كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم؛ والشر ينوبه كأنما

132 "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان" 196/3، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

ناب جميعهم؛ فهم كالبنيان يشد بعضه بعضا. فليعتبر بهذا الحديث بعض الأفراد الذين جدوا في اصطياد مصالحهم الشخصية وإن أضرت بآخرين؛ وإذا ما طلب منهم مواساة إخوانهم ولوا على أدبارهم نفورا، أولئك لم يتوطن الإيمان بعد نفوسهم.[133]

وجاء في الحديث عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.» (متفق عليه) فالأخ في الله كالذي وصف به رسول الله المؤمن للمؤمن، وأن كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة الجسد الواحد؛ لأن ما سَرَّ أحدهما سر الآخر، وما ساء أحدهما ساء الآخر، وأن كل واحد منهما عون لصاحبه في أمر الدنيا والآخرة كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالمرآة له في توقيفه إياه على عيوبه، ونصيحته له في المشهد والمغيب، وتعريفه إياه ما فيه صلاحه مما يخفى عليه.

ولما كان المؤمنون يرتفدون بالمؤمنين، ويتعاضدون ويتساعدون؛ فتقوى شوكتهم، ويعلو أمرهم، كان ذلك مشعرًا بإيمانهم، فإنهم على شكل البنيان الذي كل لبنة منه من حيث إنها تتصل بأختها، وأختها بأخرى وهكذا، وكل من المؤمنين مرتفد به، كل المؤمنين: الكبير والصغير، والعالم والمتعلم، والمصحوب والصاحب، فيكون مثلهم كمثل البنيان الذي كل شيء منه نافع لشيء منه، فكان ذلك من الإيمان. .[134]

---

[133] بتصرف من: "الأدب النبوي" ص/121، محمد عبد العزيز الشاذلي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣ هـ.

[134] "الإفصاح عن معاني الصحاح" 398/6، لابن هُبَيرَة الشيبانيّ، ت. فؤاد عبد المنعم، الناشر: دار الوطن، ط ١٤١٧هـ.

وأثر عن عَلِيّ ٧ قوله: "أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ بَادَ الْجَسَدُ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ فَقَالَ: أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ ". [135]

۞ وقال مجنون بني عامر يخاطب ظبيةً صادها، وقد ذكرته بحُسن صاحبته ليلى:

أيا شبهَ ليلى لا تُراعي فإنني بكِ اليومَ مِن وَحْشيةٍ لَصَديقُ

أقولُ وقد أَطلَقْتُها مِن وَثاقِها فأنتِ لليلى –ما حَييتِ– طليقُ

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها سوى أنَّ عظمَ الساقِ منكِ دقيقُ

نصبَ الشاعر شبكته في الصحراء ليصطاد ما يسد به رمقه، وبرفقته الشاعر كُثَيِّر عَزّة، فجاءت ظبية فوقعت في الفخ، فسبق إليها ثم حلَّها ومسح وجهها وقبَّلها وأطلقها ! ثم أنشد الابيات، حيث طلب منها ألا تخاف لأنها ذكَّرته بمفاتن حبيبته.

والتشبيه في البيت الاول معكوس لأن الشاعر جعل صاحبته أصلَ الجمال فشبه به حسن الظبية، فعلَ ذلك ادعاء ومبالغة وأوهمنا انه الصواب! وتقدير التشبيه: يا من تشبهين ليلى. . . ووجه الشبه الجمال المخصوص الذي يعرفه الشاعر.

والتشبيهان في البيت الأخير بليغان لحذف الأداة والوجه منهما. والتقدير: جيدك يشبه جيدها في رقته، وعيناك كعينها في حسنهما، لكنه استثنى فقال إن ساق ليلى مكتنز لحما ليس كساق هذه الظبية. وهذا يسمى التشبيه المقيد او المشروط، وهذا القيد هو الذي أخرج التشبيه من ابتذاله ورفع منزلته، لأن عادة الشعراء أن يشبهوا عيني المرأة بعيني الغزالة وكذلك جيدها، لكن الشاعر هنا عكس القضية. .

[135] "الصبر والثواب عليه"، ص/24، أبو بكر ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان، الناشر: دار ابن حزم، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

۞ وقال الشاعر المنبجي في امرأة يصف وجهها وشعرها:

والوجهُ مثلِ الصبح مُبْيَضٌّ و الفَـرْعُ شِبْه الليل مُسْـوَدُّ
صِنْوانِ إذا اسْتُجْمِعا حَسُنا والضدُّ يُظهر حُسْنَهُ الضدُ

شبه وجهها المنير بالصباح في إشراقه، وشعرها الأسود بظلمة الليل.

وهما تشبيهان مفردان. ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جُمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، ولقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود.. والأشياء تتميز بضدها، كما قال أبو الطيب المتنبي:

ونَذمُهُمْ وبهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ وبِضِدّها تَتَبَيّنُ الأَشْياءُ

أي نعيب اللئام ونذمهم، وفضل الممدوح إنما يعرف بهم لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها، فلو كان الناس كلهم كراما مثله لم نعرف فضله. ويرى ابن جني–شارح ديوان المتنبي– بأن بيت المنبجي معيب لأنه ليس كل ضدين إذا اجتماعا حسنا ! ألا ترى أن الحسَن إذا قرن بالقبيح بان حُسنُ الحَسن وقُبح القبيح، وبيت المتنبي سليم لأن الأشياء بأضدادها يصح أمرها.

ووجه الشبه في البيتين البياض في الأول والسواد في الثاني. والأداة المستعملة في التشبيهين اسمية: مثل وشبه. وفي البيت الأول طباق بين الصبح والليل، وبين مسود ومبيض. ولعل هذا ما رفع من قيمة التشبيه وأخرجه من ابتذاله أي عن المتعارف عليه في مثل هذه الحال.

.

ج ـ الأداة الفعلية يحسب ويظن:

مثل يشبه ويَخال ويظن ويحسب ويحاكي ويجعل، وماضي هذه الأفعال (أشبه وحاكى وخال وحسب حاكى. . . .) وغير ذلك.

۞ قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾. [سورة النبأ]

هنا تشبيهان مفردان، حيث شُبهت الأرض في انبساطها بالفراش، والأداة فعلية هي "جعل". وشبهت الجبال بأوتاد الخيمة التي تمنعها من الاضطراب كما تمنع الجبال الرواسي الأرض أن تتحرك بمن فيها كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل/]. وعلماء الأرض أثبتوا اليوم ان شكل الجبال تشبه الاوتاد فعلا، لان جزأها البارز يمثل ثلث الجبل فقط، والثلثان الباقيان تحت الأرض، وهذا من إعجاز القرآن العلمي.

والأداة المستعملة فعلية هي جعل. ووجه الشبه بين الطرفين: شدة التثبيت.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل/88].

أي أن الجبال من هَول يوم القيامة ونَفخ الصور تزول عن مواضعها بالرغم من عظمها، فلا يكون لها ثبات بل تمر في الجو كسير السحب (الممطرة) تسوقها الرياح، ومع ذلك تظنها ثابتة لتناسب سيرها في السماء.

وقالت ليلى الأخيلية تمدح قومها: [136]

لا تَقْرِبنَّ الدهرَ آل مُطَرِّفٍ   لا ظالماً أبداً ولا مظلوما
قومٌ رباطُ الخيل وَسْط بيوتهمُ   وأسِنَّةٌ زُرْقٌ يُخَلْنَ نجوما

زُرق: أَي صَافِيَة لامعة تظنها نجوما، تُرِيدُ أنهم أَصْحَاب خيل ورماح، مستعدون دائما لدفع الْأَعْدَاء كلما دعت الضرورة، فخيلهم مربوطة وسط أفنية الدور وليس خارجها، كلما سمعوا هيعة الحرب طاروا إليها.

شبهت الشاعرة بريق هذه الرماح المصقولة بلمعان النجوم. ووجه الشبه البريقُ في الطرفين، والاداة المستعملة فعلية هي"يخلن"، والتشبيه من حيث الوجه مجمل لأنه محذوف، ومفرد لأنه شيء واحد، أمن حيث الأداة فمرسل لأنها مذكورة.

وقال السَّري الرَّفَّاء المَوصلي (ت/ 360 هج)، في وصف شمعة:

وباكيةٍ ليلَها كلَّه   تُحاكي الصَّباحَ بمصباحِها
بَصيرةُ ليلٍ ولكنَّها   ضَريرتُه عندَ إصباحِها
نَجُزُّ لإصلاحِها رأسَها   فإفسادُها عند إصلاحِها [137]

---

[136] هي ليلى بنت عبد الله بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل من بني عامر بن صعصعة، وهي من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام، لا يتقدم عليها إلا الخنساء، توفيت في عشر الثمانين للهجرة. وكان توبة بن الحمير الخفاجي يهواها ويقول فيها الشعر، فخطبها إلى أبيها، فأبى أن يزوجه إياها. وبعد البيتين:

ومخرق عَنهُ الْقَمِيصُ تخالُه   وسْطَ الْبيُوت من الْحيَاء سقيما
حتّى إذا رفع اللِّوَاء رَأَيتَه   تحت اللِّوَاء على الْخَمِيس زعيما

[137] السري الرفاء: شاعر عباسي، قال عنه أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ): "السّري وَمَا أَدْرَاكَ من السّري، صَاحب سر الشّعْر الْجَامِع بَين نظم عُقُود الدّرّ والنفث فِي عقد السحر، وَلله دره مَا أعذب

شبه الشاعر ضوء الشمعة بنور الصباح، ووجه الشبه الإشراق او انتشار الضياء في الطرفين، بعد ان شبه ذوبان الشمع حولها بعبرات امرأة باكية، ثم حذف المشبه به (المرأة الباكية) ورمز اليه ببعض لوازمه وما يعرف به (وهي الدموع) على سبيل الاستعارة المكنية. ثم إن هذه الشمعة تمسي مبصرة لأنها تحيل ظلام الليل الى ضياء بشعلتها، لكنها تصبح عمياء بذهاب هذه الشعلة. . ولكي تجود بشعلتها من جديد لابد من إصلاحها بقطع رأسها ! واستعمل الشاعر لبيان هذه المفارقة العجيبة أسلوب المطابقة والمقابلة. (بصيرة – ضَرِيرَة) (ليل – إصباح) (إصلاح – إفساد) الخ.

ووصف الشاعر الشمعة مرة أخرى مستعملا أدوات فعلية وحرفية، فقال:

مفتـولةٌ مجدولـةٌ   تَحَكي لنا قَدَّ الأَسَل

كأنها عمرُ الفتى   والنارُ فيها كالأجل

"مفتولة مجدولة": أي مُحكَمة الصنع، و"قد الأسل": اعتدال الرمح.

وفي البيتين تشبيهات ثلاثة رائعة:

بحره، وأصفى قطره، وأعجب أمره. وَقد أخرجت من شعره مَا يكْتب على جبهة الدَّهْر، ويعلق فِي كعبة الْفِكر، فَكتبت مِنْهُ محَاسِن وملحا، وبدائع وطرفا كَأَنَّهَا أطواق الْحمام وصدور البزاة الْبيض، وأجنحة الطواويس وسوالف الغزلان . . . سار شعره في الآفاق، ونضم حاشيتي الشام والعراق، وسافر كلامه إلى خراسان، وسائر البلدان".

وللشاعر ديوان في جزأين وكتاب "الْمُحب والمحبوب والمشموم والمشروب". ومات ببغداد سنة 360هـ.

انظر "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، 137/2، المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م

وقد عايشت هذا الشاعر مدة طويلة حيث أنجزت عنه رسالة ماجستير نهاية الثمانينات من القرن الماضي، وذلك عن "التشبيه وأغراضه في شعره". . .

– فهو يصف الشمعة بانها مجدولة القوام، كأنها الرماح الملساء في استقامتها . والمشبه هي الشمعة، وقد الأسل هو المشبه به، وأداة التشبيه الفعل تحكي، ووجه الشبه الاعتدال او الاستقامة في الطرفين. وإن شئت جعلتها استعارة بالكناية بحذف المشبه به (المرأة الحسناء) وذكر بعض ما يشير اليه وهو القوام الرشيق الذي يشبه نبات الأسل في اعتداله.

– ثم يتابع الوصف الجميل في البيت الثاني: وهو أن هذه الشمعة موقوتة بعمر حياتها مثل عمر الفتى ينقضي كل لحظة. فالهاء في "كأنها" تعود على المشبه، وعمرُ الفتى هو المشبه به، والأداة في أول الصورة "كأن" . ووجه الشبه تيقّن الفناء في الطرفين.

– ثم ختم الشاعر بصورة ثالثة، فدقائق عمر الشمعة نارٌ ملتهبة تأتي عليها رويدا رويدا كأنها نبضات عمرها الذي ينتهي به أجلها . فالنار مشبه، و"الأجل" مشبه به، والأداة هي الكاف. وهذه صورة مركبة متداخلة برع الشاعر في رسم أجزائها وأضفى عليها الحياة، باستعمال المجاز (الاستعارة)، وتلك قيمة الصور البيانية وتأثيرها في النفس وتحريكها المشاعر الانسانية.

❁ وكتب السري الرفاء الى صديق يصف قلة ذات يده:

وكانت الإبرةُ فيما مَضى   صائنةً وَجْهي وأَشْعاري
فأصبحَ الرزقُ بها ضَيقا   كأنه مِن ثُقبها جاري

الشاعر في هذين البيتين يصف حاله حينما كان يطرز الثياب في دكان بالموصل في العراق، وكانت حرفة التطريز هاته تدر عليه بعض المال يصون بها ماء وجهه، وتدرأ عنه غوائل الفقر، فلا يحتاج الى التكسب بشعره، لكن مع تغير حاله لم تعد هذه الحرفة

تكفيه ليعيش كريما . ولكي يوضح ذلك استعمل السري الرفاء من أساليب البيان ثلاثة ألوان كما يلي:

– في البيت الاول عند قوله: "وكانت الإبرة صائنة وجهي"، استعمل مجازا مرسلا علا قته السببية، لأن مهنة الرفو تكون بالإبرة. وقد يكون هذا الأسلوب كناية عن صفة وهو يقصد حرفة التطريز!

– وقوله "وكانت الإبرة صائنة وجهي" استعارة مكنية، لأنه شبه الإبرة بشخص يصون غيره، وحذف المشبه به ورمز اليه بعض صفاته وهي الصون أو الحفظ. .

– وفي البيت الثاني استعمل الشاعر تشبيها طريفا، لم يهتد اليه غيره من الشعراء فيما أعلم، فشبه سريان الرزق اليه قليلا قليلا بسيلانه من ثقبة الإبرة مورد رزقه! فهو تشبيه مفرد، وجه الشبه فيه عموم الندرة في الطرفين. وهو كناية حسنة أيضا، لأنه استدل بهذا التشبيه على ضنك العيش الذي كان يتقلب فيه بألطف أسلوب، فلا يشك المستمع ان الشاعر وصل حدا من الفقر لا يخفى على ذي بصر أو بصيرة. وهذا من خصائص الاستعارة والكناية على حد سواء، لأنهما يساعدان على تجسيد المعاني حتى كأننا نراها ونلمسها .[138]

[138] من أسباب بلاغةِ الكنايات أنها تضعُ لكَ المعاني في صورة المحسوساتِ، ولا شكَّ أن هذه خاصةُ الفنون، فإنَّ المصورَ إذا رسم لك صورةً للأملِ أو لليأس، بهرك وجعلكَ ترى ما كنتَ تعجزُ عن التعبير عنه واضحاً ملموساً، مثلُ "كثيرِ الرمادِ" في الكنايةِ عن الكرمِ ، و"رسولِ الشرِّ"، في الكنايةِ عن المزاحِ. وقولِ البحتريِّ مادحا:

أو ما رأيتَ المجْدَ ألقى رحلَهُ في آلِ طلحةَ ثمَّ لم يتحوَّلِ

وذلك في الكنايةِ عن نسبةِ الشرف إلى آلِ طلحةَ.

ولم يزل الشاعر في ضنك من العيش إلى ان خرج إلى حلب، واتصل بسيف الدولة الحمداني، واستكثر من المدح له فطلع سعده بعد الأفول، وبعد صيته بعد الخمول، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق. . .

وقال أبو عبادة البحتري (206 – 284 هـ) يصف فارساً:

وتراه في ظُلَم الوغى فتخالُه قمرا يَكُرّ على الرجال بكوكب [139]

هذا تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء عند ضياء الدين بن الاثير (737 هج) في "المثل السائر"، لأن الشاعر شبه العَجاج بالظلمة، والممدوح بالقمر، والسنان بالكوكب، وهذا من الحَسن النادر عنده.

ورد عليه الصفدي (ت/ 764هـ) بانه وهِم في شرحه، لأن البحتري ما قال: وتراه في عجاج الحرب إذا كرَّ على الرجال برمحه، قمراً يجول في الظلام بكوكب، ولو كان البيت

والسرُّ في بلاغة الكناية أيضا أنها في صور كثيرةٍ تعطيك الحقيقةَ، مصحوبةً بدليلها، والقضيةَ وفي طيِّها بُرهانها، كقول البحتري في المديح:

يَغضُونَ فَضْلَ اللّحظِ مِن حَيثُ ما بدا لهُم عَنْ مَهيبٍ، في الصّدورِ، مَحبَّبِ

فإنه كنَّى عن إكبار الناس للممدوحِ، وهيبتِهم إياه، بغضِّ الأبصارِ الذي هو في الحقيقة برهانٌ على الهيبة والإجلالِ، وتظهرُ هذه الخاصةُ جليةً في الكناياتِ عن الصفةِ والنسبةِ.

[139] الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري (206– 284 هـ) شاعر كبير، يقال لشعره سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم، المتنبي وأبو تمام والبحتري، قيل للمعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان وإنما الشاعر البحتري. ولد بنمنبج بين حلب والفرات ورحل إلى العراق فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي وتوفي بمنبج. له كتاب الحماسة، على مثال حماسة أبي تمام.

يفهم منه هذا المعنى كان تشبيه ثلاثة بثلاثة، وليس في البيت غير تشبيه واحد لأنه قال: تراه في ظلم الوغى فتخاله قمراً.[140]

والحق ان البحتري شبه الممدوح في جمال طلعته بالقمر، ممتشقاً سيفاً براقا يشبه الكوكب في لمعانه، يقتحم ساحة الحرب وقد غشيها غبار المعركة كأنه ظلمة الليل لشدة سواده. فهذه تشبيهات ثلاثة على الانفراد، لكنها تشبيه مركب حسي، قريب من تشبيه بشار الآتي.

وقد يكون قصد الشاعر ان يشبه صورة حسية بأخرى متخيلة؛ فالصورة الأولى: الممدوح وبيده سيف لامع يشق به ظلام الغبار في المعركة، وهذا هو: المشبه. والصورة الثانية: قمر يشق ظلمة الفضاء وقد اتصل به كوكب مضيء، وهذا هو: المشبه به. ووجه الشبه: ظهور شيء مضيء يتبعه أو يتصل به شيء متلألئ وسط الظلام. فيكون التشبيه تمثيليا لأن وجه الشبه يحتوي على عدة صفات مشتركة. ولكن قد يمنع منه قوله: "يكر على الرجال".

مواقع الأداة الحرفية: الكاف وكأن:

1- الأصل في أداة التشبيه الكاف ونحوها من الأسماء المضافة لما بعدها كمِثل وشِبه أن يليها المشبه به لفظا، كما سبق في الأمثلة، أو تقديرا كقوله تعالى: ﴿...أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ..﴾ الآية، بعد قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.

140 "نُصرة الثائر على المثل السائر" لخليل بن أيبك الصفدي، 67/1.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ . والتقدير: كمثل ذوي صيب؛ والصيب: المطر من صاب يصوب أي نزل.

وقد ضرب الله للمنافقين في هذه الآيات من (البقرة) مثلين، حيث شبههم بشخص أوقدَ نارا عظيمة في ظلمة، فلما أنارت ما حوله فأبصر واستدفأ وأمِن مما يخافه أطفأ الله نوره (وجُمع الضمير في "نورهم" مراعاة لمعنى الذي)، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ما حولهم، متحيرين عن الطريق خائفين، فكذلك هؤلاء المنافقون أمِنوا بإظهار كلمة الإيمان فإذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب. ثم شبههم تعالى بالصم حيث لا يسمعون الحق سماع قبول، وبالبكم فهم خُرْسٌ عن الخير فلا يقولونه، وهم عُمي عن طريق الهدى فلا يرونه فهم لا يرجعون عن الضلالة.

أو مثلهم كمثل أصحاب مطر في السحاب الذي ينزل منه ظلمات متكاثفة ورعد وبرق، فهم يجعلون أنامل أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا شدة صوت الرعد فيكون سببَ موتهم، وكلما أضاء لهم البرق مشوا في ضوئه وإذا أظلم عليهم وقفوا، وكذلك حال المنافقين إذا نزل القرآن وفيه ذِكر الكفر المشبه بالظلمات والوعيد عليه المشبه بالرعد والحجج البينة المشبهة بالبرق يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا الى الإيمان وترك دينهم وهو عندهم موت.[141]

141 "أمثال القرآن" لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ص/9، المحقق: إبراهيم بن محمد، الناشر: مكتبة الصحابة – طنطا بمصر الطبعة الاولى سنة 1406 هـ.

وجاء في فتح القدير للشوكاني (ت/ ١٢٥٠هـ): [142]

"أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا" قَالُوا: إِنَّ نَاسًا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ عِنْدَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ ثُمَّ نَافَقُوا، فَكَانَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَ فِي ظُلْمَةٍ فَأَوْقَدَ نَارًا فَأَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ مِنْ قَذًى وَأَذًى، فَأَبْصَرَهُ حَتَّى عَرَفَ مَا يَتَّقِي، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ طَفِئَتْ نَارُهُ فَأَقْبَلَ لَا يَدْرِي مَا يَتَّقِي مِنْ أَذًى. فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ كَانَ فِي ظُلْمَةِ الشِّرْكِ فَأَسْلَمَ فَعَرَفَ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ كَفَرَ فَصَارَ لَا يَعْرِفُ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ وَلَا الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ. فَهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ هُمُ الْخُرْسُ، فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا قَالَ: ضَرَبَهُ اللَّهُ مَثَلًا لِلْمُنَافِقِ، وَقَوْلُهُ: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ قَالَ: أَمَّا النُّورُ فَهُوَ إِيمَانُهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، وَأَمَّا الظُّلْمَةُ فَهُوَ ضَلَالُهُمْ. . . "

2- والأصل في كأن أن يليها المشبه (لأنه اسمها) كما سبق في الأمثلة، وكقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾ [سورة القمر].

[142] "فتح القدير" 56/1، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ.

شبه الناس في الكثرة والاضطراب والحيرة، والانتشار في الأقطار حين خروجهم من القبور وتوجههم إلى المَحشر، يَموج بعضهم في بعض، شبههم بالجراد الكثير المختلط المنتشر في بقعة كبيرة قد ملأ أرجاءها . والتشبيه مركب حسي غايته بيان الحال.

❁ وقال ذو الرُّمة (77 – 117 هـ) يصف طيورا بفناء دار صاحبته "مَيّ": [143]

أَلا ظَعَنَتْ مَيٌّ فَهاتيكَ دارُها بِها السُّحْمُ تَردي وَالحَمامُ المُوَشَّمُ

كأن أنوفَ الطيـر في عَرَصَاتهـا خَراطيمُ أَقـلامٍ تخـُطّ وتُعْجِمُ

ألا لا أرى مِثلي يَحِنُّ مِن الهوى ولا مِثل هذا الشّوق لا يَتَصرَّمَ

ظعنت: ارتحلت، فهي ظعينة. والسُّحم هي الغربان، والحمام الموشم: به وشوم ونقط تخالف لونه. والْعَرَصَاتُ جمع "الْعَرْصَةُ، كُلُّ بُقْعَةٍ بَيْنَ الدُّورِ وَاسِعَةٍ لَيْسَ فِيهَا بِنَاءٌ".

شبه الشاعر مناقير الطير –وهي تلتقط الحبوب في ساحة دار حبيبته مي، بعد رحيلها عنها– ترتفع تارة وتنزل أخرى ولها وَقعٌ مخصوص، شبهها برؤوس أقلام في شكلها ولونها وصوتها الذي تصدره حين الكتابة بها على صفحة ورق خَشِن.

---

[143] الشاعر ذو الرُّمة: هو غيلان بن عقبة العدوي، من مضر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عُمرو: "فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة". أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا. وامتاز بإجادة التشبيه. وقيل لجرير: أخبرنا عن ذى الرمة. قال: نقط عروس وبعر ظباء، ومع هذا فقد قدر من التشبيه على ما لم يقدر عليه غيره. قال المبرد: معنى قوله: «نقط عروس» أنها تبقى أوّل يوم ثم تذهب، و «بعر الظباء» إذا شممته من ساعته وجدت منه كرائحة المسك، فإذا غبّ ذهب ذلك. وقال جرير ايضا: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته: "ما بالُ عَينِكَ مِنها الماءُ يَنسَكِبُ" لكان أشعر الناس..

والوجه هنا الهيئة الحاصلة من اللون والصوت والحركة في الطرفين. وهذا تشبيه طريف اهتدى فيه الشاعر الى وجه شبه رابط بين الطرفين قلما ينتبه اليه الناس.

هذا ويرى بعض الدارسين أن التشبيه بكأن أبلغ من التشبيه بالكاف ولذلك تستعمل حين يَقْوى الشبه بين الطرفين، ولا يكاد السامع يشك في قوة التماثل بينهما، لذلك جاء في قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان –عليه السلام– حين أمر بإحضار كرسي ملكها وطلب تغيير شكله: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل /42].

أَيْ فَنَكَّرُوا عَرْشَهَا وَنَظَرُوا مَا جوَابُهَا إِذَا سُئِلَتْ عَنْهُ. فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ: أَيْ مِثْلُ هَذَا الْعَرْش الَّذِي أَنتِ رأَيته عَرْشُكِ الَّذِي تَرَكْتِه بِبلَادِكِ؟ وَلَمْ يَأْتِ التَّرْكِيبُ: أَهَذَا عَرْشُكِ؟ جَاءَ بِأَدَاةِ التَّشْبِيهِ، لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ تَلْقِينًا لَهَا. وَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تَعْرِفُهَا فِيهِ، وَتَمَيَّزَتْ فِيهِ أَشْيَاءَ مِنْ عَرْشِهَا، لَمْ تَجْزِمْ بِأَنَّهُ هُوَ، وَلَا نَفَتْهُ النَّفْيَ الْبَالِغَ، بَل أَبْرَزَتْ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ تَشْبِيهِيَّةٍ فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ، وَذَلِكَ مِنْ جَوْدَةِ ذِهْنِهَا، حَيْثُ لَمْ تَجْزِمْ فِي الصُّورَةِ الْمُحْتَمَلَةِ بِأَحَدِ الْجَائِزَيْنِ مِنْ كَوْنِهِ إِيَّاهُ أَوْ مِنْ كَوْنِهِ لَيسَ إِيَّاهُ، وَقَابَلَتْ تَشْبِيهَهُمْ بِتَشْبِيهِهَا..[144]

[144] "البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان الأندلسي، 238/8.

المَبحَثُ الثاني
أَقْسَامُ التَّشْبيه

أولا- أقسام التشبيه باعتبار طرفيه

جرت عادة البلاغيين أن يقسموا التّشبيه باعتّبار طرفيه الى أربعة أقسام: تشبيه محسوس بمحسوس، وتشبيه معقول بمعقول، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.[145]

1- تشبيه المحسوس بالمحسوس:

وهو أن يكونا مدركين بإحدى الحواسّ الخمس الظاهرة: (البصر، أو السمع، أو الذوق، أو اللمس، أو الشم) نحو: (كأنهن الياقوت والمرجان)، صوت المدافع كالرعد؛ عصير كالعسل المصفى، ورائحة الروض كالمسك والكافور. والوجه المشرق كالنهار، واللّين الناعم كالحرير. وكتشبيه المستوي المنتصب بالرّمح، والقدّ اللّطيف بالغصن، والشيء المستدير بالكرة والحلقة، والعظيم بالجبل. وقد يكون المشبه واحدا من هذه الأمور والمشبه به واحدا آخر، نحو: كلامه كالماء الزلال. ويدخل في هذا الضرب: التّشبيه الخيالي، وهو المعدوم المؤلف من أمور عدة يمكن إدراك كل واحد منها بالحس، نحو:

خَـودٌ كـأنّ بَـنَـانَـهـا في خُضرة النَّقش المُزَرّد
سَمَـكٌ مِن البِلّـوْرِ في شبَكٍ تكوّن مِن زَبرجَد

---

[145] انظر تفصيل ذلك مثلا في "التلخيص" للخطيب القزويني وشروحه المختلفة في باب التّشبيه من علم البيان، و"بغية الإيضاح" و "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري، 39/7. الخ

فالسمك الذي من هذا النوع والشبك الذي من هذا الصنف لا يوجدان في الواقع حتى يُدركا بالحواس، ولكن هذه الأجزاء منفردة موجودة ويمكن إدراكها بالحواس.

2 – تشبيه أمر عقلي بآخر عقلي:

نحو: "العلم حياة"، و"العصبية جهل". وكتشبيه الوجود العاري عن الفوائد بالعدم، وتشبيه الفوائد التي تبقى بعد عدم الشيء بالوجود.

3 – تشبيه المحسوس بالمعقول:

وهو غير جائز، لأن العلوم العقليّة مستفادة من الحواسّ ومنتهية إليها، ولذلك قيل: "من فقدَ حسّا فقدَ علما"، فإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيه به يكون جعلا للفرع أصلا والأصل فرعا، ولذلك لو قيل: "الشمس كالحجّة في الظّهور"، و"المسك كالثّناء في الطّيب"، كان سخفا من القول، فأمّا ما جاء في الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يُقَدّر المعقولُ محسوسا، ويُجعلَ كالمحسوس على طريق المبالغة، فيصحّ التشبيه حينئذ، كما مر في قول الشاعر: "وكأنّ النجوم بين دجاه...".

ونحو قول الصاحب بن عباد للقاضي أبي الحسن وقد أهداه عطراً:

أَهديتُ عِطراً مثلَ طيبِ ثَنائه فكأنما أُهْدِي إليه أَخلاقَه

وقد أدخل علماء البيان في هذا النوع: التشبيه الوهمي، وهو ما ليس مُدركًا بإحدى الحواس الخمس، لكنه لو أُدرك لكان مُدركًا بها، نحو ما ورد في شأن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

وقول امرىء القيس لمن هدده بالقتل:

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ

وَلَيسَ بذِي رُمحٍ فيَطعَنني بِهِ   وَلَيس بذِي سَيْفٍ ولَيسَ بنَبّالِ

شبه الشاعر سن رماحه بأنياب الأغوال في حدتها، ولا يقول أحد أنه رأى الغول، ومن قاله من العرب فكاذب، نحو ما يحكى عن الشاعر تأبط شرا . .[146]

جاء في جمهرة اللغة لابن دريد (ت/ ٣٢١هـ):[147]

قَالَ أَبو حَاتِم: قَوْله: كأنياب أغوال يُرِيد أَن يكثّر بذلك ويعظّم. وَمِنْه قَوْله تبَارك وتَعَالَى ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوس الشّياطِين﴾، وقُريش لم تَرَ رَأس شَيْطَان قطُّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَعْظِيم ذَلِك فِي صُدُورهمْ. وَقَالَ أَبو بكر أَيضا: وَلم يصف امْرُؤ الْقَيْس أَنْيَاب الشَّيَاطِين لأَنهم رأوها وعرفوها وَلكنه على التهويل والتعظيم لِأَن العرب تسمّى كل مَا استفظعته شَيْطَانا. وَمِنْه قَوْله جلّ وعزّ: "كأنّه رُؤُوس الشَّيَاطِين"، لم يمثّلها جلّ وعزّ لَهُم بِمَا لم يروا وَلكنه خاطبهم بِمَا يعْرفُونَ. قَالَ الراجز: "مَا ليلةُ الفَقير إِلَّا شَيطانْ" والفَقير: بئْر مَعْرُوفَة. . . وتغوّل هَذَا الأمرُ، إِذا تنكّر. والغيلان عِنْد الْعَرَب: سَحَرَة الشَّيَاطِين، هَكَذَا قَول الْأَصْمَعِي، الْوَاحِد غُول من الجنّ. قَالَ الشَّاعِر:

فَمَا تدومُ على حالٍ تكون بهَا   كَمَا تَلوّنُ فِي أثوابها الغُولُ

4 – تشبيه العقلي بالحسي:

نحو قوله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا)، و قوله جل شأنه: "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ . . ." ونحو: "العلم نور، والجهل ظلام".

---

146 المشرفي: السيف. المسنونة الزرق: نصال الرماح الحادة البراقة. الأغوال: الشياطين. يريد بذلك التهويل. ونبال: صاحب نبل، أي ليس برام بارع. ولا يجيد كذلك استخدام الرمح. .

147 جمهرة اللغة، 961/2، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

ثانيا–أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه

1– التشبيه المفرد:

قال أبو عبادة البحتري مادحا:

هُوَ بَحْرُ السّماحِ والجُودِ فازْدَدْ مِنْهُ قُرْباً، تَزْدَدْ من الفَقْرِ بُعْدا

وقال امْرُؤُ القَيْس في معلقته:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عليَّ بأنواعِ الهُمومِ ليبتَلي

فقلتُ له لما تمطَّى بصُلبه وأردفَ أعجازاً وناء بكَلكل

يُشَبّهُ البحتري ممدوحَه بالبحر في الجود والسماح، وينصح الناس أن يقتربوا منه ليبتعدوا من الفقر. ويشبه امرؤ القيس الليل في ظلامه وهوْله بموج البحر، وأنَّ هذا الليل أرخَى حُجُبَهُ عليه مصحوبةً بالهموم والأحزان ليختبر صبْرَهُ وقوة احتماله.[148]

[148] قال الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) معلقا على بيتي امرئ القيس: "وسنخط في البيتين كلمة موجزة: أما الأول فإن تشبيه الليل بموج البحر تشبيه لا أحسن منه، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر، ثم هو مرمى البصر من سريرة الكون؛ فذلك شبه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما يدرك النظر منه، غير أن قوله: أرخى سدوله، ذهب بذلك الحسن كله، إذ أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس، وهو أدنى أنواعه؛ لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب، لا أكثر من ذلك، والكلمة استعارة لظلام الليل، فصارت لفظة الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن، وهي التي كانت عمود الحسن في التشبيه.

وأما البيت الثاني فقد أجمعوا على أنه في وصف طول الليل، ولست أراه كذلك، وإلا فلو تمطى كلب ما زاد في وصف طوله على هذه الألفاظ! وإنما أراد الشاعر ثقل الليل وفتوره، وأنه كلما هم أن ينجلي سقط، كما يفعل الذي يتمطى ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكلكله. فالوصف حقيقة ممثلة

وإذا تأملت وجْه الشبه في كل واحد من هذين التشبيهين رأيتَ أنه صفةٌ أو صفاتٌ اشتركتْ بين شيئين فحسب، هي هنا اشتراك الممدوح والبحر في صفة الجودِ، واشتراكُ الليل وموجِ البحرِ في صفتين هما الظلمةُ والهولِ او الروعة. ويسمَّى وجه الشبه إذا كان كذلك مفردًا، وكونه مفردًا لا يمنع من تعدد الصفات المشتركة، ويسمَّى التشبيهُ الذي يكون وجه الشَّبه فيه كذلك تشبيهاً غير تمثيل. [149]

فالتشبيه المفرد اذن ما كان وجه الشبه فيه أمراً واحدا لا تعدد فيه ولا تركيب حسيا كان أم عقليا، كالارتفاع والكِبر في تشبيه السفن الضخمة بالجبال، وتشبيه لون السماء بالدهان، أو تشبيه نساء الجنة بالياقوت في حسنهن وصفاء لونهن، وبالمَرجان في الحمرة، وبالبيض المكنون في شدة الصَّون.

❁ ومنه قوله سبحانه وتعالى:

﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . [سورة المرسلات] [150]

وتصوير ناطق، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع في هذا الموضع، وما أخطأ من عده من التشبيه المضمر الأداة؛ لأنه به أليق.

انظر: "تاريخ آداب العرب"، 151/3، الناشر: دار الكتاب العربي.

[149] بتصرف من "البلاغة الواضحة" لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص/43

[150] وقرأ حفص وحمزة والكسائي «جِمالَتٌ»، وبقية السبعة «جمالات». والقصر: الخشب الجَزل مثل جمرة وجمر، وتمرة وتمر. وفى البخاري عن ابن عباس: «تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ» قال: "كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر". او القصر واحد القصور. وقال ابن قتيبة في

يقول تعالى للمكذّبين بالنعم والحجج التي احتجّ بها عليهم يوم القيامة: انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ في الدنيا تُكَذِّبُونَ من عذاب الله، انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذي دخان لا ظَل فيه إذا تصاعد تفرّق شُعبا ثلاثا . ثم شبه الله عز وجل شرارة جهنم بالقَصر أو الجمل الكبير، والعلاقة بين المشبه والشبه به الكبر والارتفاع، وهذا تصوير لهول النار التي ترمي بشرر عظيم يحاكي القصور المنيفة أو الجمال الصُّفر، وهو نوع من الإبل تعرفه العرب كما يعرفون القصور الكبيرة بالنسبة لخيامهم الصغيرة، والعرب تشبه الناقة والجمل بالقصر كما قال الأخطل التغلبي:

كأنها بُرجُ روميٍّ يُشيّدُه بانٍ بِجصّ وآجُرٍّ وأحْجار

ولكن هل نستطيع أن نضيف شيئًا جديداً على وجه الشبه غير الكبر والضخامة؟ لا، إذاً وجه الشبه هنا مفرد، اي صفة واحدة جمعت بين شيئين، والتشبيه الذي يكون فيه وجه الشبه شيئاً واحدا لا تعدد فيه يسمى المفرد . والآية تضمنت تشبيهين مفردين مستقلين، أو تشبيها واحداً متعددا . والغرض من التشبيه في الحالتين التشويه.

۞ وقال صلى االه عليه وسلم:

«كل خُطْبةٍ ليسَ فيها تَشهُّدٌ فهي كاليدِ الجَذْماء» . [151]

وفي رواية "شهادة" موضع "تشهد" . واليد الجذماء، أي: المقطوعة، والجذم: سرعة القطع، يعني: أن كل خطبة لم يؤت فيها بالحمد والثناء على الله، فهي كاليد المقطوعة

جمالات صُفْرٌ أي إبل سود . واحدها: «جمالة» . والبعير الأصفر هو الأسود: لأن سواده تعلوه صفرة. قال ابن عباس: «الجمالات الصّفر: حبال السّفن يجمع بعضها إلى بعض، حتى تكون كأوساط الرجال» . انظر تفسير ابي جرير الطبري في معاني هذه الآيات.

[151] حديث صحيح، وأخرجه الترمذي في "سننه" . ومسند أحمد" (8018)، و"صحيح ابن حبان" .

التي لا فائدة بها إلى صاحبها . قال ابن العربي: وأراد بالتشهد هنا: الشهادتين، من إطلاق الجزء على الكل كما في التحيات. ووجه الشبه في الحديث مفرد وهو النقص أو التشوه في الطرفين.

۞ وقال رسولنا الكريم ﷺ :

«وإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ» . وفي حديث آخر: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» . [152]

أي أن كمال العابد ونوره لازم لذاته لا يتعداه فشابه نور الكواكب، والعلم كمال يوجب للعالم في نفسه فضلا وشرفاً يتعدى منه إلى غيره فيستفيد من نوره ويكمل بواسطته، لكنه ليس كمال للعالم في نفسه بل بواسطة تلقيه من المصطفى صلى الله عليه وسلم

152 الحديث الاول كما رواه اصحاب السنن: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ يسْتَغْفِر لَهُ من فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَه . .

والحديث الثاني: رواه الترمذي (ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ) . قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ .

–الذي يتلقى بدوره نوره من الله– فلذلك شبه بالقمر. ولأجل ذلك كان الْعُلَمَاء وَرَثَة الْأَنبِيَاءِ. ووجه الشبه التفاضل في الطرفين وهو امر واحد. [153]

۞ وقال ﷺ «إِنَّمَا الْمَدِينَة كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا» [154].

---

[153] قال ابن القيم في "مدارج السالكين" وهو يشرحُ مراتبَ الناس في العبادة:: "الصنف الثالثُ رَأَوْا أَنَّ أَنفعَ الْعِبَادَاتِ وَأَفْضَلَهَا مَا كَانَ فِيهِ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ، فَرَأَوْهُ أَفْضَلَ مِنْ ذِي النَّفْعِ الْقَاصِرِ، فَرَأَوْا خِدْمَةَ الْفُقَرَاءِ، وَالِاشْتِغَالَ بِمَصَالِحِ النَّاسِ وَقَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ، وَمُسَاعَدَتَهُمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ أَفْضَلَ، فَتَصَدَّوْا لَهُ وَعَمِلُوا عَلَيْهِ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ عَمَلَ الْعَابِدِ قَاصِرٌ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَمَلَ النَّفَّاعِ مُتَعَدٍّ إِلَى الْغَيْرِ، وَأَيْنَ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ؟ قَالُوا: وَلِهَذَا كَانَ فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. قَالُوا: وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» وَهَذَا التَّفْضِيلُ إِنَّمَا هُوَ لِلنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ» وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ» وَبِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ، وَالنَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا». وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ صَاحِبَ الْعِبَادَةِ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَصَاحِبَ النَّفْعِ لَا يَنْقَطِعُ عَمَلُهُ، مَا دَامَ نَفْعُهُ الَّذِي نُسِبَ إِلَيْهِ. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا بُعِثُوا بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ وَهِدَايَتِهِمْ، وَنَفْعِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، لَمْ يُبْعَثُوا بِالْخَلَوَاتِ وَالِانْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ وَالتَّرَهُّبِ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ الَّذِينَ هَمُّوا بِالِانْقِطَاعِ لِلتَّعَبُّدِ، وَتَرْكِ مُخَالَطَةِ النَّاسِ، وَرَأَى هَؤُلَاءِ التَّفَرُّقَ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَنَفْعَ عِبَادِهِ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ، أَفْضَلَ مِنَ الْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ بِدُونِ ذَلِكَ".

انظر: "مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، 108/1، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416 هـ – 1996م

[154] جزء حديث صحيح رواه مالك والبخاري وغيرهما. والكير: هو مِنفخ الحداد من جلد أو غيره يؤجج به النار، وخَبَثُ الحديد: ما ينفيه الكير مما علق بالحديد، وينصع: يظهر وينتشر او يخلص.

والوجه مفرد، وهو إبعاد الشيء القبيح في الطرفين. والْمُرَادُ عند ابن حجر أَنَّ المدينة لَا تَتْرُكُ فِيهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ فساد وضلال، بَلْ تُمَيِّزُهُ عَنِ الْقُلُوبِ الصَّادِقَةِ وَتُخْرِجُهُ كَمَا يُمَيِّزُ الْحَدَّادُ رَدِيءَ الْحَدِيدِ مِنْ جَيِّدِهِ، وَنِسْبَةُ التَّمْيِيزِ لِلْكِيرِ (المنفخ) لِكَوْنِهِ السَّبَبَ الْأَكْبَرَ فِي اشْتِعَالِ النَّارِ الَّتِي يَقَعُ التَّمْيِيزُ بِهَا. وهذا الأَمر خَاصّ ببعض النَّاس وَببعض الزَّمَان، بِدَلِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا على النّفَاق ﴾، وَالْمُنَافِقُ خَبِيثٌ بِلَا شَكّ. وَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَاذ وَأَبُو عُبَيْدَة وابن مَسْعُودٍ وَطَائِفَةٌ ثُمَّ عَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَمَّارٌ وَآخَرُونَ وَهُمْ مِنْ أَطْيَبِ الْخَلْقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَدِيثِ تَخْصِيصُ نَاس دُونَ نَاس وَوقت دون وَقت.[155]

قلت: وهذا واضح من سبب ورود هذا الحديث كما في الموطأ، حيث جاء فيه:

"عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ أَعْرَابِيّاً بَايَعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَصَابَ الْأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقِلْنِي بَيْعَتِي. فَأَبَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى. ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى. فَخَرَجَ الْأَعْرَابِيُّ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا».

2- التشبيه المركب أو التمثيلي:

كثير من البلاغيين ينظرون إلى المعنى اللغوي للتشبيه، وهو التمثيل، فيجعلون التشبيه والتمثيل مترادفين، ومن هؤلاء ابن الأثير حيث يقول: «وجدتُ علماء البيان قد فرّقوا بين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا بابا ولهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق

155 "فتح الباري شرح " 88/4، لابن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة – بيروت، 1379م.

بينهما في أصل الوضع، يقال شبّهت هذا الشيء بهذا الشيء، كما يقال مثلته به. وما أعلم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه».[156]

فالتشبيه المركب هو "ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أمرين أو أمور".

هذا هو مذهب جمهور البلاغيين في تعريفه، ولا يشترطون فيه غير تركيب الصورة، سواء أكانت العناصر التي تتألف منها صورته أو تركيبه حسية أم معنوية. وكلما كانت عناصر الصورة أو المركب أكثر كان التشبيه عندهم أبعد وأبلغ. أما عبد القاهر الجرجاني فقد خالف الجمهور في شأن التشبيه المركب او التمثيل كما سنرى. فمثال التشبيه المركب ما مر من تشبيه الناس بالجراد المنتشر، وبأعجاز النخل المنقعر، وكتشبيه أجرام النجوم بالدرر. . .الخ

شواهد من التشبيه المركب الحسي:

۞ من ذلك قول أبي فراس الحمداني يصف روضاً:

وَالماءُ يفصلُ بينَ زهرِ الـــروضِ، في الشَّطَّينِ، فَصْلا
كَبِسَاطِ وَشْيٍ، جَرَّدَتْ أَيدِي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلا [157]

يشبّهُ أَبو فِراس حال ماء الجدول، وهو يجري بين روضتين على شاطئيه، وقد حلَّاهما الزَّهْر ببدائع ألوانه مُنْبثًّا بين الخُضرة الناضرة، بحال سيفٍ لماعٍ لا يزال في بريقِ جدَّته،

---

156 "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، 373/1، ضياء الدين ابن الأثير الكاتب، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد. الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر:1420 هـ

157 الوشي: نوع من الثياب المنقوشة، وجرد السيف: سله، والقيون: جمع قين وهو صانع الأسلحة، والنصل: حديدة السيف أو السهم أو الرمح أو السكين.

وقد جرّدَه القُيُونُ على بساطٍ من حريرٍ مُطَرَّز. فأَينَ وجهُ الشبهِ؟ أتظنُّ أَنَّ الشاعر يريد أنْ يَعْقِدَ تشبيهين: الأَول تشبيهُ الجدولِ بالسيفِ، والثاني تشبيهُ الروضة بالبساط الْمُوَشّى؟ لا، إنّه لم يرد ذلك، إنما يريد أَنْ يشبّه صورةً رآها بصورة تخيلها، يريدُ أنْ يشبّه حال الجدولِ وهو بين الرياض بحال السيف فوق البساط الموشّى، فوجهُ الشبه هنا صورةٌ لا مفردٌ، وهذه الصورةُ مُنْتَزَعَةٌ من أَشياء عدَّة، والصورة المشتركةُ بين الطرفين هي وجودِ شيء أبيضَ لامع مستطيلٍ حوله اخضرار فيه أَلوان مختلفةٌ.[158]

❁ ومن هذا النوع قول أبي قَيْس بن الأَسْلَتِ الأنصاري :

وَقد لَاحَ فِي الصُّبْح الثريا لمن رأى   كعنقود مُلّاحية حِين نَورَا

أراد بالصبح هنا: ضوء الصباح في سواد الليل. و"الملاحية": عنب أبيض طويل. وإضافة العنقود إلى ملاّحية بيانية. وقوله: "حين نور" أي: تفتح نَوره وهو الزهر. والثريّا: تصغير ثروى مؤنّث ثروان، كسكرى مؤنّث سكران. وَسميت هَذِه النُّجُوم الْمجتمعة بِالثُّرَيَّا لِكَثْرَة نورها، وَقيل لِكَثْرَة نجومها مَعَ صغر مرآها، وَعدد نجومها سَبْعَة أنجم سِتَّة ظَاهِرَة وَوَاحِد خَفِي تختبر بِهِ النَّاس.

وهذا تَشْبيه مركب حسي، طرفاه مفردان الْحَاصِل من الْهَيْئَة الْحَاصِلَة من تقارن الصُّور الْبيض الصغار الْمَقَادِير فِي المرأى، وَإِن كَانَت كبارًا فِي الْوَاقِع، على الْكَيْفِيَّة الْمَخْصُوصَة، منضمة إِلَى الْمِقْدَار الْمَخْصُوص. وَالْمرَاد بالكيفية الْمَخْصُوصَة أَنَّهَا لَا مجتمعة اجْتِمَاع التضام والتلاصق، وَلَا هِيَ شَدِيدَة الِافْتِرَاق، بل لَهَا كَيْفيَّة مَخْصُوصَة

[158] بتصرف من "البلاغة الواضحة" لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص/ 43.

من التقارب والتباعد على نِسْبَة قريبَة مِمَّا نجده فِي رأى الْعين بَين تِلْكَ الأنجم. والطرفان المفردان هما الثريا والعنقود . .[159]

وَمِمَّا جَاءَ فِي وصف الثريا أَيْضا قَول امرىء الْقَيْس:

إِذا مَا الثريا فِي السَّمَاء تَعرّضتْ تعرُّض أَثْنَاء الوِشاح الْمُفصّل[160]

يقول: تجاوزتُ الى صاحبتي في وقت إبداء الثريا عرضها في السماء كإبداء الوشاح الذي فُصل بين جواهره وخرزه بالذهب أو غيره عرضه. وهذا تشبيه بليغ، جاء المشبه به مفعولا مطلقا مبينا لنوع الفعل (تَعرّضتْ تعرُّضَ) .

أي أتيتها عند رؤية نواحي كواكب الثريا في الأفق الشرقي، ثم شبه نواحيها بنواحي جواهر الوشاح. وهذا أحسن الأقوال في تفسير البيت. ومنهم من قال: شبه كواكب الثريا بجواهر الوشاح؛ لأن الثريا تأخذ وسط السماء كما أن الوشاح يأخذ وسط المرأة المتوشحة. ومنه من زعم أنه أراد الجوزاء فغلط وقال الثريا ، لأن التعرّض للجوزاء دون الثريا ، كما قال الاخر كأحمر عاد وإنّما هو كأحمر ثمود، وهو عاقر الناقة. وهو قول محمد بن سلام الجمحي. وقال بعضهم: تعرض الثريا أنها إذا بلغت كبد السماء في العرض ذاهبة ساعة كما أن الوشاح يقع مائلًا إلى أحد شِقَّيْ المتوشحة به.

---

159 "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"،16/2، أبو الفتح عبد الرحيم العباسي (ت ٩٦٣هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

160 التعرض: الاستقبال، والتعرض إبداء العرض، وهو الناحية، والتعرض الأخذ في الذهاب عرضاً . الأثناء: النواحي، والأثناء: الأوساط، واحدها ثَنى مثل عصى وثِنى مثل مِعَى وثِني مثل نِحي. وكذلك الآناء بمعنى الأوقات والآلاء بمعنى النعم في واحدها . هذه اللغات الثلاث ذكرها كلها ابن الأنباري. المفصل: الذي فصل بين خرزه بالذهب أو غيره. .

۞ ومنه قول بشار في وصف جيش عَرَمْرم زاحفٍ الى العدو في الصباح الباكر:

وجيشٍ كجُنْحِ الليل يزحَفُ بالحصى وبالشّوك والخَطّيِّ حُمْرٌ ثَعالبُهْ

غَدونا له و الشمسُ في خِدْرِ أمها تُطالعنا و الطّلُّ لم َيجْرِ ذائبُهْ

بِضَرْب يذوق الموتَ مَن ذاق طَعَمَهُ وتُدرِكُ مَن نَجَّى الفِرارُ مثالبهْ

كأنّ مُثار النَّقْع فوقَ رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ [161]

شبه الشاعر الجيش في كثرته وهوله بالليل، وهو يزحف بكامل عدته: من سيوف ورماح ودروع في الصباح الباكر، حيث لا تزال الشمس مستترة كفتاة مصونة في خدر أمها، لم تسطع أشعتها بعد–وهي استعارة مكنية، حيث حذف المشبه به (المرأة) وأشار اليها ببعض لوازمها وهو الخدر (البيت)–. والندى الذي يكلل أكمام الزهر وأوراق الشجر لم يذب بعد –وهذه كناية عن تبكيرهم في الخروج الى العدو، وهذان الأسلوبان –الاستعارة والكناية– يضفيان على الكلام بيانا زائدا على التشبيه، لما يكسبانه من التشخيص والتجسيد، وقديما قالوا: إن النكات البلاغية في الكلام الواحد

---

161 يقال: جَنَحَ الظَلَامُ جُنُوحاً: إذا أقبَلَ الليل، والاسم: الجِنح والجُنْح، لغتان، يقال: كأنّه جنح اللّيل، يُشَبَّهُ به العَسْكَرُ الجَرّار، و"أتيته جنح الليل"، وذلك حين تغيب الشمس وتذهب معارف الأرض. الحصى: العدد الكثير، الشوك: ج شوكة وهو السلاح هنا، الخطي: الرمح، ثعلب الرمح: طرفه، الخِدر: السِّتر، الطّل أضعف المطر، النقع: الغبار، والمثالب: العيوب

وهذه الأبيات من قصيدة معروفة يمدح بها بشار ابنَ هبيرة، وهي أول قصيدة رفعتْ ذِكر الشاعر وأُعطي بسببها عطية سَنِيّة (عشرة آلاف درهم) وتضم القصيدة أبياتا مشهورة في الوصف والفخر والحكمة.

انظر ذلك وبعض أخبار بشار بن برد في: "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" للشيخ عبد الرحيم العباسي (ت/963 هـ)، شرح شاهد المركب الحسي (2/ 28 – 32).

لا تتزاحم بل تتعاضد ويقوي بعضها بعضا إذا جاءت عفوية من غير تَصنّع، كما هو شأن هذه الابيات.

– ثم شبه الشاعر صورة الغبار الأسود القاتم المتطاير من المعركة فانعقد فوق الرؤوس، وبرزت خلاله سيوف المتحاربين المستطيلة اللامعة، وهي تعلو وتنخفض، وتستقيم وتعْوَجُّ تارة وتضطرب بها الأيدي بسرعة وشدة تارة أخرى، شبه هذه الصورة مجتمعة (بكل جزئياتها) بليل مخيف قد تساقطت كواكبه في كل اتجاه واختلفت حركاتها وتداخلت، ثم إنها بتساقطها تستطيل أشكالها (فتزول عن أصلها وهو الاستدارة)، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تساقط أشياء متفرقة متناسبة المقادير في جوانب شيء مظلم؛ فالوجه مركب من كل هذه الأجزاء، نظمها الشاعر في خياله وأخرجها في صورة متماسكة إذا اقتُصِر فيها على تشبيه جزئية واحدة بأخرى فسد التشبيه. وقد استجاد الناس هذه الأوصاف مع فقد الشاعر البصر لعماه!

۞ ومن تَشْبيه الشَّيءِ بالشَّيءِ حَرَكةً وهَيْئةً وصوتاً قَوْل عَنْترة في صفة ذُبابٍ:

وتَرَى الذُبَابَ بهَا يُغنّي وَحْدَهُ هَزِجـاً كفِعْلِ الشّـاربِ المُتَرَنّـمِ
غَرِداً يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدْحَ المُكِبّ على الزّنَادِ الأَجْذَمِ

وهو من التشبيهات العُقم، التي لم يُنسج على مثالها كما قال العلماء.

شبه الشاعر طنين الذباب وقد ملأ ارجاء الدار الخالية بفعل شارب يغني وقد لعبت الخمر بعقله. ثم شبه الذباب إذا حكَّ ذراعَه بالأخرى، برجل أجذم (مقطوع اليد) قاعد يقدح ناراً بذراعه. فهنا تشبيهان مركبان حسيان. ووجه الشبه فيهما الهيئة الحاصلة من الصوت والحركة في كلا الطرفين.

شواهد من التشبيه المركب العقلي

ومثال التشبيه المركب العقلي ما مر من تشبيه أعمال الكفار برماد اشتدت به الرياح ۞ وشبيه به قوله تعالى عن مصير أعمال الكفار:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40) ﴾ [سورة النور].

فالمشبه هو أعمال الكفار في عدم جدواها – لأنها غير قائمة على الإيمان بالله – والمشبه به سراب خادع تراءى لظمآن في أرض منبسطة شاسعة الأطراف، فهفتْ إليه نفسه العطشى المنهكة لكن سرعان ما تبيّن له حقيقته فباء بالخسران.

قال أبو الحسن الرماني (ت ٣٨٤هـ): [162]

"فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل "يحسبه الرائي ماء"، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار. وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة".

---

162 "النكت في إعجاز القرآن"، ص/82.

۞ ومثل ذلك قول الله عز وجل :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ .

أي صفة الذين كفروا، أو مثل أعمال الذين كفروا بربهم يوم القيامة كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ. -قرأ نافع اشتدت بِهِ الرياح بالألف، وقرأ الباقون: بغير ألف- يقول: ذرته الريح فِي يَوْمٍ عاصِفٍ يعني: شديد الريح. فالرماد الهش تطيره أقل نسمة، فكيف إذا كانت ريحا عاصفا ؟ فكذلك الكفار أحبط الله ثواب أعمالهم، وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: 23]، لأن أعمالهم كانت بغير إيمان، ولا يُقبل الإيمان إذا لم يكن بالإخلاص، ولا تُقبل الأعمال إلا بالإيمان، ولا ثواب لهم بها، لأن الشرك يحبط كل عمل. وذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

قال الرماني: فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة. .

ثم شبه تعالى حالة ه ذا الظمآن (الكافر) مرة أخرى بظلمات متراكمة (البحر وأمواجه والسحاب) في بحر عظيم عميق متلاطم الأموا ج صاخبها، لا يُتبين خلالها شعاع من نور. وكذلك الكفار يعيشون في ظلمات الشك والحيرة والتعاسة في الدنيا، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة محمد/8].

۞ وقال عز وجل في تشبيه حال الدنيا:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس/24) .

قال الرماني: "وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به العادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمع والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده. وفي ذلك العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تفكر في أن كل فان حقير وإن طالت مدته، وصغير وإن كبر قدره" .

شبه الله تعالى حال الدنيا وهي تَسحر الناس وتُبْهَرهم بما فيها من نعيم ومتاع، وتخدعهم بما فيها من زخرف وضياء، فيغرقون في ملذاتها وشهواتها بعد أن توهموا أنهم متحكمون في مصيرها، ممسكون بزمام الأمور فيها، ثم يدركون سرعة فنائها وأنه قد حِيل بينهم وبينها، شبه هذه الصورة برُمَّتها بحال الأرض ينزل عليها الغيث فتُعشِب ويحسُن نباتها، ويروق منظرها، ويظن الناس أنهم مالكون لها، لكن سرعان ما تدركها الآفات فتصبح كأن لم تكن، فيخيب ظنهم ويفشل سعيهم.

ووجه الشبه مركب من الاغترار بالشيء ومَظِنة دوامه والتهالك عليه ثم زواله فجأة كأن لم يوجد من قبل. والغرض من التشبيه بيان حال المشبه مع التحذير . .

۞ وشبه الله تعالى حال الدنيا مرة أخرى فقال:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا ﴾ . [الكهف/ 45]

قال الزمخشري: "وهذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الاقبال بحال نبات الارض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف". وقالت الحكماء: وانّما شبه تعالى الدنيا بالماء لأنّه لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد، ولأنّ الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأنّ الماء لا يبقى كذلك الدنيا تفنى، ولأنّ الماء لا يقدر أحد ان يدخله ولا يَبْتلُّ، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفاتها، ولأنّ الماء إذا كان بقَدَر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مُهلكاً.

ولذلك قال رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ». وقال صلى الله عليه وسلم: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ» . . . إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». وفي حديث آخر: «إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ، فَمَنْ أَعْطَيْتُهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَعْطَيْتُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ وَشَرَهٍ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». [163]

وقوله ﷺ "المال خضرة حلوة" يعنى غضةً ناعمة طرية، وأصله من خضرة الشجر، وليست هذه صفة المال وإنما هو للتشبيه، كأنه قال: المال كالبقلة الخضراء الحلوة.

[163] هذه الأحاديث في "صحيح الامام مسلم"، باب: "في الكفاف والقناعة" وباب: "تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا".

يبين رسولنا ﷺ فتنة المال وخطره على بني آدم، فمن أخذه من غير حرص وشره، فلا يمسكه ضنا به، لكن ينفقه ويتصدق به يبارك له فيه. ومن أخذه بإشراف نفس كان كمن يأكل ولا يشبع، فسبيله في ذلك سبيل من يأكل من ذي سقم وآفة، يأكل فيزداد سقما، ولا يجد شِبعا، فينجع فيه الطعام، (ولعله أراد من به الجوع الكاذب، وهو علة من العلل). ولذلك من أُشرب حبَّ الدنيا يعيش بائسا شقيا كما قال الصادق الأمين ﷺ : «تَعِسَ عَبْدُ الدينارِ والدرهمِ والقَطِيفَة والخَمِيصَة، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإن لم يعطَ لم يرضَ» . [رواه البخاري]

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ:

«تَعِسَ عبدُ الدّينار وعبدُ الدّرهم وعبدُ الخَميصة، إن أُعطِيَ رضِيَ، وإن لم يُعْطَ سَخِط، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انْتُقِش. طُوبَى لعبدٍ أخذ بعنان فرسِه في سبيل اللَّه، أشعثَ رأسُه، مغبرّةٍ قدماه، إنْ كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذنَ لم يُؤْذَن له، وإن شَفَعَ لم يُشَفَّعَ" .[164]

164 جاء في "الإفصاح عن معاني الصحاح" لأبي مظفر الشيباني: (306/7):

ومعنى تعس: عثر فسقط لوجهه، والخميصة: كساء مربع له أعلام. وانتكس: بمعنى خر لوجهه، وشيك: أصابه الشوك. فلا انتقش: أي فلا قدر على إخراج ما شيك به. وإنما يُذم المرء إذا كان لا يبالي من أين اكتسب ذلك، فأما المؤمن فإنه شرفت نفسه فلم يرض أن يملكها إلا خالق الخلائق كلهم، فيكون عبدًا لله يملكه الله ما يشاء من خلقه وعباده.

– وفي الحديث ما يدل على أن علامة هذا العبد الذي تملكه هذه الأشياء: ألا يرضى إلا إذا أعطي، ولا يسخط إلا إذا منع وحرم، فمن وجد ذلك في نفسه فليحذر أن يكون ممكن يتناوله هذا الدعاء.

فالدنيا جديرة لذلك بالزهد فيها والرغبة عنها، وألا يفتخرَ بها عاقلٌ فضلاً عن ان يُكاثِر بها غيرَه، فحبها رأس كل بلاء وخطيئة كما ! قال بعضهم:

هِيَ الدُّنْيَا تُعَذِّبُ مَنْ هَوَاهَا وَتُورِثُ قَلْبَهُ حُزْنًا وَدَاءَ
فَإِنْ أَبْغَضْتَهَا نُجِّيتَ مِنْهَا وَإِنْ أَحْبَبْتَهَا تَلْقَى الْبَلَاءَ

وقال الله سبحانه وتعالى عن أحبار اليهود:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة /5]

شبه حال علماء بني إسرائيل في جهلهم بما معهم من التوراة –وقد كُلفوا العملَ بها وحفظها– كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ. . . ﴾ (المائدة/44)، لكنهم لم يعملوا بما تضمنته التوراة من الآيات الباهرة والمواعظ النافعة وحرفوا وبدلوا –ومن ذلك نعته عليه الصلاة والسلام فلم يؤمنوا به

– وقوله: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه)، يعني – صلى الله عليه وسلم –: إنه واحد، وليس له من يملك فرسه، فهو آخذ بعنانها، إذا نزل عنها فهو وحيد فريد غير مذكور ولا معدود ولا معروف، وإنما خرج لله عز وجل متطوعًا لجهاد أعداء الله.

– وقوله: (أشعث رأسه، مغبرة قدماه)، يعني: ليس له من يرجل رأسه، ولا له خفان.

وقوله: (إن كان في الحراسة أو في الساقة)، المعنى: أين كان هذا الرجل لم ينقصه ذلك من ثوابه.

– قوله: (إن استأذن فلم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)، يعني: إنه غير معدود ولا محسوب؛ فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: (طوبى له).

من أجل ذلك – شبههم في هذه الحالة بحمار في جهله بما يحمل من كتب الحكمة والعلم ولا يشعر من ذلك إلا بالمشقة. ولذلك كان الغرض من التشبيه هنا هو التقبيح. . ووجه الشبه حرمان الانتفاع بشيء نفيس نافع مع تحمل التعب في الاحتفاظ به، فإنّ التشبيه لم يحصل من مجرد الحمل، بل لأمرين آخرين، لأن الغرض توجيه الذمّ إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمّن المنافع العظيمة ثم لا ينتفع به لجهله.

۞ ومثل ذلك قول لبيد بن ربيعة رضي الله عنه (ت/41 هج): [165]

وما النّاسُ إلا كالديارِ وأَهلُها بها يومَ حَلُّوها وغَدْواً بَلاقِعُ
وَمَا المَرْءُ إلاَّ كالشّهابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَمادا بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ [166]

فإنّ الشاعر لم يشبّه الناس بالديار، وإنّما شبّه وجودهم في الدنيا واختلاف أحوالهم من خير وشرّ، واجتماع وتفرق، وسرعة زوالهم عنها، شُبه ذلك كله بحال الدّيار،

165 لَبِيد بن ربيعة بن مالك العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبيﷺ ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدا، قيل هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه * والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة، وعاش عمرا طويلا. وهو أحد أصحاب المعلقات. ومطلع معلقته:

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى، تأبد غولها فرجامها

وكان كريما: نذر أن لا تهب الصبا إلا نحر وأطعم. جُمع بعض شعره في ديوان وهو مطبوع.

166 – البلاقع: الخالية المتغيرة، واحدها بلقع.
– وغَدْوا: غدا، الغد أصله «الغدو» حذفت منه الواو بلا عوض، فيأتي تاما وناقصا.
– ويحور: يرجع ويتغير، وكل شيء تغير من حال إلى حال فقد حار. وساطع: ملتهب.

مرّة يعمرها أهلها، ومرة تقفرُّ منهم بتركِها ورحيلهم عنها . ثم أكد هذا المعنى بأن شبه وجود الإنسان على هذه البسيطة وسرعة انتقاله عنها بضوء شهاب ثاقب يلوح في الأفق ثم سرعان ما يتلاشى بريقه. . . والتشبيهان عقليان، شبه فيهما حال بحال، وكلاهما أكدا بأسلوب النفي والاستثناء، وهذا يزيد الكلام تأكيدا وقوة. .

۞ ومثال ذلك أيضا قول القاضي التنوخي:

كأنّما المرّيخُ والمشتري قُدّامهُ في شامخ الرّفعهْ
مُنصرفٌ باللّيل مِن دَعوة قد أُسرِجَتْ قدّامَه شمعَه

هذا تشبيه مركب شبهت فيه هيأة بأخرى. والأداة فيه حرفية، ولهذا يكون اسمها هو المشبه، أي مجموع البيت الأول وخبرها هو المشبه به أي مجموع البيت الثاني.

قال ابن معصوم (ت ١١١٩هـ): [167] "فإنك لو قلت: كأن المريخ منصرف بالليل عن دعوة، وكأن المشتري شمعة، لم يكن شيئًا، إذ المقصود تشبيه الهيئة الحاصلة من المريخ حال كون المشتري أمامه بالهيئة الحاصلة من (العابد) المنصرف عن الدعوة مُسرجا الشمعة أمامه. وإلى هذا أشار صاحب الكشاف حيث قال: إن العرب تأخذ شيئًا فرادى معزولا بعضها عن بعض، وتشبهها بنظائرها، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاءمت وتلاصقت، حتى عادت شيئًا واحدا بأخرى مثلها. وهذا النوع يسميه أرباب البيان: تشبيه المركب بالمركب، وإنما أطلق عليه البديعيون: تشبيه شيئين بشيئين، باعتبار تعدد طرفيه".

---

167 "أنوار الربيع في أنواع البديع" ص/425، لعلي بن أحمد الشهير بابن معصوم.

وقال الجرجاني: "لو قلت: «كأنّ المريخ منصرف بالليل عن دعوة»، وتركت حديث المشتري والشّمعة، كان خَلفا من القول (رديئا)، وذاك أن التّشبيه لم يكن للمرّيخ من حيث هو نفسه، ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشتري أمامه. وأنت وإن كنت تقول: «المشتري شمعة»، على التّشبيه العامي الساذج في قولهم: «كأنّ النّجوم مصابيح وشموع»، فإنه لم يضع التّشبيه على هذا، وإنما قصد إلى الهيئة التي يكتسبها المرّيخ من كون المشتري أمامه". [168]

وهكذا قول عبد الله بن المعتزّ (247 – 296 هـ): [169]

كأنّه وكأنّ الكأسَ في فمه ... هِلالُ أوّلِ شَهر غابَ في شَفَق

لم يقصد أن يشبه الكأس على الانفراد بالهلال، والشّفة بالشفق على الاستئناف، بل أراد أن يشبّه مجموع الصّورتين، ألا ترى أنك لو فرّقت لم تحل من التّشبيه بطائل، إذ لا معنى لأن تقول: «كأن الشفة شفق»، وتسكت."

---

168 "أسرار البلاغة" ص/146.

169 عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس: آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على صاحب الترجمة، فلقبوه "المرتضى بالله" وبايعوه بالخلافة، فأقام يوما وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس فخنقه حتى مات. وكذلك كانت تدبر أمور الدولة في أيام الضعف والهوان..
صنف ابن المعتز كتبا كثيرة المطبوع منها: " البديع" و " الجوارح والصيد" و "أشعار الملوك " و "طبقات الشعراء ".

وكلّما كانت التقييدات أكثر كان التشبيهُ أَوْغلَ في كونه عقليّا، كما يرى البلاغيون، نحو قوله تعالى في الآية السابقة: «إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ . . »، فإن التشبيه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، فإنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه. [170]

أمثلة من التشبيهات المركبة في الحديث النبوي الشريف

۞ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، لَوْلَا مَوْضِعُ هَذِهِ اللَّبِنَةِ، أَلَا فَكُنْتُ تِلْكَ اللَّبِنَةَ». [رواه الترمذي]

هَذَا مَثَلُ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَبِهِ تَتِمُّ حُجَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ، وَمَثَّلَ ذَلِكَ بِالْبُنْيَانِ الَّذِي يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَهُوَ نَاقِصُ الْكَمَالِ بِنُقْصَانِ بَعْضِهِ، فَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ دِينَهُ، وَخَتَمَ بِهِ وَحْيَهُ. وَالْعَرَبُ تُمَثِّلُ مَا يُبَالِغُونَ فِيهِ مِنَ الْوَثَاقَةِ وَالْأَصَالَةِ وَعُقْدَةِ الْمَكَارِمِ وَالْمَفَاخِرِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ بِالْبُنْيَانِ. قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ يَعْنِي: لَا يَزُولُ وَلَا يَتَخَلْخَلُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بَنَى السَّمَاءَ فَرَفَعَ سَمْكَهَا.

قَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ يَذْكُرُ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ:

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا [171]

---

170 "نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري 41/7.

171 بتصرف من: "أمثال الحديث" للرامهرمزي، ص/11.

ومن شواهده أيضا قوله صلى الله عليه وسلم:

«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيء ؟ قَالُوا: لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيء . قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا» . [متفق عليه].

هذا مثلٌ ضربه النبيﷺ لمحو الخطايا بالصلوات الخمس، فجعل مَثَلَ ذلك مَثَلَ مَن ببابه نهرٌ غَمْرٌ – كما في بعض روايات الحديث– عَذبٌ، يغتسل فيه كل يوم خمس مِرار، وهذا أبلغ في الإنقاءِ من غيره، كما أَنَّ الماءَ الكثير أبلغُ من القليل، فوسخه يُنَقّى بذلك حتى لا يبقى منه شيء، فكذلك الصلوات الخمس في كل يوم تمحو الذنوب والخطايا حتى لا يبقى منها شيء. وقوله: "بباب أحدكم": تنبيه على قرب تناول الماء وسهولة استعماله.

والاستفهام في قوله " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا . . " خرج الى التّقرير، اذ لا محل لهذه الجملة المتضمنة للاستفهام لأنها مستأنفة لبيان الحال المستخبر عنها، كأنه لما قال: أرأيتم، قالوا عن أي شيء تسأل؟ قال: لو أن نهرًا بباب أحدكم. . أما الاستفهام في قوله "هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيء" خرج الى النفي والتقرير معا، بدليل جوابهم: لا لا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شيء. فبعد أن قررهم باستعمال أسلوب الاستفهام الذي يتطلع فيه المخاطب الى الجواب، ضرب لهم المثل حتى يكون ذلك أدعى الى الاهتمام بالخبر وقبوله. والرسول ﷺ –أمير البيان– كثيرا ما كان يستخدم هذا الأسلوب في كلامه. .[172]

[172] الاستفهام: طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل. وهو من الانشاء الطلبي: الذي يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب. وأنواعه خمسة: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

قال القاضي عياض: وقوله صلى الله عليه وسلم: "فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ" جواب شرط محذوف، أي: إذا علمتم ذلك فذلك مثل الصلاة فإنها لا تبقي على العبد شيئًا من صغائر ذنوبه. [173]

والاستفهام يكون بإحدى أدواته وهي: الهمزة، وهل، وما، ومتى، وأيّان، وكيف، وأين، وأنّى، وكم، وأي. وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي لأغراض أخرى تفهم من سياق الكلام، ومن أهمها:

– الأمر، كقوله تعالى: "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" أي: انتهوا. – والنهي، كقوله تعالى: "أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ". – والتسوية، كقوله تعالى: "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ". – والنفي، كقوله تعالى: "هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ". – والإنكار، كقوله تعالى: "أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ". – والتشويق، كقوله تعالى: "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ". – والاستئناس، كقوله تعالى: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى". – والتقرير، كقوله تعالى: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ". – والتهويل، كقوله تعالى: "الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ". – والاستبعاد، كقوله تعالى: "أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ". – والتعظيم والنفي، كقوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ". – والتحقير، نحو: أهذا الذي مدحته كثيرًا ؟ !– والتعجب، كقوله تعالى: "مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ". – والتهكم، نحو: أعقلك يسوّغ لك أن تفعل كذا ؟ !– والوعيد: نحو: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ"...

173 "إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم"، 644/2، لأبي الفضل القاضي عياض (544هـ)، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ.

وانظر كذلك: "فتح الباري شرح صحيح البخاري" 221/4، لابن رجب الحنبلي (795هـ). مكتبة الغرباء بالمدينة المنورة. ط1، 1417 هـ.

واستدل بذلك بعض من يقول: إن الصلاة تكفر الكبائر والصغائر، لكن الجمهور القائلين بأن الكبائر لا يكفرها مجرد الصلاة بدون توبة يقولون: هذا العموم خُصَّ منه الكبائر بما خرّجه مُسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مُكفّرات لما بينهن، ما اجتُنِبت الكبائرُ).

۞ ومن التشبيه المركب أيضا قوله عليه الصلاة والسلام:

«إنما مَثلُ صاحِبِ القرآن كمثلِ صاحِبِ الإبِلِ المُعَقَّلَة، إنْ عاهَدَ عليها أَمْسَكَها، وإن أَطْلَقَها ذَهَبَتْ». [صحيح]

معناه: إنما مثل صاحب القرآن مع القرآن، أي من أَلِفَ تلاوته نظراً أو عن ظهر قلب، فإن من داوم ذلك ذَلَّ له لسانه وسهُلت عليه قراءته، فإذا هجره ثقُلت عليه القراءة وشقّت عليه. فهو كمثل صاحب الإبل مع الإبل المعقَّلة أي المشدودة بعِقال.

شبه حال دارس القرآن ولزوم تلاوته له بحال صاحب إبل يخاف شرودها فربطها، فإن "عاهد عليها" أي احتفظ بها ولازمها "أمسكها" أي استمر إمساكه لها، وإن أطلقها أي انفلتت. فما دام تعهده القرآن موجوداً فحفظه موجود، كما أن الإبل ما دامت مشدودة بالعقال فهي محفوظة، وخص الإبل لأنها أشد الحيوان الأهلي نفوراً.

والمراد بالحصر: حصر مخصوص بالنسبة لأمر مخصوص، وهو دوام حفظه بالدرس كحافظ البعير بالعقل، أما بالنسبة لأمور أخرى فله أمثلة غيرها، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قد ضرب له أمثالاً أُخر كقوله: (مَثَلُ الْمُؤْمِنُ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ. .)، الحديث.

ووجه التشبيه فى التمثيل المذكور مجموع الأمرين، طيب المطعم وطيب الرائحة لا أحدهما على التفريق. ولما كان طيب المَطعم وطيب الرائحة فى النفس المؤمنة عقليين، وكانت الأمور العقلية لا تبرز عن موصوفها إلا بتصويرها بصورة المحسوس المشاهد شبهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأترجة الموجود فيها ذلك حِسا، تقريباً للفهم والإدراك، فطيب المطعم فى النفس المؤمنة الإيمان؛ لأنه ثابت فيها، هي به طيبة

الباطن كثبوته فى الأترجة، وطيب الرائحة فيه يرجع إلى قراءته القرآن؛ لأن القراءة قد يتعدى نفعها إلى الغير فينتفع بها المستمع كما أن طيب رائحة الأترجة تتعدى وينتفع بها الشامّ.[174]

ومثل الحديث الشريف قول امرئ القيس:

كأني بِفَتْخَاءِ الجَنَاحَين لَقْوَةٍ صَيُودٍ من العِقبانِ طأطأتُ شِملالي
تَخَطَّفُ خِزّانَ الشَّرَبَّةِ بالضُّحَى وَقد حَجَرَتْ مِنها ثَعالِبُ أوْرَالِ
كأن قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِي [175]

فالشاعر يصف العُقاب حين شبه فرسه بها، وهو من مخترعاته في معناه، وأسلوبه طريقة من طرائقه المبتكرة. والعُناب ثمر أحمر، والحشف ما يبس من الثمر ولم يكن له طعم ولا نوى. وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء في تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفين. وتقديره: كأن قلوب الطير رطبًا العناب ويابسًا الحشف البالي؛ فشبه الطري من القلوب بالعناب، والعتيق بالحشف؛ وخص قلوب الطير؛ لأن فرخ العقاب يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه، فلذلك كثرت قلوب الطير عندها، وقيل: غير ذلك. والتشبيه كما ترى ليس بشيء، غير أن الطريقة التي بها هي دليل من الأدلة على فضل صاحبها، ولم يحفظ قبل امرئ القيس بيت على هذا النمط، فهو أول من

174 "إِكمَالُ المُعلِمِ بفوَائدِ مُسْلِم"، للقاضي عياض، 165/3، باب: فضيلة حافظ القرآن.

175 فتخاء: ليّنة. اللقوة: العقاب الخاطفة لكل شيء. شملالي: فرسي السريع. الخزان: الواحد خزن: وهو ذكر الأرنب. حجرت: تخلفت. الشربة: موضع. أورال: اسم مكان. الحشف البالي: يابس التمر. المؤثل: الأصيل الشريف.

جاء بذلك من الشعراء، وقد رووا أن بشار بن برد قال: ما قر بي قرار بعد أن سمعت بيت امرئ القيس حتى صنعتُ:

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا، ليلٌ تهَاوى كواكبه

فقد اتبع الطريقة نفسها؛ وقالوا في بيته إنه لم يقع بعد بيت امرئ القيس في الترتيب أحسن منه؛ ولكن البيت الأول يفضله بأنه أورد التشبيه في حالتين مختلفتين، إذ قلوب الطير واحدة، ولكن التشبيه إنما وقع على حالتيها من الطراءة واليبوسة، وقد غفل عن ذلك بشار؛ وبالجملة فإن امرأ القيس وسط بين شعراء التشبيه؛ وإن كان قد أكثر منه واحتذى فيه فعل أبي دؤاد والمهلهل وغيرهما، إلا أن له طرقاً في هذا التشبيه هي من مبتكراته، وهي كل ما في يدنا من الأدلة على براعته وحسن تصرفه ورجحانه على غيره من متميزي الشعراء. وقد عدل المولدون عن تشبيهات الجاهلية إلى ما هو أليق بأزمانهم وأدنى شبهًا منها، ولكنهم مع ذلك لا يزال في مجموع أشعارهم موضع لبعض أبيات امرئ القيس... على أن أكثر شعراء الجاهلية قد خرجوا من هذا الباب، ولم يرض المولدون أن يقفوا عليه ولا وقفة الحجاب! [176]

❁ ومنِ أبدع التشبيهاتِ التمثيلية شعراً، قول أبي الطيب المتنبي:

بَليتُ بِلى الأطْلالِ إنْ لم أقِفْ بها وُقوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهُ

يدعو الشاعر على نفسه بالبِلى والفناءِ إذا هو لم يقفْ بالأطلال ليذكرَ عهد مَن كانوا بها، ثم أراد أنْ يصوِّرَ لنا هيئَةَ وقوفه فقال: كما يقفُ شحيحٌ فقد خاتمُهُ في التراب.

176 "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي، 139/3، الناشر: دار الكتاب العربي.

فمَنْ كان يُوفَّقُ إلى تصوير حال الذاهلِ المتحير المحزون المطرقِ برأسه المنتقل منْ مكان إِلى مكان في اضطراب ودهشة بجال شحيحٍ فقد في التراب خاتمًا ثمينا ً؟

غير ان الصاحب بن عباد (ت/385 هـ) يرى بان تشبيه المتنبي دليل على تفاوت الطبع عنده، حيث جمع الإحسان والإساءة في بيت واحد، فالشطر الأول كلام مستقيم لو لم يعقبه بالشطر الثاني! والحق ان الصاحب لم ينصف المتنبي، ولم يستشعر جمال المشبه به، فان الشاعر اهتدى الى وجه شبه لم يخطر على شاعر قبله، وقد أعمى الصاحبَ حسدُه المتنبي حتى أَلَّف في نقده: "الكشف عن مساوي المتنبي ". [177]

التشبيه المركب عند الجرجاني

خالف عبد القاهر الجرجاني جمهور البلاغيين في شأن التمثيل، وعقد له فصلا مطولا في كتابه "أسرار البلاغة"، فهو يرى بأن كل تمثيل تشبيهٌ وليس كل تشبيه تمثيلا، ويقصر تشبيه التمثيل على ما كان وجه الشبه فيه أمرا عقليا مفردا كان أم مركبا، وهو ما يحتاج إلى تأويل ودقة نظر في استخراجه كما مر في الآيات السابقة. ولنستمع اليه يشرح وجهة نظره حين يقول: [178]

---

[177] "الكشف عن مساوي شعر المتنبي" ص/44، لإسماعيل بن عباد، المشهور بالصاحب بن عباد. المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين. مكتبة النهضة، بغداد– الطبعة: الأولى، 1965 م

[178] دلائل الإعجاز، ص/91 وما بعدها، بتصرف.

واما النوع الذي لا تأويل فيه عند الجرجاني، فكتشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما، فالشبه في هذا كلّه بَيِّنٌ لا يجري فيه التأوُّل، ولا يُفتقَر إليه في تحصيله، وأيُّ تأوُّل يجري في مشابهة الخدّ للورد في الحمرة، وأنت تراها هنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشَّجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

"... ومثالُ الثاني: وهو أشبه الذي يَحْصُل بضرب من التأَوُّل، كقولك: "هذه حُجّةٌ كالشمس في الظهور"، وقد شبّهتَ الحجةَ بالشمس من جهة ظهورها، كما شبَّهتَ فيما مَضَى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلمَ أن هذا التشبيه لا يتمّ لكَ إلا بتأَوُّل، وذلك أن تقول: حقيقة ظُهور الشمس وغيرها من الأجسام أنْ لا يكون دونها حجابٌ ونحوُه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيءُ لك إذا لم يكن بينك وبينه حجابٌ، ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب، ثم تقول: إن الشُبهة نظير الحجاب فيما يُدرك بالعقول، لأنها تمنع القلب رؤيةَ ما هي شُبهة فيه، كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، ولذلك تُوصف الشُبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلبُ إدراكَه، ويَصْرف فكرَه للوصول إليه من صحّةِ حكمٍ أو فساده، فإذا ارتفعت الشبهةُ وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجّة على صحّة ما ادُّعي من الحكم قيل: هذا ظاهرٌ كالشمس، أي ليس ها هنا مانعٌ عن العلم به، ليس للتوقف والشكّ فيه مَسَاغٌ، وأنَّ المنكرَ له إمَّا مدخولٌ في عقله أو جاحدٌ مُباهتٌ ومُسرف في العناد، كما أن الشمس الطالعة لا يَشكُّ فيها ذو بصر، ولا ينكرها إلاّ مَنْ لا عذرَ له في إنكاره، فقد احتجتَ في تحصيل الشَّبه الذي أَثبتّه بين الحجّة والشمس إلى مثل هذا التأوّل كما ترى. ثم إنّ ما طريقُه التأَوُّل يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يسهُل الوصول إليه. ومنه ما يدِقُّ ويغمُض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل رويّةٍ ولُطْفِ فكرةٍ...

وعن بلاغة التمثيل يقول عبد القاهر يقول: [179]

"واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبَةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها . . . فإن كان مدحاً كان أبهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرح، وأغلب على المُمْتَدَح، وأوجب شفاعة للمادح . . . وإن كان ذمّاً كان مسُّهُ أوجعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشد، وَحدُّه أحَدّ. وإن كان حِجاجاً كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبهر. وإن كان افتخاراً كان شَأْوُه أمدّ، وشَرَفه أجَدّ، ولسانه ألَدّ، وإن كان اعتذاراً، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَب، وللسَّخائم أسلّ، ولغَرْب الغَضَبْ أفلّ. . . وإن كان وعظاً كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل. . . "

وعن سر تأثير التمثيل في النفوس يقول الجرجاني: [180]

"إذا بحثْنا عن ذلك، وجدنا له أسباباً وعِلَلاً، كلٌّ منها يقتضي أن يَفخُمَ المعنى بالتمثيل، وينبُلَ ويَشرُفَ ويكمل:

– فأَوَّلُ ذلك وأظهره، أنّ أُنس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها من خفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مَكْنيّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه

---

179 "أسرار البلاغة"، ص/115 وما بعدها . قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

180 "أسرار البلاغة"، ص/121 وما بعدها .

أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم. . لأن العلم المستفادَ من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهة الطبع يفضلُ المستفاد من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: "ليس الخَبرُ كالمُعاينة، ولا الظنُّ كاليقين" . . .

– وضربٌ آخر من الأُنس، وهو ما يوجبه تقدُّمُ الإلْف، كما قيل: "مَا الحُبُّ إلاّ للحبيب الأوّلِ"، ومعلومٌ أن العلم الأوّل أتى النفسَ أوّلاً من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظرِ والرَّوِيَّة، فهو إذَنْ أمسُّ بها رَحِماً، وآكدُ عندها حُرمة، وإذْ نقلتَها في الشيء بمَثَله عن المُدرَك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب، إلى ما يُدرَك بالحواسّ أو يُعلَم بالطَّبع، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غيرَ ممثَّلٍ ثم مَثَّله كمن يُخْبَر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب، ويقول: ها هو ذا، فأبصِر تجدْه على ما وصفتُ."

3- التشبيه المتعدد:

هو ما كان وجه الشبه فيه عدة أمور جُعل كل منها وجها مستقلا بحيث لو حُذف أحدها أو قدم أو أُخر لم يختلَّ نظام التشبيه أو يتغير، ويغلب أن يكون المشبه واحدا، كقولنا: زيد يشبه البحر في جوده والشمس في رفعته والأسد في جرأته . . .

۞ وكقول أحمد بن دُرَّاج القسطلّي الأندلسي (347 هـ – 421 هـ):

مُقتحِمُ الأهوال في ضَنَك الوغى فكأن نفسَ عدوه في جسمه

كالموت غـالَ بفَجْئه والليث صـا ل ببأســه والسيل جاحَ بحَطْمه [181]

شبه الشاعر ممدوحه بخوض المعارك، ويقذف بنفسه في جحيمها غير مبال بأهوالها، ينقضُّ على الفرسان بغتة فيفتك بهم ـ شبهه بالموت في اغتياله المفاجئ، وبالأسد في بأسه وصولته، وبالسيل الهادر في إهلاكه واستئصاله ما يقف في طريقه.

فوجه الشبه هنا متعدد إذ لو أراد الشاعر أن يقدم إحدى هذه الصفات على الأخرى أو حذفها لاحتفظت الصورة بقوامها ولما تغير التشبيه، لأن عنصر الربط بين أجزاء الصورة مفقود إذ لم يقصده الشاعر، بخلاف التركيب الذي لحظناه في التشبيه المركب.

ومن أجمل الشواهد على التشبيه المتعدد قول الشاعر مسكين الدارمي (ت/89 هج) محذرا من صحبة الأحمق:

اتَّقِ الأحمقَ أَن تَصْحبَه إنَّمَا الأحمق كَالثَّوْب الْخلَقْ
كلما رَقَّعْتَ مِنْهُ جانباً حَرَّكَتْه الرِّيحُ وَهْناً فانخَرَق
أَو كَصَدْعٍ فِي زُجاج فَاحِش هَل ترى صَدْعَ زُجاج يَتَّفِقْ؟
كَحِمَارِ السُّوقِ إِنْ أَقْضمْتَهُ رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَـاعَ نَـهَقْ
أَوْ غُلَامِ السُّوءِ إِنْ أَسْغَبْتَـهُ سَرَقَ النَّاسَ وَإِنْ يَشْبَعْ فَسَقْ
وَإِذا نَهْنَهـتَه كي يَرعـوي زَاد جهلا وتَمَادَى فِي الْحَمَق [182]

---

[181] قحم في الأمر: رمى بنفسه فيه من غير روية، الضنك: الضيق والشدة، الوغى: أصوات المتحاربين المختلطة ثم استعيرت للحرب، غاله واغتاله: قتله غِيلة وهو أن يخدعه فيذهب به إلى مكان فيقتله فيه، جاح الشيءَ واجتاحه: أهلكه واستأصله، الحطم: التكسير.

[182] "أخبار الحمقى والمغفلين"، ص/40، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. شرحه: عبد الأمير مهنا، الناشر: دار الفكر اللبناني، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م

فالمشبه في هذه الأبيات الطريفة واحد هو الأحمق وأحواله، والشاعر يشبهه تارة بثوب بالٍ لا يمكن إصلاحه، وتارة بشق كبير في زجاج يصعب جبره، أو هو في حمقه كحمار السوق إن أطعمه صاحبه ضرب الناس برجله وان جاع ملأ دنياهم نهيقا، أو هو يشبه غلام سوء إن أطعمه مولاه سرق العباد وإن أجاعه سرقهم، وهو مع ذلك متماد في حمقه لا ينتهي. وشخص هذه صفاته لا خير فيه على العاقل تجنب مصاحبته.

وعن وَهْب بْنِ مُنَبِّهٍ اليمانيّ قال: «مكتوبٌ في الحكمة: إنَّ الأحمق إذا تكلَّم فَضَحه حُمْقُه، وإن سكت فَضَحه عِيُّه، وإن عَمِل أفسد، وإن ترك أضاع، لا علمُه يُغنيه، ولا علمُ غيره ينفعه، تتمنَّى أمُّه أنَّها ثَكِلته، وتتمنَّى زوجتُه أنَّها عَدِمَتْه، ويتمنَّى جارُه منه الوحدة، ويودُّ جليسُه منه الوحشة، إن كان أصغرَ أهلِ بيته علا مَن فوقه، وإن كان أكبرَ أهلِ بيته أفسد مَن دونه».

4- التشبيه المُفَصَّل:

هو ما صُرِح فيه بوجه الشبه على هيئته الخاصة، وهي أن يكون مجروراً بِحرف العطف" في"، أو منصوباً على التمييز.

۞ فالأول: – المجرور بفي– كقول نبينا عليه الصلاة والسلام:

«مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجَسد، إذا اشتكى منه عُضوٌ تَداعى له سائرُ الجَسَد بالسَّهر والحُمَّى». وفي رواية بدون "في" فيكون بدلاً من المؤمنين بدل اشتمال. [183]

183 رواه أحمد والبخاري ومسلم من حديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

أي مثل المؤمنين الكاملين في الإيمان "في توادهم"–مصدر تواد أي تحاب–، "وتراحمهم" أي تلاطفهم، "وتعاطفهم" [184] مثلُ الجسد الواحد بالنسبة لجميع أعضائه، إذا مرض منه عضو تداعى له باقي الجسد، يعني دعاء بعضهم بعضاً إلى المشاركة في الألم، ومنه تداعت الحيطان أي تساقطت أو كادت، "بالسهَر" أي ترك النوم، لأن الألم يمنع النوم، "والحمى" لأن فقد النوم يثيرها فتزيد قوة. .

ووجه الشبه في الحديث التوافق في التعب والراحة، وهو مذكور (مجرور بفي) .

ثم لفظ الحديث خبر ومعناه أمر، أي: كما أن الرجل إذا تألم بعض جسده سرى ذلك الألم إلى جميع جسده، فكذا المؤمنون ليكونوا كنفس واحدة، إذا أصاب أحدهم مصيبة يغتم جميعهم ويقصدون إزالتها . وفي التشبيه إظهار المعاني في الصور المرئية.

۞ والثاني –المنصوب على التمييز–، كقول بهاء الدين زهير (ت/656 هج): [185]

وَجَيشٍ كَمِثلِ اللَيلِ هَولاً وَهَيبَةً وَإِن زانَهُ ما فيهِ مِن أَنجُمٍ زُهرِ

واجتمع النوعان معا في قول الشاعر:

كم وجوهٍ مثل النهار ضياءً لنفوس كالليل في الإظلامِ

[184] والألفاظ الثلاثة –وإن تفاوت معناها– بينها فرق لطيف، فالمراد بالتراحم: أن يرحم بعضهم بعضاً لحلاوة الإيمان لا لشيء آخر، وبالتواد: التواصل الجالب للمحبة كالتهادي، وبالتعاطف إعانة بعضهم بعضاً .

[185] البيت من قصيدة يمدح فيها الشاعر الملك الصالح، ويذكر خروجه الى غزو الروم بمصر، مطلعها:

بكَ اهتزّ عِطفُ الدينِ في حُللِ النصرِ وردَّتْ على أعقابها مِلّةُ الكفرِ

في البيت تشبيهان: شبّه في وجوه بعض الناس بالنهار في ضيائها وجمالها في الشطر الأول. وأداة التشبيه: "مثل" وهي اسمية. وشبّه في الثاني نفوس هؤلاء بالليل في تجهّمها وإظلامها . وأداة التشبيه: "الكاف" وهي حرفية.

5- التشبيه المُجْمَل:

وهو ما لم يُصرَّح في بوجه الشبه على صورتيه السابقتين، وقد مرت له أمثلة كثيرة. ومنه قول "فاطمة بنت الخرشب الأنمارية" [186] وقد وسئلت عن بنيها أيهم أفضل؟ فقالت: أنس، لا بل عمارة، لا بل ربيع، ثم قالت: "ثَكِلتُهم إن كنتُ أعلم أيهم أفضل، هم كالحَلقة المُفرغة لا يُدرى أين طرفاها" . والوجه التناسب الكلي في الطرفين. ويضْرب هذا المثل -كما في المستقصى للزمخشري- في اجْتِمَاع الْقَوْم واتحاد أَيديهم وكلمتهم، وفى تساوي النَّاس فى الْخَيْر. [المثل رقم 1452]

۞ ومن هذا النوع قول عبد الصمد بن منصور ابن بابك (ت/ 410 هـ) مادحا:

وأرض كأخلاق الكِرام قطعتُها		وقد كحّل الليلُ السِّماكَ فأبصرا

يقول: رب أرضٍ رحبة الجنبات قطعتها في ليل اشتد ظلامه فاشتد تألق نجمه (السماك)، وكأنه أبصر بعد أن كان ضريرا. فالمشبه: "الأرض وقد اتسعت ارجاؤها"، وأداة التشبيه "الكاف"، والمشبه به "أخلاق الكرام"، أما وجه الشبه

[186] فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، من غطفان: مُنجبة جاهلية (كثيرة الولد) يضرب بها المثل: " أنجبُ من فاطمة !" كانت امرأة زياد بن سفيان العبسيّ، وولدت له أربعة أبناء يوصفون بالكَملة، وهم: الربيع الكامل، وقيس الحفاظ، وعمارة الوهاب، وأنس الفوارس. ومر معنا ان الجرجاني نسب هذا القول الى كَعبٍ الأشقريّ، وقد أوفده المهَلّب على الحجّاج، فوصف له بنيه. . . الخ.

فمحذوف، وحذفه يدعونا الى التفكير في الصفة أو الصفات المشتركة التي جعلت المشبه مماثلا للمشبه به مما يضفي على الصورة لوناً من الإيحاء يفسح المجال للتخيل والتصور، خصوصا إذا كان المشبه ذا صفات متعددة يقتضي اكتشاف المشترك منها مع المشبه، فإنك لتسأل: ما الصفة التي دفعت الشاعر الى تشبيه الأرض بأخلاق الكرام؟ أهي الطيبة أم الاتساع، أهي الخير أم العطاء، أم كلّها معا، أم غير ذلك؟ والتشبيه مقلوب، فإنه لما رأى استمرار وصف الأخلاق بالضيق وبالسعة، تعمَّد تشبيه الأرض الواسعة بخلق الكريم مدعيا أنه في تأدية معنى السعة أكملُ من الأرض المتباعدة الأطراف، فقابَل بين سعة الأرض حقيقيةً وسعة أخلاق الكريم تخيُّلاً.

والشطر الثاني فيه استعارة شبه فيه الليل بإنسان يكحل إحدى العيون، ثم حذف المشبه به وأبقى من خصائصه التكحيل، ثم اشتق منه كحل على سبيل الاستعارة بالكناية. . وفي هذا من التجسيد ما يضفي على الكلام صفة العاقلين. . .

6– التشبيه البليغ:

وهو ما ذكر فيه الطرفان فقط، وحذف الوجه والأداة معاً، أي المؤكَد المُجمَل، وفي ذلك دعوى اتحاد الطرفين وحَمْل أحدهما على الآخر مبالغة وتوكيدا . والمراد بالبليغ هنا ما يتخاطب به الخواصّ من البلغاء لما فيه، وليس المراد ما كان مطابقا لمقتضى الحال، فإن التشبيه المبتذل قد يطابق مقتضى الحال إذا كان الخطاب مع غبي متبلد . وسبب تسميته بالبليغ فيما زعموا أنه بلغ درجة القبول لحسنه، وهو ما كان وجه الشبه فيه بعيدا غريبا لدقته وحسن تركيبه ولُطف معناه فيحتاج في إدراكه إلى اعمال الفكر، وذلك أفعل في النفس وأدعى إلى تأثرها واهتزازها، لما هو مركوز في

الطباع من أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه، ومُعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وموقعه في النفس أجلّ وألطف. . .

وقد يقال: إن الغرابة منشؤها خفاء الوجه، فكيف يكون خفاء الوجه سببا في بلاغة التشبيه، مع أن عدم الظهور ضرب من التعقيد وهو ينافي البلاغة؟ والجواب: ان الخفاء الموجِب للتعقيد ما كان مَنشؤُه سوءَ التركيب، أو اختلالُ انتقال الذهن من المعنى الأول إلى الثاني، أما هنا فمنشأ الخفاء لُطف المعنى ودقته، وهذا مُحقّق للبلاغة وموجبها، لا منافيها كما راينا مثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ. . . ﴾ "الآية"، وغيرها .

وقال المرقّش الأكبر الشاعر الجاهلي:

النَّشْرُ مِسْكٌ، والْوُجُوهُ دَنَا ... نِيرٌ وَأَطْرَافُ الأَكُفِّ عَنَمٌ

النشر: الرائحة الطيبة، شبه ريح فم هؤلاء النسوة برائحة المسك. وشبه وجوههن في اشراقها بالدنانير، والْعَنَم: نبات أملس له أزهار قرمزِيّة، يُتَخَذُ خِضَاباً، شبَّه الشاعر أطراف أكفّ صوَاحبه بأزهار هذا النبات، وتقدير كلامه: وأطراف الأكفّ أزْهارُ عَنَم. ففي هذا البيت ثلاثة تشبيهات بليغة، لم يذكر فيها أداة ولا وجْه شبه.

ويعتمِد هذا النوع من التشبيه على المبالغة والإغراق في ادّعاء أنَّ المشبَّه هو المشبَّهُ به نَفْسه، لذلك لا تُذْكَرُ فيه أداة التشبيه، ولا وجْهُ الشّبه. فكان التشبيه البليغ ذا مجالٍ واسعٍ لتسابق الْمُجيدين من الأدباء والشعراء، وانتقاء روائع بديعة منه.

ويأتيّ التشبيه البليغ في صور عديدة تبعاً لموقع المشبه به من الإعراب لعل أهمها:

1- أن يكون المشبه به خبرا للمشبه:

كقولنا : زيد أسد . ومحمد بحر . والعلمُ نور . . .

وقال المتنبي وقدِ اعْتَزَمَ سيفُ الدولةِ سَفَرًا:

أينَ أزْمَعْتَ أيُّهذا الهُمامُ؟ نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَى وأنتَ الغَمَامُ

يسأَلُ المتنبي ممدوحه في تظاهر بالذعر والهلَع قائلا: أين تقصد ؟ وكيف ترحل عنا ؟ ونحن لا نعيشُ إلا بك، لأَنك كالغمام الذي يحيي الأَرض بعد موتها ، ونحن نشبه نبات الروابي الذي لا حياة له بغيرِ الغمامِ.

ففي البيت تشبيهان بليغان حُذف من كليهما الوجه والاداة معا ، فالمشبه في الأول "نحن" ، وهو ضمير في محل رفع مبتدأ ، وخبره "نبتُ" مضافا الى الربى .

وجاء في الاثر: «الْبِدْعَةَ شَرَكُ الشّرْكِ» .

البدعة هي التعبد لله بما لم يشرعه الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين . . . وإياكم ومحدثات الأمور» . أي أن البدعة بمثابة مصايد تؤدي بصاحبها الى الوقوع في الشرك المحبط للعمل .

ولذلك قَالَ أَئِمَّة الْمُسلمين كسفيان الثَّوْريّ: "إِنَ الْبِدْعَة أحب إِلَى إِبْلِيس من الْمعْصِيَة، لِأَن الْبدْعَة لَا يُتَاب مِنْهَا ، وَالْمَعْصِيَة يُتَاب مِنْهَا" . وَمعنى قَوْلهم أَن الْبدْعَة لَا يُتَاب مِنْهَا أَن المبتدع الَّذِي يتَّخذ دينا لم يشرعه الله وَرَسُوله قد زين لَهُ سوء عمله فَرَآهُ حسنا ، فَهُوَ لَا يَتُوب مَا دَامَ يرَاهُ حسنا ، لِأَن أول التَّوْبَة الْعلم بِأَن فعله سيء ليتوب مِنْهُ، أَو أَنه ترك حسنا مَأْمُورا بِهِ أَمر إِيجَاب أَو أَمر اسْتِحْبَاب ليتوب ويفعله . فَمَا دَامَ يرى فعله حسنا وَهُوَ سيء فِي نفس الْأَمر فَإِنَّهُ لَا يَتُوب، وَلَكِن التَّوْبَة مُمكنَة وواقعه بِأَن يهديه

الله ويرشده حَتَّى يتَبَيَّن لَهُ الْحق، كَمَا هدى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هدى من الْكفَّار والمنافقين وَطَوَائِف أهل الْبدع والضلال. . .[187]

فالمشبه البدعة –في القول المأثور– وهو مبتدأ، والمشبه به: شرك الشرك وهو الخبر، ووجه الشبه محذوف هو: مظنة الهلاك في الطرفين. والاداة محذوفة كذلك. فهذا تشبيه مجمل من حيث وجهه، مؤكد من حيث أداته، فسماه أهل البلاغة بليغا وكأن الطرفين معا اتحدا في الوصف فصارا كالشيء الواحد .

وبين لفظتي "شرك والشرك" جناس اشْتِقَاقٍ.

۞ وكقوله صله الله عليه وسلم: «الصومُ جُنة. .» .[188]

وفي رواية: "الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ" .

أي أن الصوم بمنزلة الدّرع التي تقي صاحبها الشرور والمصائب، أو تقيه النار، أو جميع ذلك. وقال أبو بكر بن العربي: إنما كان الصوم جنة من النار، لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات. فالحاصل إنه إذا كف نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة. وتؤيده رواية: "الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ" .[189]

---

187 "التحفة العراقية في الأعمال القلبية"، لابن تيمية، ص/39، الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هجرية.

188 إسناده صحيح. وفي حديث مُعَاذِ بنِ جَبَل، (. . .أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ من جَوْفِ اللَّيلِ. .)

189 "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، لابن حجر العسقلاني، 104/4 ، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هج. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. .

ووجه الشبه الوقاية في الطرفين. فهو تشبيه بليغ حذف منه الوجه والأداة معا. والطرفان مبتدأ وخبر.

2- أن يكون المشبه به مفعولا مُطلقا مبيّنا للنوع :[190]

كقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء..﴾ وقد مضى تحليل الآية.

وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

«اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلَا يَبْسُطْ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الْكَلْبِ». متفق عليه.

الانْبساط مَصْدَرُ انْبسَط، وهو مفعول مطلق مبين لنوع الفعل يبسط. أَيْ لَا يفرش احدكم ذراعيه عَلَى الْأَرْضِ فِي الصَّلَاةِ كما يفعل الكلب. وفي قصة أهل الكهف: "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ".

وجاء في حديث آخر صحيح: «إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَعْتَدِلْ، وَلَا يَفْتَرِشْ ذِرَاعَيْهِ افْتِرَاشَ السَّبُعِ». قال ابن حجر في فتح الباري :" أَيْ كُونُوا مُتَوَسِّطِينَ بَيْنَ الِافْتِرَاش

---

190 المفعول المطلق عند النحاة ثلاثة أنواع:

- أحدها: أن يكون مؤكدا نحو سرتُ سيرا، وعلمت علما..

- الثاني: أن يكون مبينا للنوع، ويأتي على واحد من ثلاثة أحوال، 1-: أن يكون مضافا، نحو قولك: اعملْ عملَ الصالحين، وجد جد الحريص على بلوغ الغاية. 2-: أن يكون موصوفا، نحو قولك: اعمل عملا صالحا، وسرت سيرا وئيدا. 3- أن يكون مقرونا بأل العهدية، نحو قولك: اجتهدت الاجتهاد..

- الثالث: أن يكون مبينا للعدد نحو شربت شربة وشربت شربتين وشربات..

ينظر لمزيد من التفصيل: "شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك"، 2/ص172، : المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ .

وَالْقَبْض، وَقَالَ اِبْن دَقِيق الْعِيد: لَعَلَّ الْمُرَاد بِالِاعْتِدَالِ هُنَا وَضْعُ هَيْئَة السُّجُود عَلَى وَفْق الْأَمْر، لِأَنَّ الِاعْتِدَال الْحِسِّيّ الْمَطْلُوب فِي الرُّكُوع لَا يَتَأَتَّى هُنَا، فَإِنَّهُ هُنَاكَ اِسْتِوَاء الظَّهْر وَالْعُنُق، قَالَ : وَقَدْ ذَكَرَ الْحُكْم هُنَا مَقْرُونًا بِعِلَّتِهِ، فَإِنَّ التَّشْبِيه بِالْأَشْيَاءِ الْخَسِيسَة يُنَاسِب تَرْكه فِي الصَّلَاة. وَالْهَيْئَة الْمَنْهِيّ عَنْهَا أَيْضًا مُشْعِرَة بِالتَّهَاوُنِ وَقِلَّة الِاعْتِنَاء بِالصَّلَاةِ.

۞ وجاء في الحديث الشريف:

«يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّار، قَالَ: " فَيُنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ . . .» .[191]

والتقادع: التهافت والتتابع في الشيء، أي أن جنبتي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض، كأنّ كل واحد يدفع صاحبه يريد أن يسبقه. "وتقادع القوم: مات بعضهم إثر بعض .[192]

فالمشبه به في الحديث: "تَقَادُعَ الْفَرَاشِ" مفعول مطلق مبين لنوع الفعل "تقادع" .فهو على هذا تشبيه بليغ لأنه حذف من وجه الشبه والأداة معا ، وفيه دعوى الاتحاد بين الطرفين لذلك يقرب من الاستعارة، بل عده بعض المتقدمين كذلك كما مر معنا . .

۞ وقال الشاعر أبو تمام:

وفتكتَ بالمال الجزيلِ وبالعِدا		فتْكَ الصَّبابةِ بالمحِبّ المُغْرَمِ

والمشبه به في هذا التشبيه " فتْكَ الصَّبابة. . " مفعول مطلق مبين نوع الفعل "فتكت" .

---

191 رواه احمد وغيره، وحسنه العلماء وصححه الالباني.

192 "النهاية في غريب الحديث والأثر"، 24/4 .

والفتك الأول بالمال والاعداء حسي لأنه مرئي فهو شجاع ومبذر ماله. ولكن الفتك الثاني –المشبه به– عقلي، وهذا من لطيف التشبيهات وأرقها وأدخلها في البلاغة وأدقها، ووجه البلاغة فيه هو إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلاء، فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس، وفى هذا نهاية المبالغة، وأشدها تأثيرا في النفس، وامتلاكا للقلب، بالرغم من كونه تشبيها مقلوبا أو معكوسا، ادعى فيه الشاعر ان المشبه به (فعل الصبابة والغرام) –وهو شيء معنوي– أقوى في وجه الشبه من المشبه وهو شيء محسوس! وهذا النوع كثير عند الشعراء، ومنه:

كأن انِتضاء البَدر من تحت غَيمه نجاةٌ من البأساء بعد وقوع

فإنه لما رأى العادة جارية أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي يَنحسر عنه الغمام، قلب التشبيه ليرينا أن صورة النجاء من البأساء –لكونها مطلوبة فوق كل مطلوب– أعرف عند الإنسان من صورة انتضاء (خروج) البدر من تحت غيمه، فشبه هذه بتلك. [193]

وبيت ابي تمام –موضع الشاهد– فيه أسلوب بلاغي آخر هو الكناية، لأن الشاعر كنى عن كرمه الزائد بفتك المال والأعداء، فأطلق كلاما وأراد لازم معناه..

3– أن يكون المشبه به مضافا الى المشبه :

نحو: نور العافية، وظلام المعركة، وعار الجهل.

.

193 "مفتاح العلوم" لأبي يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ص/344، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

❁ وكقول ابن خفاجة الأندلسي (ت/533 هج):

وَالريحُ تَعبَثُ بِالغُصونِ وَقَد جَرى ذَهَبُ الأَصيلِ عَلى لُجَينِ الماءِ [194]

والشاهد في الشطر الأخير، أي وقد انتشر ضوء الأصيل (وقت الغروب) الذي يشبه لون الذهب على ماء النهر الأبيض الصافي الذي يشبه سبيكةً من الفضة المذابة.

اما الشطر الأول ففيه استعارة طريفة، حيث شبه الريح بشخص يداعب شيئًا ما، فيحرك أغصان الشجر يمنة ويسرة برفق، حينما تهب عليها نسماته الرقيقة، ثم حذف المشبه به وأشار اليه ببعض ما يعرف به وهو العبث أي المداعبة، ثم استعمل الفعل "تعبث" على سبيل الاستعارة بالكناية. وهذا تشخيص بديع يوحي بجو المرح الذي ساد المكان وقت الغروب. .

ثالثا– نوعا التشبيه باعتبار الأداة

أولاً– التشبيه المرسل:

وهو ما ذُكرت فيه أداة التشبيه كما مر في أمثلة عديدة (فليُرجع إليها) .

ونكتفي بإيراد شاهد آخر من الحديث النبوي الشريف.

---

194 اْبنُ خَفَاجَةَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ أَبِي الفَتْحِ بنِ عَبْدِ اللهِ، شَاعِرُ وَقْتِه، لَهُ (دِيْوَانٌ) مَشْهُوْرٌ، وَلَمْ يَتعرَّضْ لِمَدحِ مُلُوْكِ الأَنْدَلُسِ، تُوُفِّيَ: سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ، وَلَهُ ثَلاَثٌ وَثَمَانُوْنَ سَنَةً.

والشاهد آخر بيت من قطعة يصف فيها الشاعر روضا متعرجا يجري في روض بهيج:

لِلَّهِ نَهرٌ سالَ في بَطحاءِ أَشهى وُروداً مِن لَمى الحَسناءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثلَ السِوارِ كَأَنَّهُ وَالزَهرُ يَكنُفُهُ مَجَرُّ سَماءِ
قَد رَقَّ حَتّى ظُنَّ قُرصاً مُفرَغاً مِن فِضَّةٍ في بُردَةٍ خَضراءِ
وَغَدَت تَحُفُّ بِهِ الغُصونُ كَأَنَّها هُدبٌ يَحُفُّ بِمُقلَةٍ زَرقاءِ

وقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

«النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا» .[195]

شبه عليه الصلاة والسلام الناس بالمعادن التي تكون في قرارات الأرض، فلا يحكم على ظواهرها حتى تستخرج دفائنها، وتستنبط كوامنها، فيكون منها اللجين والنُّضار (الذهب)، ويكون منها النفط والقار. فكذلك الناس لا يجب أن يحكم على مجاليهم (ظواهرهم)، ولا يقطع على بواديهم حتى يُخبروا ويُعرفوا، ويُثاروا ويجثوا فيُخرج البحثُ جواهرَهم، ويُمَحّصُ الامتحان مخابرهم، فيتبين حينئذ كرم النحائز، وطيب الغرائز، وتكشف منهم الطرائق، ولئيم الخلائق.[196]

وكلمة الناس التي وردت في الحديث تشمل الناس جميعا: العربي والفارسي والهندي والرومي، وغيرهم. وقد جرت في حياة الناس وأعراف الشعوب مقاييس يتم من خلالها تقسيم الناس إلى طبقات، وهذه المقاييس منها ما يعود إلى الحسب، ومنها ما يعود إلى النسب، أو الحياة أو المال. والمجتمع العربي قبل الإسلام لم يكن بعيدا عن تلك التصنيفات، فكانوا كذلك يصنفون الناس إلى سادة وعبيد . وقد حرص الإسلام

---

195 جَاءَ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي: الْبُخَارِيِّ 140/4، 148 (كِتَابُ الْأَنْبِيَاءِ . .) و(كِتَابُ الْمَنَاقِبِ . .) وَنَصُّهُ: "خِيَارُهُمْ (وَفِي لَفْظٍ: خِيَارُكُمْ) فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا" . وَجَاءَ الْحَدِيثُ كَامِلًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي: مُسْلِمٍ 2031/4 (كِتَابُ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ) . .

196 "المجازات النبوية" للشريف الرضي، ص111، تحقيق مروان العطية ومحمد رضوان الداية. .

واللجين: الفضة. والنضار: الذهب. والقار: القطران.

على تأصيل قواعد وأسس يتم من خلالها التفاضل بين الناس، فأمر أن يكون المقياس الأول هو الدين والأخلاق والعلم.

وحين نتدبر الملامح الفنية التي ارتفعت بهذا الحديث من حيث الصورة، وحددت خطوطها وألوانها، سنجد أن النبي ﷺ استعمل أسلوب التشبيه. ووظيفة التشبيه البلاغية كما رأينا تقوم على تصوير المعنى، وتقديمه تقديما محسوسا، وذلك عن طريق ربط الصور الحسية، بأخرى أشد منها تمكنا في الصفات الحسية، وهذا ما يجعله قريبا من مجال الإدراك الإنساني، ويجعله أكثر قدرة على التأثير والتوكيد . .

والصورة الفنية في الحديث طرفها الأول هو الناس (المشبه) والطرف الآخر هو المعادن (المشبه به) والأداة المستعملة حرفية هي الكاف، توسطت الطرفين، أما وجه الشبه فلم يذكر وهو التفاضل، ولذلك فهو تشبيه مجمل من هذه الناحية. وبالنظر وجدنا أن هذا الربط بين الناس والمعادن يتم من جوانب متعددة بواسطة التصوير ليبين تمايزهما حسيا من جهة اللون: لون الذهب والفضة، ومن خلالهما تتضح ألوان وطبيعة المعادن الأخرى التي لم يذكرها الحديث.

ثانياً– التشبيه المؤكد:

هو ما حذفت منه الأداة، وسُمي كذلك لتأكده بحذفها كما سبق في أمثلة كثيرة.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:

«الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» .[197] [صحيح]

---

197 رواه مسلم في الرقائق، والترمذي في الزهد عن قتيبة، وابن ماجه في الزهد عن أبي مروان، واحمد . .

شبه الْمُؤمن فِي دنياه بمسجون، لأنه مَمْنُوع فِيهَا من الشَّهَوَات الْمُحرمَة والمكروهة، ومكلف بِفعل الطَّاعَات الشاقة فَإِذا مَاتَ استراح من هَذَا، أَو انْقَلب إِلَى مَا أعد الله لَهُ من النَّعيم الدَّائِم والراحة الْخَالِصَة من المنغصات. وَأما الْكَافِر فشبّه بحُرّ يعيش بدون قيود، يرتع في الشهوات كما ترتع البهائم، فله مَا حصل فِي الدُّنْيَا مَعَ قلته وتكديره بالمنغصات، فَإِذا مَاتَ انْقَلب إِلَى الْعَذَاب الدَّائِم وشقاوة الْأَبَد. فالله جعَل مَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبَهْجَةِ وَالنُّضْرَةِ مِحْنَةً، لينظر من من يحسن التصرف فيه كما قال تعالى: "لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" فالدنيا لا تصفو لمؤمن، كيف وهي سجنه وبلاؤه كما أثر عن أم المومنين عائشة رضي الله عنها ؟ [198]

وهذا التشبيه مفرد وبليغ، لحذف وجه الشبه والأداة معا كما راينا سابقا .

التشبيهُ الضِّمْنِي وبلاغته

وهو تشبيه لا يأتي على صورة أحد أنواع التشبيه السابقة، إذ لا تظهر فيه الأداة ووجه الشبه صريحين، وإنما تُلمح العلاقة بين الطرفين من خلال السياق او المعنى الذي يتضمنه التشبيه، وهو من أقوى أنواع التشبيه وأبلغه، وقد أدخله القدماء في التشبيه التمثيلي، ويكون في البرهنة على إثبات أمر أو نفيه، أي يُؤْتَى به لِيُفيدَ أنَّ الحُكم الذي أُسْنِدَ إِلَى المشبَّهِ مُمكنٌ.

❁ ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ذَلَّ من يغبِطُ الذليلَ بعيشٍ   رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

[198] "جامع العلوم والحكم"190/2، ابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط، ط7، 1422هـ

مَن يَهُنْ يَسهلِ الهوانُ عليه ما لِجُرحٍ بمَيِّتٍ إيلام

أي أن الرجل المهينَ الذي ذهبت أَنَفته لا يتأثّر بالهوان، كالميت الذي ذهبت حياته، فهو لا يتأثّر بالجرح. ولكن التشبيه فُهم من سياق الكلام، ولم تذكر أركان التشبيه صراحة. والوجه فقد الشعور في الطرفين. وغرضه بيان إمكان حال المشبه.

۞ وكقول أبي فراس الحمداني: [199]

سَيَذكرني قومي إذا جَدَّ جَدُّهُمُ وفي الليلة الظلماء يُفتقدُ البَدر
ولَوْ سَدَّ غَيْرِي مَا سَدَدْتُ اكْتَفُوا بِهِ وَمَا كَانَ يَغْلُو التِّبْرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ
وَنَحْنُ أُنَاس لَا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُوْنَ العَالَمِيْنَ أَوِ القَبْرُ
تَهُوْنُ عَلَيْنَا فِي المَعَالِي نُفُوْسُنَا وَمَنْ خَطَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ مَهْرُ

[199] أَبو فِرَاس الحَمداني (320 – 357 هـ) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أمير شاعر فارس. /ه رومية. وهو ابن عم سيف الدولة الحمداني امير حلب. كان الصاحب بن عباد يقول: "بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس". وله وقائع كثيرة، قاتل فيها الروم بين يدي سيف الدولة، وأسره هؤلاء مرتين، وقد حمله الروم إلى القسطنطينية في الأسر الثاني، فكاتب سيف الدولة وحاول استعطافه وحثّه على افتدائه، لكنه تأخر عليه حتى طال أسره، وراسل الخصوم. وفي سنة 966 م تم تحريره. وفي سجنه نظم قصائده "الروميات"، وهي من أحسن الشعر الإنساني وأصدقه. والقصيدة التي نقتطف منها هذه الأبيات من روائع الشاعر، ومطلعها:

أَراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ
بَلى أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ وَلَكِنَّ مِثلي لايُذاعُ لَهُ سِرُّ

أي أن قوم الشاعر إذا حَزَبهم أمرٌ خطيرٌ –مِن حرب أو غيره– سيحتاجون إلى رجل جَلْد مخلِص مجرِّب يخلصهم مما أحدق بهم، ولن يجدوا خيرا من الشاعر ليقوم بذلك، تماما كالبدر لا يفتقده الناس إلا إذا أظلموا، وخافوا وحشة الليل وظلامه الحالك.

والشاعر موقن أن مكانه لا يسده أحد، إذ لو وجد غيره لكفاهم ويلات الحرب.

ويفخر بقومه وأنهم يرمون بأنفسهم في أتون الحروب، فإما تصدروا الناس وسادوهم وإما ماتوا بعزة وكرامة. وإن رجالهم ليبذلون أرواحهم فى نيل المعالي، فمن خطب الحسناء لم يغلها المهر ولم يعده باهظ الثمن، بل يقدمه راضيا حتى لو كانت مهجته.

في الأبيات السابقة تشبيهات ضمنية ثلاثة:

– أولها قوله: سيذكرني قومي إذا جَدَّ جَدُّهُمُ. . .

يشبِّه أبو فراس نسيان قومه وإعراضهم عنه ولا يذكرونه إلا في المواقف العصيبة بحال القمر، لا يدرك الناس منزلته إلا إذا غَشِيَهم الظلام وغاب نوره. ونحن نرى أن التشبيه لا يفهم من البيت إلا ضمنا لعدم ظهور أركانه صراحة: الطرفين والوجه والأداة. لكنه مع ذلك أثبت ذلك بألطف أسلوب وأبلغه، حتى إننا لا نشك في الحجة التي ساقها إثباتا لدعواه.

وفي البيت من انواع البلاغة كذلك "المجاز العقلي" لعلاقة الإسناد إلى المصدر، فقد أسند الجد إلى الجد، أي الاجتهاد، وهو ليس بفاعل له، بل فاعله الشخص الجاد –

فأصله جد الجاد جدا– أي اجتهد اجتهاداً، فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد، واسندَ الفعل إلى الجد. [200]

– ثانيها قوله: ولَوْ سَدَّ غَيْرِي . . . وَمَا كَانَ يَغْلُو التِّبْرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْـرُ

يرى أبو فراس أن مكانته في قومه لا تعدلها مكانة، فهو فتاهم المجرب، الذائد عن حياضهم، المدافع عن أعراضهم، وهم يعلمون أن لا أحد يعوضه في هذا. ولكي يبرهن الشاعر على ذلك قال: إن الصفر –أي النحاس– لو كان مطلوبا ومحبوبا عند الناس لما غلت قيمة الذهب، فهو لا شك أغلى دائما ! فاستعمل الشاعر التشبيه الضمني، وكأنه يقول: منزلتي عند قومي أعلى وأكرم من غيري، تماما كمعدن الذهب

---

200 المجاز العقلي: إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ما هو له. وله علاقات كثيرة غير إسناد الفعل إلى المصدر، منها:

1– إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول نحو قوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي مرضية، يرضى بها الذي يعيش فيها. وكذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي مدفوق.

2– إسناد ما بني للمفعول إلى الفاعل نحو: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، لأن الوعد آت.

3– الإسناد إلى الزمان، نحو: نهاره صائم، وليله قائم. وقول ابي البقاء الرندي:

هي الأمور كما شاهَدتها دُوَل   من سَرَّه زمنٌ ساءتهُ أزمـانُ

فقد أسند الصوم إلى النهار، والقيام إلى الليل، والإساءة والسرور إلى الزمان، وليست واقعة منها.

4– الإسناد إلى المكان: نحو: ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾، فقد أسند الجري إلى الأنهار، وهي أمكنة للمياه وليست هي الجارية بل الجاري ماؤها، ونحوه: "بيت ساكن".

5– الإسناد إلى السبب، نحو:

إني لمن مَعْشرٍ أفنى أوائلَهم   قيلُ الكُماة ألا أين المُحامونا ؟

فقد نسب الإفناء إلى قول الشجعان، وليس ذلك القول بفاعل ولا بمؤثر وإنما هو سبب فقط.

يطلبه الناس في كل زمان لأنه أنفس من النحاس! فلم يذكر أبو فراس اركان التشبيه صراحة وانما فهمنا مقصوده من سياق الكلام، فكانت حجته أقوى ودليله أوضح.

– ثالثها قوله: تَهُوْنُ عَلَيْنَا . . . وَمَنْ خَطَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ مَهْرُ

فقد شبه الشاعر حالهم في طلب المعالي، واسترخاص كل غال ونفيس في سبيل ذلك حتى نفوسهم، بحال من يخطب الحسناء من النساء، لا يبخل عليها بغية كسب رضاها، وكل مهرٍ يُدفعُ لها فهو رخيصٌ وإن غَلا. فغرضُ أبي فراس من هذا القول استرخاصُ الصّعابِ عند طَلَب المَعالي، ولكي يبين امكان ذلك استعمل التشبيه الضمني –كما رأَينا في البيتين السابقين– وهو أقوى بلاغة وأنصع جمالاً، لأنه يضع المعنى المقصود في صورة قوية مؤثرة مصحوبة بالدليل لا يمكن للعاقل إنكارها.

ومن هذا النوع قول ابن الرومي (221 – 283 هـ):

شابَ رأسِي ولاتَ حِينَ مَشِيبِ وعَجيبُ الزّمانِ غَيرُ عَجيبِ
قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى ولَيْسَ عجيباً أَنْ يُرَى النَّورُ في الْقَضِيبِ الرَّطيبِ [201]
ساءها أنْ رأتْ حبيباً إليها ضاحكَ الرأسِ عن مفارقَ شِيبِ
يا حليفَ الخِضابِ لا تَخْدعِ النفـ ـس فما أنتَ للصبا بنسيبِ
ليس يُجدي الخضابُ شيئًا مِن النَّفـ ـعِ سوى أنهُ حِدادُ كَئيبِ

[201] "نهاية الأرب في فنون الأدب"، 1/ 129. وابن الرومي هو علي بن العباس بن جريج، رومي الأصلي، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشأ ببغداد. وهو صاحب التشبيهات البديعة.. وكان من الهجائين المشهورين والمتشائمين في عصره. قال المرزباني: "لا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس أو مرؤوس، إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر، وتحاماه الرؤساء وكان سببا لوفاته" مسموما.

ابن الرومي يكثر البكاء على شبابه، ويعلل نفسه أحيانًا بأن الشيب في الرأس كالنور على الغصن، ويأسى كثيرًا لاحتياجه إلى الخضاب، الذي يراه أشبه بسواد الحداد، ومَفَارِقُ شعر رأسه من شدة بريقها كأنها ضاحكة، فهو يكاد يصرخ حين خروجه إلى الحسان في شَعر ميت وقلب حي، والحب يتفجر قلبه دائمًا بالحياة أيا كان حاله! والشاهد في قول الشاعر: "قَدْ يَشِيبُ الْفَتَى وَلَيْسَ عجيباً . . ." أي أنَّ الشابَّ قد يشيبُ ولم تتقدمْ به السنُّ، وإنَّ ذلك ليس بعجيب، فإنَّ الغصنَ الغضَّ الرطب قد يظهرُ فيه الزهر الأَبيضُ. فابنُ الرومي هنا لم يأْت بتشبيهٍ صريح فإنه لم يقل: إنَّ الفتى وقد وَخَطَهُ الشيبُ كالغصنِ الرطيب حين إزهاره، ولكنه أتى بذلك ضمنًا، وغرضه إفادة أن الحكم الذي أسند للمشبّه (رؤية الشيب في رأس الشاب) أمر ممكن الوقوع لا اختلاف فيه، وهذا من قوة التشبيه الضمني البيانية.

- وشبيه بهذا قول الخليفة العباسي المستنجد بالله:

عَيَّرَتْنِي بِالشَّيب وَهُوَ وَقَـارُ لَيْتَهَا عَيَّرتْ بِمَا هُوَ عَارُ
إِنْ تَكُنْ شَابَتِ الذَّوَائِب مِنِّي فَاللَّيَالِي تَزِينُهَا الأَقْمَـارُ

هنا شبه الشاعر ذوائب شعره –وهي الشعر المتدلي من ضفيرة الرأس– بسواد الليل، وشبه بياض الشيب بالأقمار المنيرة الزاهية، وكأنها زينة ذلك الليل البهيم. وهو تشبيه جميل فيه تصوير بليغ، ولم يستخدم الشاعر أسلوب التشبيه المتبع بذكر أركانه المعروفة أو بعضها، ولكننا فهمناه ضمنا من خلال سياق الكلام، فكان أحرى بقبول دعواه. .

- ومنه قول أبي الطيب المتنبي (ت/354 هج) مادحاً سيف الدولة الحمداني:

رأيتكَ في الذين أرى مُلوكاً كأنكَ مُستقيمٌ في مُحَال

فإنْ تَفقِ الأنامَ وأنتَ مِنهم فإنّ المِسكَ بَعضُ دمِ الغزال

التشبيه هنا ضمني أيضا؛ لأنه يفهم من سياق الكلام. أراد الشاعر أن ممدوحه فاق الأنام إلى حد بَطَل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهةٌ ومقاربةٌ، بل صار كأنه أصلٌ بنفسه وجنسٌ برأسه. وهذا أمرٌ غريب، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصّة به إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس، وبالمدَّعِي له حاجة إلى أن يصحّح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح، فإذا قال: فإن المسك بعض دم الغزال، فقد احتجّ لدعواه، وأبان أن لما ادّعاه أصلاً في الوجود، وبرّأ نفسه من ضَعَة الكذب، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته، حتى لا يُعَدُّ في جنسه، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه، لا ما قلّ ولا ما كثُر، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دماً البتة". [202] وذكر جملة "وأنت منهم" ليزيد الغرابة. .

وقد تغنى المتنبي بهذه المزية ونسبها لنفسه، فقال:

وما أنا مِنهم بالعَيشِ فيهم ولكنْ مَعدنُ الذَّهب الرُّغامُ [203]

يقول: لست من هؤلاء الناس، وإن كنت أعيش فيما بينهم، بل جوهري يخالف جوهرهم وطباعي تنافي طباعهم، كما أن الذهب يتولد من التراب، ومع ذلك جوهره يخالف جوهر التراب. شبه نفسه بالذهب وسائر الناس بالتراب. وهذا تشبيه ضمني أيضا لأنه فهم من سياق الكلام بمعونة القرائن. فغرض الشاعر أن يبرأ من قوم لا

202 "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، ص/ 123.

203 "معجز أحمد" (شرح لديوان المتنبي) ص/35، أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري.

يقدرونه حق قدره، ولا ينزلونه منزلته الشعرية التي هو جدير بها، والتي افتخر وتغنى بها طيلة حياته، من مثل قوله:

أَنَا الذي نَظَر الأَعْمَى إلى أَدَبي وَأَسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَامُ مِلءَ جُفُوني عن شَوارِدِها وَيَسْهَر الخلقُ جرَّاها وَيَختَصِمُ

يقول: أنا الذي ذاع أدبي، واستبان موضعي فيه، فثبت ذلك في العقول، وتمكن في القلوب، ورآه الأعمى وإن كان لا يبصر، وأسمعت كلماتي فيه ذا الصمم وإن كان لا يسمع. ثم أنا أنام ساكن النفس، متمكن النوم، لا أعجب بشوارد ما أبدع، ولا أحفل بنوادر ما أنظم، ويسهر الخلق في تحفظ ذلك وتعلمه، ويختصمون في تعرفه وتفهمه، فأستقل منه ما يستكثرونه، وأغفل عما يغتنمونه. [204]

ولكن رغم هذا كله فالمتنبي مضطر للعيش بين هؤلاء القوم، تماما كالذهب النفيس لا يضره ملازمة التراب حتى يستخرج منه فتظهر قيمته! ولكي يبرهن على ذلك يأتي الشاعر بحجة عقلية لا تنكر لما يدعيه، وهذا ما يعرف أيضا "بالمذهب الكلامي" وهو نوع من علم البديع.

- ومن التشبيه الضمني كذلك قول أبي تمام الطائي:

وَطُولُ مُقَامِ الْمرءِ في الْحَيِّ مُخْلِقٌ لديباجتَيْهِ، فاغترب تَتَجَـدَّدِ
فَإنّي رَأَيتُ الشَّمْسَ زيدَتْ مَحبـَّةً إلى النَّاسِ أنْ لَيسَتْ عَلَيْهِم بسَرمد

204 "شَرح شِعر المُتَنبي" لأبي القاسم ابن الإِفِليلي (ت ٤٤١هـ)، 47/2، دراسة وتحقيق: أستاذي الكريم الدكتور مُصْطفى عليّان، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٩٩٢ م.

الديباجة: أراد الوجه والمكانة الأدبية. وأخلق: عطل وأفسد . وسرمد: مستمر.

التشبيه هنا ضمني، واستخدم الشاعر التشبيه استخداما حجاجيا حيث عرض فكرة ثم أورد الدليل عليها، فكان لذلك تأثير في النفس لتقبل هذه الفكرة. فأبو تمام يَرى أن مَن طال مُكثه في قوم هان لديهم، وأنفوا منه، كالثوب الذي ذهبت ديباجته ورونقه، فإذا اغترب تجدد، وغدا موضع اشتياق، مثله مثل الشمس التي إذا غابت أثارت الشوق إليها في كل غداة.

وذكر ابن الأثير أن هذا المعنى مبتدع لم يسبق إليه الشاعر، وغيره كثير.

ويرى ابن رشيق القيرواني (المتوفى سنة 463 هـ) أن أبا تمام وابن الرومي: كانا أكثر المولّدين اختراعاً، وتوليداً فيما يقول الحذاق. . . [205]

.

---

[205] "العمدة في محاسن الشعر وآدابه"، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد . الناشر: دار الجيل الطبعة: الخامسة، 1401 هـ –1981 م.

قال ابن رشيق: والفرق بين الاختراع والإبداع –وإن كان معناهما في العربية واحداً– أن الاختراع: خلق المعاني التي لم يسبق إليها، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ؛ فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمد، وحاز قصب السبق.

وأما البديع فهو الجديد . . والبديع ضروب كثيرة، وأنواع مختلفة. . . على أن ابن المعتز وهو من جمع البديع، وألف فيه كتاباً لم يعده إلا خمسة أبواب: الاستعارة أولها، ثم التجنيس، ثم المطابقة، ثم رد الأعجاز على الصدور، ثم المذهب الكلامي، وعد ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن، وأباح أن يسميها من شاء ذلك بديعاً، وخالفه من بعده في أشياء . . .

وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ):

يا واعِظَ الناسِ عَمّا أَنتَ فاعِلُهُ ... يا مَن يُعَدُّ عَلَيهِ العُمرُ بِالنَفَسِ
اِحفَظ لِشَيبِكَ مِن عَيبٍ يُدَنِّسُهُ ... إِنَّ البَياضَ قَليلُ الحَملِ لِلدَنَسِ
كَحامِلٍ لِثِيابِ الناسِ يَغسِلُها ... وَثَوبُهُ غارِقٌ في الرِجسِ وَالنَجَسِ
تَبغي النَجاةَ وَلَم تَسلُك طَريقَتَها ... إِنَّ السَفينَةَ لا تَجري عَلى اليَبَسِ

يخاطب الشافعي بهذه الأبيات كل غافل عن أمر الآخرة والحساب، يعظ الناس وينسى نفسه، يقترف الذنوب ولا يبالي، ويرشده الى أقوم السبل لتجنب الهلاك والخسران. ثم يخبره أن الانسان إذا وصل الى أرذل العمر واشتعل رأسه شيبا –وهو مصر على معاصيه– لا يأمن من الهلاك، تماما كالثوب الأبيض لا يتحمل الوسخ ولو كان قليلا. وهذا تشبيه ضمني، لم يذكر صريحا في الكلام وانما فهمناه من مضمون الكلام.

وفي البيت الأخير تشبيه ضمني آخر، حيث شبه من يريد النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة ولم يتوصل الى مراده بالأسباب الشرعية، بحال سفينة تبحر في الصحراء بدل البحر! ولكننا فهمنا التشبيه ضمنا من سياق الكلام بمعونة القرائن.

والغرض من التشبيهين بيان إمكان المشبه. فقد توسل الشاعر الى مراده من تحذير الغافل العاصي بالمقارنة الخفية –غير الصريحة– بين حاله وحال الثياب البيض التي يظهر عليها أثر الوسخ أكثر من الملونة! وبحال السفينة لا تجري الا في مكانها المعهود وهو الماء وليس اليابسة! وبذلك تم له المراد مصحوبا بالدليل..

المبحث الثالث

مِن أغراض التّشبيه

الغرض من التشبيه يعود في الغالب إلى المشبه، لأنه الأمر المحكوم عليه والمقيس الذي يُطلب في التشبيه ما يتعلق به، وقد يعود الغرض الى المشبه به في التشبيه المعكوس كما سنرى. وذكر الأدباء قديما ان الغرض الأساس من التشبيه هو البيان والتوضيح والتوكيد، وتحدثوا عن أغراض أخرى تفهم من سياق الكلام، وأهم الأغراض العائدة الى المشبه عند متأخري البلاغيين هي:[206]

1- بيان حال المشبه

أي بيان صفته وتوضيح حالته للجهل به عند السامع، فنلحقه بشيء معلوم، ووصف معروف ليتجلى لنا أمر التشبيه وينكشف حاله بعد خفائه.

ومنه قول النابغة الذبياني:

ألم تر أنّ الله أعطاك سَورة   ترى كلّ مَلك دونها يَتذبذب
كأنكَ شمسٌ والملوك كواكبٌ   إذا طَلَعَتْ لم يَبدُ منهنّ كوكبُ

[206] راجعها في "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح" 413/3، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة: 17، 1426هـ-

هذان الأبيات من مطلع قصيدة كان النّابغة قد أرسلها للنّعمان بن المنذر بن ماء السّماء (582–609 م)– من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام– يعتذر إليه فيها عن شيء بلغه بسبب امرأته المتجرّدة بنت زهير.

يقول: إن الله أعطاك قوة ملكتَ بها الدنيا، فكل العروش دونها تتضاءل، ثم زاد الأمر توضيحا فشبه ممدوحه بالشمس في شهرته، وشبه غيره من الملوك بالكواكب في ضعف نورها، لأن سطوة الممدوح تغض من سطوة كل ملك كما تخفي الشمس الكواكب، فهو يريد أن يبين حال الممدوح وحال غيره من الملوك. والوجه عظم حال النعمان وصغر حال الملوك الآخرين إذا قيسوا به. والتشبيهان مفردان بليغان حذف من كليهما الوجه والأداة، ولذلك زعم بعض البلاغيين ان التشبيه البليغ أقوى من التشبيه المفصل (مذكور الوجه) والمرسل (محذوف الأداة) في الكلام، لأن هذا الحذف يوحي باتحاد الطرفين ويقرب التشبيه من الاستعارة. ولكن ليس هذا على إطلاقه!

❁ وقال الله سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . [سورة العنكبوت/41]

يبين لنا الله تعالى حال هؤلاء المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ودفعَ الضرِّ عنهم في الشدائد فألحقهم ببيت العنكبوت، ولا يخفى أنه في غاية الوَهَن، وبذلك ينكشف لنا ضعف ما تمسكوا به وعدم جدواه. لذلك عقب تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

والتشبيه تمثيلي المشبه أمر عقلي والمشبه به أمر محسوس، والغرض من التشبيه هنا بيان حال المشبه، إضافة الى تشويه حاله وتحقيره، ولا منافاة بين الجمع بينهما .

۞ وقال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

« تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ » .[207]

أي أوقعوا المتابعة بينهما بأن تجعلوا كلا منهما تابعا للآخر، أي إذا حججتم فاعتمروا، وإذا اعتمرتم فحجوا . والخبث: بفتحتين، ويروي بضم فسكون، هو الوسخ والرديء الخبيث. فتطهير الحديد بالنار وإزالة خبثه صورة مألوفة معروفة لدى السامع وهي تبين لنا بجلاء حالة المشبه: وهي أثر الحج والعمرة في القضاء على الخطايا وتكفيرها . والتشبيه مفرد مجمل من حيث وجه الشبه، وهو هنا الإبعاد والنفي في الطرفين.

2- بيان إمكان حال المشبه

وذلك عندما يكون المشبه أمرا غريبا يمكن أن يُخالَف فيه أو لا يُتصور ثبوته فنأتي بالتشبيه لبيان أنه أمر ممكن الوقوع، ويكثر هذا النوع في التشبيه الضمني كما رأينا .

۞ ومنه قول أبي الطيب في مدح سيف الدولة:

رأيتُكَ في الذين أرى ملوكاً كأنكَ مستقيمٌ في مُحال

---

[207] قال الشيخ أحمد شاكر، محقق المسند (3/ 537): إسناده صحيح. . . والحديث رواه الترمذي 2: 78 والنسائي 2: 4 كلاهما من طريق أبي خالد الأحمر. قال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب من حديث عبد الله بن مسعود"، وقال شارحه: "وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما" . . [دار الحديث – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م].

فـإنْ تَفُقِ الأنـامَ وأنتَ منهم   فإنَّ المِسكَ بعضُ دم الغزال
أنتَ الذي لو يُعابُ في مـلأٍ   ما عِيبَ إلا بِأنّه بَشَرُ

يرى الشاعر أن بيان فضل ممدوحه على الملوك، كبيان فضل الاستقامة على المحال، والحق على الباطل، فإن فاق الأنام وهو منهم، وفَضَلهم مع مشاركته في الجنس لهم، فالمسك من دم الغزلان في أصله، وسائر دماء الحيوان يقصر عنه، ولا يشبه بشيء منه، ورُب واحدٍ قد بَذّ أمّه. .

زعم المتنبي –اذن– أن ممدوحه صار جنسا متفردا عن غيره من الناس لأنه فاقهم جميعا، فلم يعدْ بينه وبينهم مقاربة، وهذا في الظاهر كالأمر الممتنع، فأراد أن يبرهن على صحة زعمه وإمكان ادعائه فساق المشبه به، وهو أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته، ولم يعد من جنسه إذ لا يوجدُ فيه من الصفات الزكية في المسك.

وجاء في شرح ديوان المتنبي لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ):

"قال أبو الحسن محمد ابن أحمد المعروف بالمغربي: كان سيف الدولة يُسر بمن يحفظ شعر المتنبي وأنشدته يوما "رأيتك في الذين أرى ملوكا"، وكان أبو الطيب حاضرا، فقلت هذا البيت والذي يتلوه لم يُسبق إليه! فقال سيف الدولة: كذا حدثني ثقةٌ أن أبا الفضل محمد ابن الحسين قال كما قلت، فأُعجِب المتنبي واهتز. فأردت أن أحركه فقلت: إلا أن في أحدهما عيبا في الصنعة! فالتفت المتنبي التفات حَنق فقال: ما هو؟ فقلت: قولك مستقيم في محال، والمحال ليس ضدا للاستقامة، وإنما ضدها الاعوجاج! فقال الأمير: هَب هذه القصيدةَ جيميةً، فكيف تعمل في تغيير قافية البيت الثاني؟ فقلت عَجِلا كردَّة الطَّرف:

فإن تَفقِ الأنامَ وأنتَ منهم فإن البيضَ بَعضُ دمِ الدَّجاج

فضحك وضرب بيده وقال: حسن مع هذه السرعة، إلا أنه يصلح أن يُباع في سوق الطير، لا أنه مما يمدح به أمثالنا يا أبا الحسن!

وقال البحتري في مدح الفتح بن خاقان:

دانٍ على أيدي العُفاة وشاسِعٌ عن كل نِدّ في النَّدى وضَريب

كالبدرِ أفرَطَ في العلوِّ و ضوؤُه للعُصْبة السارينَ جِدٌّ قَريب

حيث وصفه الشاعر مرة بالقرب من (العفاة) أي طالبي نواله، ومرة بالبعد عن كل من يرغب في الوصول الى منزلته في الجود والسماح من أقرانه، فيظن السامع أن في هذا الوصف تناقضا ، فمن أجل نفي ذلك وبيان أن الجمع بين القرب والبعد ممكن لا استحالة فيه، أتى بنظير له وهو حال القمر، فهو بعيد لا يُدرك لكنْ ضوؤه قريب يهدي السارين في ظلمة الليالي الحالكة.

ومن هذا النوع قول أبي تمام مخاطبا زوجته:

لا تُنكري عَطَلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حَربٌ للمكان العالي

وتَنَظَّري خَبَبَ الرِّكَاب يَنُصُّهَا مُحْيِ القَرِيضِ إلىَ مُمِيتَ المَالِ

يقول لها: لا تنكري أن يكون الكريم فقيراً، فحاله هذه تشبه حال السيل ينزل على قمم الجبال فيجرف ترابها ليلقيه في الوادي. ولم يذكر الشاعر ذلك صريحا وانما فهمنا التشبيه ضمنا من الكلام، وكأنه قدم لصاحبته برهانا على دعواه لا تستطيع ردها .

قال الجرجاني: "فهذا قد خيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلوّ، والرّفعة في قدره، وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعِظم نفعه، وجب بالقياس أن

يزلّ عن الكريم زليل السّيل عن الطّود العظيم. ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام، فالعلّة في أن السيل لا يستقرّ على الأمكنة العالية، أن الماء سيّال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال، شيء من هذه الخلال"[208] !

وقابل الشاعر في البيت الثاني بين "مُحْيِ القَرِيضِ" ويعني به نفسه، وكأنه أحيا موات الشعر بمدحه هذا الشخص (الحَسَنُ بنُ رجاءٍ)، وهي استعارة مكنية، وبين "مُمِيتَ المَالِ" يعني به الممدوح لأنه لفرط كرمه بدد كل ماله. وهي كناية عن جوده العظيم. وهذه المقابلة زادت البيت رونقا وبهجه، وسلكت به من كمال الحسن نهجه.

3– بيان مقدار حال المشبه

وذلك عندما تُعرف حالُ المشبه في الجملة دون مرتبته في الشدة والضعف والقلة والكثرة والزيادة والنقصان. ومنه قوله تعالى (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام). وقوله عز وجل في سورة الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .

أخبرنا الله تعالى عن شجرة الزقوم في سورة "الصافات" فقال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا

208 "أسرار البلاغة"، ص/193.

ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ . وقال في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ان عذاب الكافرين وشربهم من الحميم (الماء الحار) بعد أكلهم من شجرة الزقوم – طعام الأثيم– يعرفه السامع لكنه يجهل مدى ظمئهم وطريقة شربهم لهذا الماء، فبين تعالى مقداره بأنه يشبه ظمأ وشرب الهيم، أي الإبل العِطاش التي لا ترتوي أبدا لداءٍ يصيبها يقال له الهيم او الهيام، فتظل تطلب المزيد حتى تهلك.

والتشبيه مفرد، او تمثيلي على رأي الجرجاني، وهو بليغ كذلك لحذف الأداة والوجه معا، والمشبه به "شرب الهيم" مفعول مطلق مبين لنوع الفعل كما مر معنا قريبا .

وقوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ شبه المهل –وهو دردي الزيت أو الفضة المذابة– يغلي في بطون الكافرين حتى يمزق أحشاءهم بغلي الحميم وهو الماء الحار، كما قال تعالى في سورة "محمد": ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ . ووجه الشبه الغليان في الطرفين، والأداة حرفية هي الكاف توسطت المشبه والمشبه به. والغرض من التشبيه كذلك بين مقدار المشبه.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ

الْجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ» [209].

فقلة المسلمين بالنسبة إلى أهل الشرك معروفة إجمالا لكن الحديث بين مقدارها.

ونذكر فيما يلي بعض فوائد هذا الحديث من شرح مسلم للنووي (ت ٦٧٦هـ): [210]

- أَمَّا تَكْبِيرُهُمْ فَلِسُرُورِهِمْ بِهَذِهِ الْبِشَارَةِ الْعَظِيمَةِ.

- وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ الشَّطْرَ وَلَمْ يَقُلْ أَوَّلًا شَطْرَ أهل الجنة فلفائدة حسنة، وَفِي أَنَّ ذَلِكَ أَوْقَعُ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَبْلَغُ فِي إِكْرَامِهِمْ، فَإِنَّ إِعْطَاءَ الْإِنْسَانِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى دَلِيلٌ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِهِ وَدَوَامِ مُلَاحَظَتِهِ.

- وَفِيهِ فَائِدَةٌ أُخْرَى هِيَ تَكْرِيرُهُ الْبِشَارَةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

- وَفِيهِ أَيْضًا حَمْلُهُمْ عَلَى تَجْدِيدِ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكْبِيرِهِ وَحَمْدِهِ عَلَى كَثْرَةِ نِعَمِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. - ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَكُونُونَ ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَكُونُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَوَّلًا بِحَدِيثِ الشَّطْرِ، ثُمَّ تَفَضَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالزِّيَادَةِ فأعلم بحديث الصفوف، فأخبر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَلِهَذَا نَظَائِرُ

---

[209] رواه الإمامان البخاري ومسلم، واللفظ له في "بَابُ كَوْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، ح رقم 376.

[210] "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، 95/3، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هج.

كَثِيرَةٌ فِي الْحَدِيثِ مَعْرُوفَةٌ كَحَدِيثِ "الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْمُنْفَرِدِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً" وَ"بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً" . عَلَى إِحْدَى التَّأْوِيلَاتِ فِيهِ. . "

رابعا– تـزيين المشبـه :

وذلك بإضفاء صفات الحسن والكمال عليه، بياناً لفضله وكمال أصله أو ترغيبا فيه وميل النفس إليه، كتشبيه السنابل في الحقول بالذهب، وتراب الحقل بالمسك، وحصبائه بالدُّر، وكتشبيه نساء الجنة بالبيض المكنون والياقوت والمرجان واللؤلؤ. .

۞ وكقوله تعالى في وصف خدم الجنة من الغلمان:

﴿ ويطوف عليهم ولدانٌ مُخلَّدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ﴾، أي يشبهن في حسنهم وصفاء بشرتهم وإشراق وجوهم حبات اللؤلؤ. والتشبيه باعتبار وجه الشبه مفرد لأنه شيئ واحد لا تعدد فيه، مفصل لوجود وجه الشبه (الصفاء والإشراق)، ومرسل لذكر أداة التشبيه الفعلية "حسبتهم" .

۞ وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ.» [متفق عليه، وهذا لفظ البخاري] .

معنى كمل: تناهى في جميع الفضائل. والثريد: خبز مكسر وضع عليه لحم ومرق. أي أن فضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة.

وقوله ﷺ "لم يكمل من النساء": يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلًّا منهما كفلت نبيًّا في حال صغره، فآسية كفلت

موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عيسى عبد الله ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة. فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها، فكانت أحب الناس إليه ﷺ بلا شك، لكن من بعد وفاتها صارت عائشة أحب الناس إليه، وقد ورد في فضل خديجة: انه صلى الله عليه وسلم "بشرها ببيت في الجنة من قَصب، لا صَخب فيه ولا نَصب"، وأقرأها السلام من الله ومن جبريل، وهذه منقبة عظيمة لم ترد لغيرها .

وأما فاطمة بنت رسول الله r فإنّها خُصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أُصيبت برسول الله r وبقية أخواتها مُتن في حياة النبيﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، وقد سئل عن أحب الناس إليه؟ قال: "عائشة، قيل ومن الرجال؟ قال أبوها"، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة –بل ولا في غيرها– أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات. وكان جبريل عليه السلام يقرئها السلام من ربها. وقد عمرت بعد رسول الله r قريبًا من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة، وتفتي المسلمين، وتصلح بين المختلفين. وهي أشرف أمهات المؤمنين، حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين. والأحسن الوقف فيهما رضي الله عنهما، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ"وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" يحتمل أن

يكون عامًا بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عامًا بالنسبة إلى ما عدا المذكورات. والله أعلم

وقوله ﷺ "كفضل الثَّرِيد"، قيل: مثَل بالثريد، لأنه أفضل طعام العرب، لأنه مع اللحم جامعٌ بين الغذاء واللذة والقوة، وسهولةِ التناول، وقلةِ المؤنة في المضغ، فيُفيد بأنها رضي الله عنها أعطيت مع حُسن الخلق وحلاوة المنطق وفصاحة اللسان رَزانةُ الرأي، فهي تصلح للتبعّل والتحدث، وحسبك أنها عقَلت ما لم يعقل غيرها من النساء، وروَت ما لم يرو مثلها من الرجال.

خامساً– تشويه المشبه أو تقبيحه:

وذلك بتجريده من الصفات التي ذكرناها في تزيين المشبه، وذلك تقبيحا وتنفيرا منه، كما مر من تشبيه حال بني إسرائيل بالحمار، وحال الكفار وأعمالهم بالرماد وبالسراب وببيت العنكبوت.

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

يحدثنا الله تعالى عن حال هَذَا الرَّجُل الذي كَانَ عَالِمًا بِدِينِ اللَّه وَتَوْحِيده، ثم خرج منه الى الكفر والضَّلَال، حَتَّى تَلَاعَبَ بِهِ الشَّيْطَانُ، فسار في ركابه وأصبح من أوليائه، حتى "أخلد الى الأرض" أي مَالَ إِلَى الدُّنْيَا وملذات الحياة الفانية، غافلا عن أمر

الآخرة دار القرار والخلود، وَخَابَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، فكانَ مُنْتَهَاهُ إِلَى الْبَوَارِ وَالرَّدَى.
وشبهه في فعله ذاك بأخسّ أنواع الحيوان عند الناس، وفي صورة مألوفة عند صغيرهم وكبيرهم، فالكلب لهاثه لا ينقطع سواء أطردته أم تركته، وحاله تلك تلازمه في كل فصل وفي كل حين. فَذَكَرَ اللَّهُ قِصَّتَهُ تقبيحا لفعله لِيَحْذَرَ النَّاسُ عَنْ مِثْلِ حَالَتِهِ.
والتشبيه هنا مركب او تمثيلي، شبهت فيه حالة بأخرى، والغرض منه التشويه.
وقوله تعالى: "فانسلخ منها" أي خَرَجَ مِنْهَا كما ينسلخ الجلد عن الشاة أو الثعبان، وهذه استعارة، حيث شبه فيها الخروج من الشيء ببطء بالسلخ، ثم اشتق من المصدر انسلخ بمعنى خرج بطيئًا، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية (صرح فيها بالمشبه به وهو فعل انسلخ). ومثله قوله تعالى "والليل نُسلخُ منه النهارَ". لأن هذا المنسلخ المذكور في الآية كان من العلماء –في زعم بعض المفسرين– ثم خرج من دينه رويدا رويدا بعد ان أتبعه ابليس بالغواية مدة طويلة.
قال الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ):
"وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَشَدِّ الْآيَاتِ عَلَى أَصْحَابِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ خَصَّ هَذَا الرَّجُلَ بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَعَلَّمَهُ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ، وَخَصَّهُ بِالدَّعَوَاتِ الْمُسْتَجَابَةِ، لَمَّا اتَّبَعَ الْهَوَى انْسَلَخَ مِنَ الدِّينِ وَصَارَ فِي دَرَجَةِ الْكَلْبِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَتْ نِعَمُ اللَّهِ فِي حَقِّهِ أَكْثَرَ، فَإِذَا أَعْرَضَ عَنْ مُتَابَعَةِ الْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى مُتَابَعَةِ الْهَوَى، كَانَ بُعْدُهُ عَنِ اللَّهِ أَعْظَمَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا، وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا» أَوْ لَفْظٌ هَذَا مَعْنَاهُ". [211]

[211] "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير"، 404/15، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط –١٤٢٠ هـ

ونورد فيما يلي ما ردَّ به الجاحظ على من اعترض على التشبيه في الآية، قال:[212]
"... زعموا أنّ هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾، فما يشبّه حال من أعطي شيئًا فلم يقبله – ولم يذكر غير ذلك– بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا، وإن تركته شدّ عليك ونبح، مع أنّ قوله: يلهث، لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش وحرّ شديدين، ومن تعب، وأما النّباح والصّياح فمن شيء آخر. قلنا له: إن قال: "ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا"، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمّى مكذبا، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مرارا، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والكرامات، في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه، فإنّ الكلب يعطي الجدّ والجهد من نفسه في كلّ حالة من الحالات، وشبّه رفضه وقذفه لها من يديه، وردّه لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له.

واختلف في هذا المُنسلِخ المذكور في الآية، فعند ابن مسعوُد هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مَدْين، فرشاه الملك على أن يترك دين موسى ويُتَابع الملك على دينه، ففعل، وأضل الناسَ بذلك. وقال ابن عباس: هو بَلْعَام الذي دعا على موسى، فالآيات التي أعطيها على هذا القول هي اسم الله الأعظم. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبِي الصَّلت. وكان قد أوتي علماً وحكمة، وكان قد أسلم قبل غَزْوَة بَدْر، ثم رجع عن ذلك، ومات كافراً، وفيه قال – صلى الله عليه وسلم –: "كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم". فالآيات على هذا ما كان عنده..

[212] كتاب "الحيوان"، 266/2، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرص عليها . والكلب إذا أتعب نفسه في شدّة النّباح مقبلا إليك ومدبرا عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التّعب والعطش. وعلى أنّنا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طبعت عليه من شأنها، إلا أنّ لهث الكلب يختلف بالشدّة واللّين!" .

وقال تعالى منفرا من شجرة الزّقّوم:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾. [الصافات/]

هذه شجرة لا توجد الا في قعر جهنم، قبيحة المنظر، هي طعام الاثمين، "فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا" وهو تفريع على جعلها فتنة أي محنة وعذابا للظالمين، لغلبة الجوع وإن كرهوها أو للقسر على أكلها، "ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ" أي لشرابا ممزوجا بماء شديد الحرارة، وهذا الشراب هو الغساق والغسلين عصارة دم وصديد اهل النار، كما قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ ﴾ .

قال المبرد: "وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين، في هذه الآية. فقال: إنما يمثل الغائب بالحاضر، ورؤوس الشياطين لم نرها، فكيف يقع التمثيل بها ! وهؤلاء في هذا القول كما قال الله جل وعز: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ .

وهذه الآية قد جاء تفسيرها على ضربين:

– أحدهما، أن شجراً يقال له الأَسْتَن، مُنكر الصورة يقال لثمره: رؤوس الشياطين، وهو الذي ذكره النابغة في قوله:

تَحيدُ عن أَسْتَنٍ سُودٍ أَسافِلُه   مثل الإماءِ الغَوادي تَحْملُ الحُزُما

وزعم الأصمعي أن هذا الشجر يسمى الصوم.

– والقول الآخر – وهو الذي يسبق إلى القلب – أن الله جل ذكره شنَّع صورة الشياطين في قلوب العباد فكان ذلك أبلغ من المعاينة، ثم مثّل هذه الشجرة مما تنفر منه كل نفس". [213]

وشبيه بالآية قول امرئ القيس في وصف الرمح الذي أعده لمن يجرؤ على مهاجمته:

أَيقتلُني والمشرفي مُضاجعي   ومَسنونةٌ زُرق كأنياب أَغْوال

يقول كيف يحاول هذا الخصم قتلي وأنا أبيت بصحبتي سيف بتار (منسوب الى المشارف) ورمح تشبه في حِدة سنها وفتكها أنياب أغوال، وإن كان الغول شيئًا خرافيا لكنه أصبح كالمشاهَد المُحَسّ، لكثرة التنفير منه والتخويف به فجاز جعله مشبها به، وعلى ذلك حُمِلت الآية كما صرح بذلك أبو عُبيدة في مقدمة كتابه "مجاز القرآن" وتبعه على هذا خَلق كثير.

213 الكامل، 70/3، والبيت يصف فيه الشاعر قوائم ثور.

الأَسْتَنُ: شَجَرٌ يَفْشُو في مَنابِتِه، فإذا نَظَرَ النَّاظِرُ إليه، شَبَّهَهُ بشُخُوصِ الناسِ.

التَّشبيه المَقلوب أو المَعكوس

الأصل في التشبيه أن يجري على سنن العرب المعروفة في كلامهم، وهي أن يلتمس المشبه به مما هو معروف ومألوف في حياتهم، حتّى ولو كان المشبه أقوى وأعظم في الصفة التي يشترك فيها مع المشبه به. ولهذا قد يعود الغرض الى المشبه به قليلا إذا قُصد إيهام أن المشبه به (وهو الذي كان في الأصل مشبها) أتم وأوضحُ في وجه الشبه من المشبه مبالغة، ويسمى التّشبيهُ حينئذ مقلوبا: وهو جعل المشبَّهِ مشبَّهاً به بادّعاءِ أَنَّ وجه الشبه فيه أَقوَى وأَظهرُ. وهو موضع من علم البيان حسنُ الموقع لطيف المأخذ . وقد سلك القرآن الكريم هذا السّنن فشبّه نور الله سبحانه وتعالى، وهو بلا شك أقوى الأنوار، بنور المصباح في مشكاة، لأنّ العرب جروا على عادة أن يجعلوا نور المصباح أكبر الأنوار وأعظم الأضواء .

۞ قال البحتري في وصف بِركة المتوكل الخليفة العباسي:[214]

214 من قصيدة يمدح بها الشاعر الخليفة المتوكل، وأبياتها بمثابة عقد منظوم من التشبيهات البديعة، فلا تكاد تجد بيتاً فيها إلاّ معتمداً على وصْفٍ تشبيهي بديع، يسُرُّ السامعين، ونقتطف منها الأبيات التالية:

يَا مَنْ رأَىْ البِرْكَةَ الْحَسْنَاءَ رُؤْيَتُهَا ... وَالآنِسَاتِ إذَا لَاحَتْ مَغَانِيـها
بِحَسْبِهَا أَنَّهَا فِي فَضْلِ رُتْبَتِـهَا ... تُعَدُّ وَاحِدَةً وَالْـبَحْـرُ ثَانِيـهـا
مَا بَالُ دِجْلَةَ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا ... فِي الْحُسْنِ طَوْراً وَأَطْوارا تُبَاهِيها
كَأَنَّ جِـنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلُوا ... إبْدَاعَها فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِـيـهـا
فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا بِلْـقِيسُ عَنْ عَرَضٍ ... قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلاً وَتَشْبِيهَـا
تَنْصَبُّ فِيهَا وُفُودُ الْمَاءِ مُعْجِلَةً ... كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيها
كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْـضَـاءُ سَائِلَـةً ... مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيها

تُغني بساتينُها القُصوى برؤيتها عن السّحائب مُنْحلاً عَزاليها
كأنها حين لَجَّتْ في تدفقها يدُ الخليفة لمّا سَال واديها

العزالي جمع عزلاء، وهي مصابُّ الماء من القِرب والجِرار وغيرها، واستعارها الشاعر هنا لقوة مياه السحاب ووفرته. ويد الخليفة جوده ومعروفه، وهو مجاز مرسل علاقته السببية، لأن اليد سبب في وصول النعم الى مستحقيها. والتشبيه في البيت الثاني معكوس، لأن الأصل أن يشبه كرم الرجل بالبحر والغيث والسحاب، فعكس التشبيهَ ادعاءً، فجعل الأصل (وهو وفرة مياه هذه البركة) فرعا، والفرع (جود الخليفة) أصلا، حتى يحقق مراده من المبالغة في المدح.

❁ وقال الشاعر ابن وهيب مادحا: [215]

وبدا الصَّباحُ كأنَّ غُرَّتَه وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ
لبستْ به الدُّنيا محاسنَها وتزَيَّنتْ بصفاتِهِ المِدَحُ
وإذا سَلِمْتَ فكلُّ حَادِثَة جَلَلٌ فلَا بُؤْسٌ ولَا تَرَحُ

وعن سر استحسان الناس مثل هذا التشبيه قال الجرجاني (ت/471 هج): [216]
"... جعل وَجْه الخليفة كأنه أعرفُ وأشهرُ وأتمُّ وأكملُ في النور والضياء من الصَّباح، فاستقام له بحكم هذه النِيَّة أن يجعل الصباحَ فرعاً، ووجهَ الخليفة أصلًا. واعلم أن

[215] هو محمد بن وهيب الْحِمْيَري (240هـ) وهو شاعر مطبوع، متشيع من شعراء الدولة العباسية، بصريّ الأصل بغداديُّ النشأة. والأبيات من قصيدة يمدح بهَا الْمَأْمُون، أَولهَا:

العذرُ إن أنصفتَ مُتضِحُ وشهودُ حبكَ أدمُعٌ سفُحُ

[216] "أسرار البلاغة"، ص/233، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

هذه الدعوى وإن كنت تراها تُشبه قولَهم: "لا يُدرَى أوَجْهُه أنورُ أم الصُّبح، وغُرّته أضوأُ أم البدر"، وقولَهم إذا أفرطوا: "نور الصباح يَخْفَى في ضوء وجهه"، أو "نور الشمس مسروقٌ من جبينه"، وما جرى في هذا الأسلوب من وُجوه الإغراق والمبالغة، فإن في الطريقةِ الأولى خِلَابةً وشيئاً من السحر، وهو أنه كأنه يستكثِر للصَّباح أن يُشَبَّه بوجه الخليفة، ويوهم أنه قد احتشَد له، واجتهد في طلب تشبيه يُفخّمُ به أمره، وجهَتُه الساحرة أنه يُوقع المبالغةَ في نفسك من حيث لا تشعر، ويُفيدُكَها من غير أن يظهر ادّعاؤه لها، لأنه وضع كلامَه وَضْعَ مَنْ يقيس على أصل متّفَقٍ عليه، ويُزَجّي الخبر عَن أمرٍ مُسلَّم لا حاجة فيه إلى دعوى ولا إشفاقَ من خلاف مخالفٍ وإنكار منكرٍ، وتجهُّمِ معترض، وتهكُّم قائلٍ: لِمَ؟ ومن أين لك ذلك؟ والمعاني إذا وردت على النّفس هذا الموردَ، كان لها ضربٌ من السُّرور خاصٌّ وحَدَث بها من الفَرح عجيبٌ، فكانت كالنعمةِ لم تُكدرها المِنَّة، والصَّنيعةِ لم يُنَغّصها اعتداد المُصْطَنِع لها . . .

ولطيفةٌ أخرى، وهو أن من شأن المَدح إذا ورد على العاقل أن يَقِفَه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقّهما: معرفةِ حقّ المادحِ على ما احتشد له من تزيينه، وقصِده من تفخيم شأنه في عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له، والدّلالة بالبِشر والطلاقة على حُسن موقعه عنده ومَلْكِ النفس حتى لا يغلبها السرور عليه، ويَخرج بها إلى العُجْب المذموم. . . ".

وقال عبد الله بن المعتز (247 – 296 هـ):

وجاءني في قميص الليل مستتراً ... يستعجلُ الخَطو من خَوفٍ ومن حَذرِ
ولاحَ ضوءُ هلالٍ كاد يفضَحُنا ... مِثْلُ القُلامة قَد قُدَّتْ من الظُّفُر

وقد عدَّ بعضهم هذا الوصف من التشبيه المردود (المعيب) إذ كيف يكشِفهما ضوء مثل هذا الهلال النحيل؟ والحقُّ أن الشاعر إنما قصد الشكل فقط وبغية الادعاء.

قال العلوي (ت/ 745هـ): "فالجاري في الاطراد، هو تشبيه القلامة من الظفر بالهلال في نحولها، وتقوسها، واعوجاجها، فعكس ابن المعتز ذلك، وشبه الهلال بالقلامة، مبالغة ودخولا وإغراقا من جهته في التشبيه كما هو دأبه وعادته المألوفة في الخمريات وغيرها. فحاصل الأمر فيما ذكرناه من تشبيه العكس أن جريه إنما يكون فيما قد أُلف وعُرف حاله، فلهذا لم يلتبس حاله، فأما ما لا يعرف حاله ولا يؤلف فلا يجرى فيه، فإن جرى فعلى القلة والندور، ويكون من التشبيه المهجور الذي قد بعد عن البلاغة، ونأى بعض النأي عن استعمال الفصحاء". [217] فالقلب في التشبيه لا يحسُن دائما إذ من المعاني ما لا ينقلب، فيقال مثلا: نام القوم كأنهم أموات، ولا يقال: ماتوا كأنهم نيام، وتقول لمن انقطعت حجته: هو صامت كالحجر، ولا تقول: هذا الحجر كأنه صامت، وهكذا . .

- ومن هذا النوع قول الشاعر في تشبيه شجر السرو أو الصنوبر:

حُفَّتْ بسَرْوٍ كالقِيانِ تَلَحفَّتْ خُضْرَ الحريرِ على قَوامٍ مُعْتَدِلْ
فكأنَّها والرِّيحَ حينَ تُمِيلُهـا تَبْغِي التعانُقَ ثم يَمْنَعُها الخَجَلْ

– في البيت الأول تشبيه مركب، حيث شبهت صورة هذه الحديقة وقد أحاطت بها أشجار ملتفة، خضر أغصانها، معتدلة قاماته، شبهت بهيئة جوار حسان

[160] "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" 93/1، يحيى بن حمزة العلويّ الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، 1423 هـ

القدود، وقد لبسن خضر الحرير الأخضر. والأصل أن تُشبَّهُ الجواري في اعتدال قدودهن بالسَّرْوِ تشبيهاً مُبْتذَلاً، ثم إنهم قد جعلوا الفَرْعَ أصلاً، فشبّهوا السَّرْوَ بهنّ.
– وفي البيت الثاني تشبيه مركب وفي طيه استعارة بالكناية أيضا –تكملة لهذا المنظر البديع– فأغصان هذه الأشجار، لتحريك الريح المستمر لها، كأنها فتيات لا تصل الى بعضها حتى تتلاقى، يمنعها من ذلك الخجل! وفي هذا التصوير تفصيل طريفٌ فاتنٌ، فقد رَاعَى الشاعر الحركتين حركة التهيُّؤ للدنوّ والعناق، وحركة الرُّجوع إلى أصل الافتراق، وأدَّى ما يكون في الحركة الثانية من سرعةٍ زائدةٍ تأديةً تُحْسبَ معها السّمعَ بصراً، تبييناً للتشبيه كما هو وتصوُّراً، لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرعُ لا محالة من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، وكذلك حركةُ من يُدركه الخجَلُ فيرتدع، أسرعُ أبداً من حركته إذا همَّ بالدنوّ، فإزعاج الخوف والوَجَل أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل، فمع الأوّل تمهُّل الاختبار، وسعة الحِوار، ومع الثاني حَفْزُ الاضطرار وسلطان الوُجوب. . .

وقال الشاعر في وصف قُرص الشمس:

وكأن الشمسَ المُنيرة دينا ... رٌ جَلَتْه حدائدُ الضَّرَّاب

شبه الشمس في استدارتها وحمرتها المتوهجة بدينار ذهب قد صَقلته يد الحداد. والعكس هو الأصل، لأن أول ما يتبادر الى ذهن المشبه أن يقارن شيئًا ما في استدارته وتوهجه بالشمس حيث إنها الغاية في ذلك.

وقال البحتريُّ في سحابة: [218]

كأن سَنَاهـا بالعَشِيِّ لصبُحهـا تبَسُّمُ عيسى حين يلفظُ بالوعْدِ

قلب الشاعر التشبيه ليُشْعِرَ بأَنَّه يرى تبسُّم ممدوحه عيسَى –حينما يَعِد طالبي نواله بالعطاء– أكثر ضياءً من برق السحابة، الذي استمر لماعاً طوال الليل، ، ولا شك أَن لمعان البرق أَقوى من بريق الابتسام، فكان المعهود أن يشبه الابتسام بالبرق كما هي عادة الشعراء، ولكن البحتري قلب التشبيه ادعاء، وكأنه يوهمنا بأن تبسُّمه حين يلْفِظُ بالوعد، ينبعث منه سَناً معنويٌّ يسُرُّ القلوب سروراً لا يكون حين يتلامع البرق.

وقال حافظ إبراهيم وهو في السودان يذكر حنينه الى أحبته في مصر:

أَحِـنُّ لهـم ودُونَـهُـمُ فَـلاةٌ كأَنّ فَسيحَها صَدْرُ الحَليمِ

فالشاعر يخبرنا بأن مفازة شاسعة حالت بينه وبين أحبابه، وشبّه فسيحها بصدر الرجل الحليم. فالتشبيه كما نرى مقلوب، إذ المعهود تشبيه صدر الحليم بالفلاة. ولكن الشاعر رغبة منه في المبالغة– ادّعى أن صدر الحليم أوسع من الصحراء، فعكس. والتشبيهُ المقلوب مظهرٌ من مظاهرِ الافتنانِ والإبداعِ، وطريقة معروفة عند العرب تتمثل في أن يُلتمس المشبه به مما هو معروف ومألوف في حياتهم، حتى ولو كان المشبه أقوى وأعظم في الصفة التي يشترك فيها مع المشبه به. وقد ورد حتى في القرآن الكريم، كقوله عز وجل حكايةً عن الكفار آكلي الربا: ﴿ . .قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا

---

[218] "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" لعبد الرحيم العباسي (1/ 149). و"زهر الآداب وثمر الألباب"، (3/ 657) لأبي إسحاق الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ). الناشر: دار الجيل، بيروت.

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . . ﴾ (البقرة /275)، في مقامِ أنَّ الرِّبا مثلُ البيعِ، عكسوا القضيةَ لإيهامِ أنَّ الرِّبا عندهمْ أحلُّ من البيعِ، لأنَّ الغرضَ الربحُ، وهو أثبتُ وجوداً في الرِّبا منه في البيعِ، فيكونُ أحقَّ بالحلِّ على حدِّ زعمِهم.

بل شُبه نور الله سبحانه وتعالى بنور المصباح، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ. . . ﴾ [النور/35]. ونور الله بلا شك أقوى الأنوار، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وقد جرى على عادة العرب في ان يجعلوا نور المصباح أعظم الأنوار.

ولأجل ذلك لما عاب الكندي أبا تمام مدح المعتصم بمن دونه منزلة –قصد إحراجه امام الخليفة– استشهد بما ضربه الله مثلا لنوره في الآية الكريمة السابقة. ولا بأس أن نورد القصة كما ذكرتها بعض كتب الأدب، لأنها تدل على فطنة الشاعر وبداهته وتمكنه من آلات البيان: [219]

قال الصولي: "حدثني محمد بن يحيى بن أبي عباد قال، حدثني أبي قال، شهدت أبا تمامٍ ينشد أحمد بن المعتصم قصيدته التي مدحه بها:

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسِ ... تَقْضِي ذِمامَ الأَرْبَعِ الأَدْرَاسِ
فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تُعِينَ بِمَائِهَا ... وَالدَّمْعُ مِنهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي

فلما وصل أبو تمام الى قوله:

أَبليَتَ هذَا المَجْدَ أَبعَدَ غَايَةٍ ... فِيهِ وأَكرَمَ شِيمةٍ ونِحَاسِ

[219] "أخبار أبي تمام" لأبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي (ت ٣٣٥هـ)، ص/33.

إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

قال له الكندي، وكان حاضراً وأراد الطعن عليه: الأمير فوق مَن وصفت، فأطرق قليلاً، ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُودًا فِي النَّدَى وَالبَاسِ

فالله قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً منَ المِشْكَاةِ وَالنِّبْرَاسِ

قال: فعجبنا من سرعته وفطنته.

وذلك في قوله تعالى في سورة النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ .[220]

---

220 فيما يلي تفسير هذه الآيات مختصرا من: "زاد المسير في علم التفسير" لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، 296/3، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢ هـ .

قوله تعالى: "اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" فيه قولان: أحدهما: هادي أهل السموات والأرض، لأن النُّور في اللغة: الضياء، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مُبصَراتها، فورد النُّور مضافاً إلى الله تعالى، لأنه هو الذي يُهدِي الخلائق وهم بنوره يهتدون. والثاني: مدبِّر السموات والأرض. .

قوله تعالى: "مَثَل نورِه" الضمير يرجع إلى الله عزّ وجل، اي مَثَل هُداه في قلب المؤمن. او إلى المؤمن، فتقديره: مثل نور المؤمن. . او إلى محمّد صلى الله عليه وسلم. او يرجع إلى القرآن.

ويقرب من هذا النوع –التشبيه المقلوب– ما ذكره شهاب الدين الحلبي في كتابه "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" وسماه تشبيه التفضيل، وهو أن يشبه شيء بشيء لفظاً أو تقديراً، ثم يعدل عن التشبيه لادعاء أن المشبه أفضل من المشبه به، كقوله:

مَن قاس جَدواكَ يوماً بالسُّحب أخطأ مَدحَك
السُّحب تُعطي وتبكي وأنت تُعطي وتَضحك

فأما المشكاة، فهي القنديل، والمصباح: الفتيلة، او أنها الكوّة التي لا منفذ لها، والمصباح: السراج. وإنما ذكرِ الزُّجاجة، لأن النُّور في الزُّجاج أشد ضوءاً منه في غيره. وقال بعض أهل المعاني: معنى الآية: كمَثَل مصباح في مشكاة، فهو من المقلوب.

أما الدُّرّيّ، فإنه من الكواكب الدّراري، وهي اللاتي يدرأن عليك، أي: يطلعن. او مأخوذ من درأ يدرأ: إذَا اندفعَ منقضاً فتضاعف نوره. او منسوب إلى أنه كالدُّرّ في صفائه وحسنه..

وقوله تعالى: "توقد مِنْ شَجَرَةٍ" أي مصباح الزجاجة، فحذف المضاف. فهي توقد من زيت شجرة، فحذف المضاف كذلك، يدلك على ذلك قوله تعالى: "يَكادُ زَيتُها يُضِيءُ". والمراد بالشجرة ها هنا: شجرة الزيتون، وإنما خصّت بالذّكر هنا دون غيرها، لأن دُهنها أصفى وأضوأ.

وقوله تعالى: "لا شَرقِيَّةٍ وَلا غَربِيَّةٍ" لأنها بين الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس. او أنها في الصحراء لا يُظلها جبل ولا كهف، فهو أجود لزيتها. او أنها من شجر الجنّة، لا من شجر

وقوله تعالى: "يَكادُ زَيتُها يُضِيءُ" أي: يكاد من صفائه يُضيء قبل أن تصيبه النار بأن يوقد به.

قوله تعالى: "نورٌ عَلى نورٍ نور": النار، ونور الزيت، ونور الزجاجة.

وقوله: "يَهدِي اللهُ لِنُورِهِ": نور القرآن ونور الإيمان. ونور محمّد صلى الله عليه وسلّم. ودينه الإسلام. أما وجه هذا المَثَل فللعلماء فيه اقوال كثيرة جدا، ومنها أنه شبّه القرآن بالمصباح يُستضَاءَ به ولا ينقص، والزجاجة: قلب المؤمن، والمشكاة: لسانه وفمه، والشجرة المباركة: شجرة الوحي، تكاد حُجج القرآن تتضح وإن لم يقرأ. وقيل: تكادُ حجج الله تضيء لمن فكر فيها وتدبَّرها ولو لم ينزل القرآن، نُورٌ عَلى نورٍ أي: القرآن نُور من الله لخلقه مع ما قد قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن...

وفي البيت الثاني استعارة بالكناية، حيث شبه السحب برجل كريم ثم حذف المشبه به او المستعار منه ودل عليه ببعض ما يعرف به وهو العطاء والبكاء . .

وفيه أيضا طباق بين لفظتي تعطي وتبكي، ومقابلة بين شطري البيت، حيث قابل بين فعل السحب وفعل الممدوح وفضله، وهذا أدل على المدح، وأوضح في البيان . .

وفي البيتين من أنواع البديع: "التفريق"، وهو أن يفرق بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمهما . نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ . [سورة فاطر/12]. وكقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً﴾ . جمع بين الليل والنهار في حكم واحد هو أنهما آيتان ودليلان على القدرة والحكمة، ثم فرق بينهما في ذلك الحكم من جهة أن الليل يكون مظلما والنهار يكون مضيئًا .

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

لائحة المصادر

- "القرآن الكريم" برواية حفص عن عاصم.
- "الأدب النبوي"، محمد عبد العزيز الشاذلي، دار المعرفة – بيروت، ١٤٢٣هج.
- "الإتقان في علوم القرآن"، لجلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- "أسرار البلاغة"، لعبد القاهر الجرجاني، ت. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب.
- "أسرار البلاغة" للجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة.
- "الإفصاح عن معاني الصحاح"، لابن هبيرة، ت. فؤاد عبد المنعم، ١٤١٧هـ.
- "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، للرافعي، دار الكتاب العربي، ط8، ١٤٢٥ هـ.
- "الأعلام" لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط. الخامسة عشر– ٢٠٠٢ م.
- "إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم"، للقاضي عياض، ت. يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء.
- "أمثال القرآن" لابن قيم الجوزية، ت. إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، طنطا.
- "أمثال الحديث"، لابن خلاد الرامهرمزي، ت. أحمد تمام، بيروت، ط1، ١٤٠٩م.
- "الإيضاح في علوم البلاغة" للخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي.
- "البحر المحيط"، لأبي حيان الأندلسي، ت. صدقي جميل، دار الفكر. ١٤٢٠هج
- "بدائع الفوائد"، لابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- "البرهان في وجوه البيان"، لإسحاق بن وهب، ت. حفني شرف، 1968م.

– "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"، لعبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، 1426هـ.
– "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد"، للقاضي عياض، المحقق: أيمن بن حامد الدسوقي، الناشر: دار الذخائر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ – ٢٠١٨ م.
– "البلاغة تطور وتاريخ" لشوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة التاسعة.
– "البلاغة العربية"، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، ط1، ١٩٩٦م.
– "البلاغة الواضحة"، علي الجارم ومصطفى أمين، الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
– "البيان في ضوء أساليب القرآن" لعبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، 1998م
– "البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية" لبدوي طبانه، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، الطبعة الثانية.
– "البيان والتبيين" للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر: ١٤٢٣ هـ.
– "بيان إعجاز القرآن"، أبو سليمان الخطابي، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت. محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، ١٩٧٦م.
– "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي.
– "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر.. " لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامي بمصر.
– "تفسير مقاتل بن سليمان"، لمقاتل بن سليمان الأزدي، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ
– "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد في حديث رسول الله ﷺ"، حققه: بشار عواد معروف وآخرون مؤسسة، الفرقان بلندن، ط1، ١٤٣٩ هـ.

– "تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري، ت. محمد مرعب، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2001م.

–"تيسير البلاغة في كتب التراث"، د. محمد بن عيسى باطاهر.

– "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، لابن جرير الطبري، دار التربية والتراث، مكة.

– "جامع العلوم والحكم"، لابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة– ط7، 1422هـ.

–"الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"، أبو بكر الخطيب البغدادي، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

– "جمهرة اللغة"، لمحمد بن الحسن بن دريد، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

– "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي"، لابن القيم، دار المعرفة، ١٤١٨هـ.

– "الحيوان"، للجاحظ، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

– "درء تعارض العقل والنقل" لابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

– "دراسات في علم النفس الأدبي" لحامد عبد القادر، القاهرة 1949م.

– "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" لجلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت.

– "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، لعبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة. الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

– "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر..."، لعبد الرحمن بن خلدون، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط2، ١٤٠٨ هـ.

– "زاد المسير في علم التفسير" لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢ هـ

– "زهر الآداب وثمر الألباب"، الحُصري القيرواني، الناشر: دار الجيل، بيروت.

– "سر الفصاحة"، لمحمد بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ.

– "سنن الترمذي"، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.

– "شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك"، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

– "شَرْح شِعْر المُتَنبي" لأبي القاسم ابن الإِفلِيلي، دراسة وتحقيق: مُصْطفى عليّان، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

– "الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية" لمحمد بن عيسى الترمذي، المحقق: سيد بن عباس الجليمي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ

– "الصبر والثواب عليه"، أبو بكر ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان، الناشر: دار ابن حزم، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

–"صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، لأبي العباس القلقشندي، دار الكتب العلمية.

– "صحيح البخاري"، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: جماعة من العلماء، لدى دار طوق النجاة – بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢ هج.

– "صحيح مسلم"، مسلم بن الحجاج القشيري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي – القاهرة.

– "الصناعتين"، لأبي هلال العسكري، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ.
– "طبقات فحول الشعراء" لابن سلّام الجمحي، ت. محمود شاكر، دار المدني.
– "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، يحيى بن حمزة العلويّ، الناشر: المكتبة العنصرية بيروت، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.
– "العقد الفريد" لأحمد ابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.
– "علم المعاني" لعبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، الأولى١٤٣٠ هـ.
– "العمدة في محاسن الشعر وآدابه"، الحسن بن رشيق القيرواني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار الجيل الطبعة: الخامسة، 1401 هـ – 1981 م.
– "عمدة القاري شرح صحيح البخاري"، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث.
– "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي، ت. عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي القاهرة.
– "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، 1379م.
– "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، لابن رجب الحنبلي، مكتبة الغرباء بالمدينة.
– "فتح القدير"، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، بيروت، ط1، ١٤١٤هج
– "قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث"، زكيّ العشماوي، دار النهضة العربيّة.
– "الكامل في اللغة والأدب"، لأبي العباس المبرد، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة: الثالثة 1417 هـ.
– "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، لجار الله الزمخشري، المحقق: أحمد عبد الفتاح تمام، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هج.

– "الكشف عن مساوي شعر المتنبي"، الصاحب بن عباد. المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين. الناشر: مكتبة النهضة، بغداد– الأولى، 1965 م.
– "لسان العرب"، لابن منظور، الناشر: دار صادر –بيروت، ط. 3، ١٤١٤ هـ.
– "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان"، م فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب
– "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، ضياء الدين ابن الأثير، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: 1420 هـ.
– "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، لضياء الدين ابن الأثير، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر، الفجالة ـ القاهرة.
– "المجازات النبوية"، للشريف الرضي، تحقيق مروان العطية ومحمد رضوان الداية.
– "مجاز القرآن"، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري، المحقق: محمد فواد سزگين.
– "مجالس العلماء" لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.
– "مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، لابن قيم الجوزية، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، 1416 هـ.
– "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
– "معاني القرآن"، لأبي زكريا، المحققون: أحمد يوسف النجاتي – محمد علي النجار – عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة. الطبعة: الأولى.

– "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"، لعبد الرحيم العباسي، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.
– "معجز أحمد" (شرح لديوان المتنبي) أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري.
– "مفاتيح الغيب"، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط3، ١٤٢٠
– "مفتاح العلوم" لأبي يعقوب السكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
– "المنهاج الواضح للبلاغة"، لحامد عوني، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث. ب ت
– "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هج.
– "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري، دار الكتب، ط1 ١٤٢٣ هـ.
– "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، المحقق: د. مفيد محمد قمحية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م.
– "النكت في إعجاز القرآن"، لأبي الحسن الرماني، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، المحقق: محمد خلف الله، دار المعارف بمصر، ط3، ١٩٧٦م.
– "النهاية في غريب الحديث والأثر"، للمبارك ابن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي. الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ.
– "وحي القلم"، للرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى 2000 م.
– "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: علي البجاوي و أبو الفضل إبراهيم– ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه– مصر. د. ت: د. ط.

فهرس الموضوعات

العنوان　　**الصفحة**

تم بحمد الله